الإسهامات الإيطالية

فى دراسة مصر الحديثة فى عصر

محمد على باشا

مجموعة مقالات مختارة لباحثين إيطاليين

ترجمة: عماد البغدادى

المشروع القومى للترجمة
المركز الثقافى الإيطالى
972

المشروع القومى للترجمة

الإسهامات الإيطالية في دراسة مصر الحديثة في عصر محمد على باشا

مجموعة مقالات مختارة لباحثين إيطاليين

ترجمة: عماد البغدادى



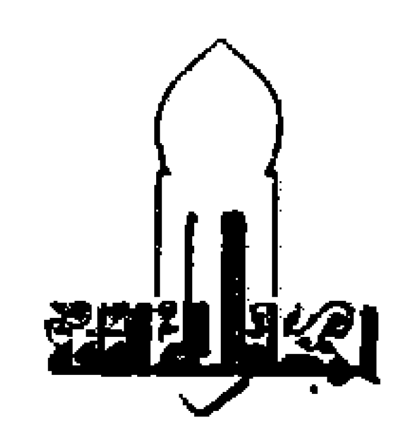
٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٩٧٢
- الإسهامات الإيطالية
في دراسة مصر الحديثة فى عصر محمد على باشا
- عماد البغدادى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة لمجموعة مقالات مختارة

هذه الترجمة صادرة بالتعاون مع المعهد الثقافى الإيطالى بجمهورية مصر العربية





شارع الجبلاية بالأوبرا ـ الجزيرة ـ القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
TEL: 7352396 Fax: 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمــذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة.

المحتويات

الإسهامات الإيطالية فى دراسة مصر الحديثة في عصر محمد على باشا

مذكرة تمهيدية

أنطونيو بليتيرى

إن تجميع مقالات لباحثين إيطاليين، لكتاب مترجم إلى العربية، ينشر كإسهام مناسب ومقبول فى الاحتفال بمؤتمر القاهرة حول "حكم محمد على"، الذى تنظمه وزارة الثقافة المصرية ليس بالأمر السهل، عندما يكون المؤلف بعمله مؤرخا للدول العربية ومتخصصا فى الدراسات الإسلامية. فالوقت قصير من ناحية، ومن الناحية الأخرى، هناك ضرورة عرض مجموعة من النصوص ذات القيمة الثقافية المعروفة عالميا للجمهور العربى والمصرى. وعلاوة على ذلك فإننى أذكر أنه ليس من السهل اختيار بضعة مقالات، دون أن نقابل بعض المصاعب، بحجة أن المقالات تمثل عن جدارة الإسهام الإيطالى فى دراسة مصر الحديثة فى عصر محمد على. وقد قبلت فى الوقت نفسه إعداد هذه المبادرة بالنشر، مع علمي بأن العملية ستكون أكثر تعقيدا مما نتخيل، على اعتبار أن تاريخ مصر الحديث وحكم محمد على يطرح، حتى على المعدل البسيط لمجموعة من النصوص، مشكلات ذات طبيعة تاريخية وتتعلق بالتناول المنهجى لا تزال حتى اليوم محور نقاش محتدم فى المجال العربى[1]. الأسباب متعددة. فمحمد على، كما كان يؤكد أومبرتو ريتسيتانو فى كتابه "تاريخ العرب"، كان "محور الاهتمام السياسى للقوى الأوروبية الحريصة على التخفيف من جموحه الإمبريالى، الذى يعتبر بحق الباعث الحقيقى لمصر، وصانع مصر الحديثة"[2]. ثانيا: أن إسهامات الباحثين الإيطاليين (بشأن حكم محمد على) هائلة من ناحية الكم، ولكن البعض فقط هو الذى له قيمة حقيقية لها قدرها"،

كما كان يؤكد ريتسيتانو[٣] فى مواضع أخرى. وأذكر هنا المستعرب الصقلى الكبير الذى مات فى باليرمو فى ١٩٨٠، وأستاذ المدرسة الصقلية رحمه الله، وليس آخرين، لأن الجميع يجمعون على أهمية إسهامه كمستعرب والموجه لتعريف إيطاليا، مع باحثين آخرين لامعين، الجوانب المهمة فى تاريخ وأدب مصر الحديثة والمعاصرة والوجود الإيطالى فى وادى النيل[٤].

وعلى الرغم من هذا فإننى آمل أن تكون النتيجة مقبولة. وأعتذر من الآن عن الانحياز للاختيار الذى قمت به.

ولكننى واثق من أن الأصدقاء العرب والزملاء الإيطاليين سيتفهمون الأسباب التى فضلت من أجلها بعض المقالات لمؤلفين عاشوا فى الماضى القريب وباحثين أحياء لهم نشاطهم. وهى مقالات مختارة لانسجامها ولاتجاهها لتعميق الجوانب المهمة وغير المستكشفة أحيانا. وقد أخذت فى الحسبان النقاش التاريخى كما أشرت، الذى تطور منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر حول شخصية وعمل باشا مصر، مع اهتمام خاص بالحداثة والتجدد و/أو عملية التفرنج. وقد شجعت على هذه العمليات إصلاحات محمد على فى مصر وكانت لها تأثيرات مهمة فى كل الشرق الأدنى العربى.

وقد تميز عمل محمد على بأنه يهدف لتجديد النظام فى مجمله، طبقا لأساليب مبتكرة أحيانا، وجريئة غالبا[٥]. والتشابه مع بطرس الأول ملك روسيا يمكن أن يبدو مفتعلا، ولكن مؤرخا شهيدا ماركسى النزعة، مثل فلاديمير لوتسكى، كان يقول: "إن (إصلاحات) محمد على كان لها طابع تقدمى على الرغم من أنها كانت تمثل عبئًا على الشعب"[٦]. وهناك آخرون يبرزون تغلب شخصية باشا القاهرة، التى تعتبر، كما يقول بيتر مانسفيلد، معروفة للجمهور العريض: "تكوين نادر لجندى وزعيم سياسى عبقرى حتى وإن كان أميا تقريبا، فقد كان الذكاء الحاد يسمح له باستيعاب المستجدات وتحليل الأهمية. وقد كان جريئا وطموحا بتفاخر وقادرا على القيام بفظائع رهيبة، ولم يكن محمد على يعتبر نفسه مصريا ولا

عربيا، ولم يتحدث أبدا العربية"[٧]. وهذه الملحوظة لمانسفيلد ربما تتأثر برؤية الشيخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى، الشاهد على الأحداث الواقعة بين مغامرة نابليون فى مصر ونائب السلطان العثمانى فى القاهرة. وفى عمل الجبرتى، الذى كان معروفا بعدم تقاطعه الشديد مع حاكم القاهرة الألبانى الأصل، ترتسم صورة ذكية بالفعل لمحمد على، ولكنه يصور على أنه متآمر ومتغطرس أحيانا[٨]. وإذا كانت أخبار العصر الذى كان يعيش فيه محمد على تعنى بالحياة الاجتماعية الطبيعية للقاهرة ومراكز حضرية أخرى فى مصر، دون توضيح الانفصال عن الماضى، بالتركيز على مسارات ثابتة من التاريخ الإسلامى والأجناس الأدبية المرتبطة به، كما فى حالة الجبرتى المذكور[٩]، فإن الإنتاج العربى والمصرى اللاحق، بداية من النصف الثانى من القرن التاسع عشر، يبدأ عملية تأمل ونقاش لا يزال البعض يشعر به وكأنه يحدث الآن. ويجدر بنا أن نشير بعض الإشارات القصيرة لبعض الجوانب الأساسية فى هذا النقاش ذى الطابع التأريخى المنهجى، لخدمة هذه المذكرة التمهيدية.

إن رأى المؤرخين المصريين فى نهاية القرن التاسع عشر يمكن أن يعتبر معروفا حتى وإن كانت هناك بعض الآراء القوية داخل الإنتاج المصرى نفسه. وهذه هى حالة محمد فريد بك، مؤلف كتاب قيم عن تاريخ الدولة العثمانية. وفى سياق دراسة قوية ومهمة مخصصة لسياسة محمد على، كان يصف باشا القاهرة بأنه "الرجل العظيم"[١٠]، ولذا فإننى أعتبر ملحوظة المؤرخ الدمشقى نعمان القساتيلى أكثر أهمية، حيثما كتب فى ١٨٧٩ يقول: "فى عام ١٨٣١، بدأت أحداث مهمة وكبيرة فى سوريا نتج عنها نقل البلاد للحكم المصرى ودخول أضواء الحضارة"[١١] وفى رأى المسيحى الأرثوذكسى القساتيلى نجد فكرتين متحدتين، وهما فكرتا الحكم والتقدم، اللتان ميزتا النقاش العربى فى الفترة اللاحقة. أى عندما أوضح المثقفون العرب بمزيد من الاقتناع، طبقا لأساليب الفهم لأفكار وطنية مشتقة من الثقافة الأوروبية، معنى العروبة والعملية التاريخية لوحدة العرب. وهذا لا يزال فى الوقت نفسه فى عمل وفكر سورى، هو محمد كرد على، الذى أشير إليه.

فالدمشقى كُرد على، مؤسس الأكاديمية العلمية العربية فى دمشق، شخصية مثقفة معروفة جدا فى مصر، حيث عاش فى القاهرة لسنوات طويلة. وقد عاش على اتصال وعمل مع رجال الثقافة والعلم المصريين والسوريين الكبار الذين عاشوا بين نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين: من محمد عبده إلى رشيد رضا، ومن الكواكبى إلى قاسم أمين، وهذه بعض الشخصيات اللامعة التى اعتادت المشاركة فى المجالس السياسية ـ الثقافية فى حدائق الأزبكية. وفى مقالة قصيرة كتبت عشية تأسيس الجامعة العربية فى القاهرة، كتب محمد كرد على يقول إن: "الوحدة العربية كانت على وشك التحقق فى الأزمنة الحديثة فى ثلاث مناسبات، أفشلتها إنجلترا! المرة الأولى فى زمن ابن سعود فى بدايات القرن التاسع عشر، والمرة الثانية فى فترة محمد على العظيم الذى كان قد وصل أثناء الحرب ضد العثمانيين حتى قلب تركيا، والثالثة أثناء الحرب الكبرى، عندما وعدت إنجلترا شريف قلة بحكم العرب"(١٢).

وكما يمكن أن نلاحظ، ربما كان دور محمد على هو إعادة بناء وحدة آسيا العربية، ولا يهم ما إذا كان هذا بمعرفة الباب العالى وبالاتفاق معه أم لا. وقد تعرض الإيطالى أمبرتو ريتسيتانو أيضا لسحر هذه الرؤية وكتب يقول إن محمد على بعد ١٨٣١ كان عنده الطموح لبناء إمبراطورية عربية شاسعة منفصلة عن تركيا. ومن هنا جاء غزو سوريا الذى قوبل بحماس كبير من السوريين الذين كانوا يؤيدون إعادة تكوين وحدة سوريا ومصر. وأضاف يقول إن العملية فشلت لتدخل بعض القوى الأوروبية التى رأت أن من المناسب فى ١٨٤٠ وقف الأهداف التوسعية للباشا المصرى(١٣).

والرؤية المصرية المعاصرة فى إعادة طرح الموضوعات الموضحة عاليه فى المجال العربى بصورة عامة، تضيف جانب الوطنية وخصوصية دور مصر فى الإطار الإقليمى والعربى. ولكن قد يكون من غير اللائق الاعتقاد أن الرؤية التى تأكدت على ضفاف النيل فى السنوات التى سبقت ثورة ٢٦ يوليو ترجع فقط

لمصالح تأكيد الشرعية للأسرة الحاكمة فى مصر حتى أوائـل القـرن العشـرين. وهناك دراسات عديدة ومهمة عن الموضوع ولقاءات بحثية مهمة أجريت للتـذكير والتدبر فى عمل محمد على وابنه إبراهيم(١٤). ويكفى الجميع ذكر الكتاب الشـهير الذى أصبح الآن من كلاسيكيات التاريخ المصرى، لعبد الرحمن الرافعـى. فهنـا تبحث شخصية وعمل محمد على فى إطـار الوطنيـة المصـرية و/أو " تحقيـق الاستقلال القومى". وحتى الحروب التى خاضها الباشا المصرى فى شبه الجزيـرة العربية وفى بلاد الشام ينظر إليها فى هذا السـياق المـذهبى(١٥). وبـالنظر إلـى الإشكالية المعقدة التى أشرنا إليها هنا باختصار، أردنا فى الوقت نفسه افتتاح هـذا الكتاب بإسهام حديث لـ بيانكا ماريا سكارتشا أموريتى، وهى متخصصة مرموقـة فى العلوم الإسلامية ومؤرخة للإسلام فى جامعة رومـا لاسابيينتا. ويبـدو مقـال سكارتشا أموريتى من هذه الزاوية مهما جدا، حيث إنه يضع مشكلة الهويـة و/ أو "الصبغة المصرية" فى علاقة مرجعية بسياسة محمد على وقراءة بعـض الإنتـاج العربى المعاصر، مثل عمل الجبرتى المذكور. ولابد من الانطـلاق مـن قـراءة الوثائق والمصادر التاريخية الثقافية، وتحليل النصـوص بهـدف التـدبر الهـادئ والصارم من الناحية المنهجية، كما تبين الباحثة الإيطالية، والمقالان التاليان اللـذان يحملان طابعا تاريخيا وسياسيا. والمقال الأقدم هو " القضية المصرية مـن ١٧٩٨ إلى ١٨٤١" لكارلو جيليو المعروف بدراساته فى التاريخ السياسـى الاسـتعمارى، والثانى مأخوذ عن الفصل الأول من مذكرة "تاريخ مصر" لـ برونـو أليبتـى، الموظف الكبير فى وزارة الخارجية، الذى سلمنا صورة لتاريخ هذا البلد العربـى، بداية من الفترة التالية لمحمد على، يزاوج فيه المؤلف بين التحليل الدقيق، والقـدرة على التلخيص والتركيب المتين، كما قال ريتسيتانو(١٦) فى تعليقه. ولا يهم بعد ذلك أن يكون الإنسان منحازا كما هو الحال مثلا فى المؤلف المهم والأساسى للمصرى جمال الدين الشيال، الذى يقترح منذ مقالاته الأولى مفتاحا للقراءة، فى تلاحم تـام مع دراسة المصادر والوثائق الأرشيفية. ويمكن أن نعتبر كتابـه الجميـل "تـاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على من الكلاسـيكيات إلـى الآن"(١٧).

ويرى الشيال أن الخاصية المميزة لعمل محمد على كانت التوجه لأوروبا ليأخذ ما كان مفيدا لتحديث وتقوية سلطته وكان مرتبطا بتقاليد وأعراف آبائـــه والعثمـــانيين أكثر مما كان عليه العثمانيون أنفسهم فى تلك الفترة. ويضيف الشـــيال أن محمـــد على اختار لعمله هذا سبيلا وسطا، وفى المدارس الجديدة استخدم طلبة ومدرســـين قادمين من مؤسسات قديمة مثل الأزهر.

وخلص إلى أن الباشا الكبير فى القاهرة "بدأ فى مصر عهدا جديدا وبفضـــل كل الأدوات المستخدمة" حاول محمد على وضـــع الغـــرب فـــى مصـــر لتحقيـــق الإصلاحات كما كان معتادا فى الغرب نفسه، ولكنه لم يقم بأى جهـــد لكـــى ينقـــل مصر إلى الغرب، بل إنه اتجه للحفاظ على روحانيتها وتقاليدها"(١٨).

وتمهد الآراء التى عبر عنها الشيال للجانب الثانى، الـــذى أوليناـــاه أهميـــة خاصة فى اختيار المقالات الإيطالية لهذا الكتاب؛ وهو جانب الإصلاحات فى عهد محمد على، ونقل المعارف الحديثة من أوروبا وأساليب تلقى هذه المعـــارف فـــى المجال المصرى والإقليمى، وبالتالى العلاقات المعقدة والمحفوفة بالمشـــاكل مـــع الدول الأوروبية. وبمناسبة هذا الموضوع الأخير، لم يكن من الممكن أن يغيب فى هذه المجموعة من الدراسات مقال للمؤرخ أنجلو سان مـــاركو بعنـــوان "الوثـــائق الدبلوماسية المتعلقة بحكم محمد على وأرشيفات الدولة الإيطالية". وتعبـــر عمليـــة التجميع والتحليل التى قام بها سان ماركو للوثائق الإيطاليـــة المتعلقـــة بالعلاقـــات الدبلوماسية إسهامًا على جانب كبير من الأهمية لمعرفة تاريخ مصر فى فترة محمد على وفى القرن التاسع عشر بصفة عامة. وقد تلقى سان ماركو من الملـــك فـــؤاد تكليفا ملزما باستكمال الدراسة ونشر الوثائق الدبلوماسية الإيطالية المتعلقـــة بحكـــم باشا القاهرة، والتى كان جمعها قد بدأه المستعرب والمتخصـــص فـــى الدراســـات التركية أوجينيو جريفينى الذى استدعى إلى القاهرة كأمين مكتبة فى القصر الملكى والمعروف بعد ذلك بأوجينيو جرفينى بك(١٩).

وعمل سان ماركو مهم، وكان من أثر الوثائق التى جمعت تشجيع صـــياغة

تصورات وتقديرات تاريخية جديدة. وقد منع اندلاع الحرب العالمية الثانية وموت الباحث الإيطالى للأسف استكمال العمل[٢٠]. وعلى الرغم من أنه غير مكتمل، فإنه يظل أداة أساسية لمعرفة الأحداث التى حدثت فى زمن محمد على، ويكفى أن نشير، على سبيل المثال، إلى الجزء من العمل، وهو المتعلق بغزو سوريا. ويطرح سان ماركو فى هذا الجزء وثائق مهمة معظمها تقارير بالمراسلة للقناصل ورجال الأعمال المرتبطين بالنمسا مثل مراسلات الإيطالى جوزيبى أتشيربى (١٧٧٣-١٨٤٥) قنصل النمسا فى مصر، إلى مترنيخ من الإسكندرية، والتى تتناول العمليات العسكرية وحالة الجيش العثمانى والجيش المصرى وشخصية محمد على نفسه، كرجل خشن ومتعجرف، ومهتم فقط بمصالحه ومصالح عائلته (انظر "خطاب القنصل أتشيربى للسفير البابوى أوتنفيلس"، فى ٥ يوليو ١٨٣٢، من الإسكندرية، ص ١٩-٢٣). وموضوع البحث فى هذا الجزء هو أيضا موضوع وجود المدربين العسكريين الإيطاليين فى هذا المعسكر وذاك، أو المصرى والعثمانى. والتقييم الذى يستخلص من تحليل الإصلاحات المتفرنجة، طبقا للوثائق الإيطالية التى جمعها سان ماركو هو أن هذه الإصلاحات ربما مست النخب فى السلطة والدوائر العسكرية، مما شجع فى نهاية المطاف المؤسسة الحاكمة فقط. ولكن الشعب المصرى ربما عانى من التجنيد الإجبارى، والحرب الطويلة والسياسة الضريبية الثقيلة. وكان الشباب القبطى نفسه، كما تذكر تقارير مهمة، مضطرا لأول مرة للتجنيد، ليس لواجبات عسكرية ولكن للدعم اللوجيستى ولمهام متواضعة.

وفى تقرير لـ دى روسيتى إلى فوسومبرونى، من الإسكندرية فى ١٨ أغسطس ١٨٣٢، كتب يقول: "إن هذا الباشا يستعد من جانبه للدفاع، مما سيلحق بملكه الضرر الهائل الذى سيفرغ بلده من أفضل السواعد، تاركا بذلك الزراعة التى يستمد منها وحدها موارده، بهجوم عسكرى مفاجئ، وفى حملة لا يمكن أن تكون مواتية لهم. وإذا استطاع الحصول على تسوية، فإنه سينتصر فى قضيته، ولكن مع حرب طويلة ستضعف مصداقيته وتغيب، وقد أنهكت شعبه المعاناة

والأعباء، ومن السهل أن يتمرد عليه جيشه الذى لا يعرف إلى أين سيخرج به، والتجارة الأوروبية، إذا لم تجد أمنا كاملا، فإنها لن تخاطر برءوس أموالها ولا بالأموال السائلة لشراء هذه المنتجات، ولا فى سلع لا يريد أحد المغامرة بها فى مخاطر الهزيمة. وهذا الارتياب الطبيعى سيكون قاتلا لماليات هذا الباشا، إذا لم يوقف التطور السريع هذه الحرب، ولكن يبدو أن من العبث الأمل فى ذلك. إن هذا الصراع يمكن أن يصبح سريعا أوروبيا، وربما فى هذه الحالة سيجد الباشا الخلاص فى السياسة المختلفة لدول أوروبا المهيمنة (ص ١٤٧-١٤٩). وهناك علاوة على ذلك بعض الآراء المهمة المتعلقة بعمل إبراهيم باشا فى حملة سوريا، كما فى خطاب أكوراتى الطويل لـ أوتنفيلس من الإسكندرية ٢٦ يونيو-٢٧ يوليو١٨٣٢، الذى كتب يقول فيه: "فى كل النقاط التى زارها الكاتب فى سوريا، وجد ما يؤكد رأيه بأن المسلمين يطيعون الحكومة الجديدة فقط بفضل أعمال العنف، التى يمارسها إبراهيم، الذى لم يضع السلطان فى طريقه أى عقبة، دون عقاب، ضد كل أولئك الذين يعلنون معارضتهم لمحمد على" (ص ٣٥) ويمكن الاعتراض بأن بعض القناصل الإيطاليين فى خدمة النمسا كانوا منحازين ويخدمون سياسة الدولة التى كانوا يمثلونها. ولكن يبقى الاهتمام الكبير بعمل سان ماركو المهم، الذى يظل للأسف غير معروف للمؤرخين المعاصرين أنفسهم فى إيطاليا.

ولا شك فى أن الدور الذى لعبه الإيطاليون فى تحديد العمل الإصلاحى للباشا المصرى، منذ اللحظات الأولى لتعزيز سلطة محمد على، يعتبر دورا بارزا. وإذا أردت الحديث عن دور الرحالة الإيطاليين وعلماء الآثار أو الباحثين عن الآثار والباحثين بصفة عامة فى مصر منذ الأيام الأولى للقرن التاسع عشر قد لا يكفينا كتاب بأكمله. وأذكر هنا الشخصية المعقدة والمهمة لجوفانى باتيستا بيلتسونى من بادوفا. فقد وصل إلى القاهرة فى ١٨١٥ وتعاون مع ألمع علماء الآثار الموجودين آنذاك فى وادى النيل، وبعد العودة إلى أوروبا فى ١٨١٩ نشط للتعريف بروائع مصر القديمة. وعلى الرغم من حبه لمصر فقد اضطر لترك البلد العربى، ولكن يبدو أنه قد قال قبل ذلك كلمات مريرة إزاء "بعض الأوروبيين الموجودين فى مصر، الذين يمثل مسلكهم وعقليتهم عارا على الجنس البشرى"[٢١]. وقد دخل

جيرولامو سيجاتو، القادم من مدينة بيللونو، بعد أن وصل إلى مصر في ١٨١٨، في دائرة المتخصصين الأوروبيين، الذين استدعاهم محمد على لبناء قناة ملاحية لتجنب القناطر الثانية، وقد كانت الإقامة فى مصر بعد ذلك مهمة جدا لجوفانى باتيستا بروكى، وهو عالم في التاريخ الطبيعى، ولد فى باسانو في ١٧٧٢، ونستخلص من عمله الضخم، المشار إليه فيما بعد، أخبارا مهمة عن حقبة محمد على. ومن ناحية أخرى يذكرنا الشيال نفسه بمدى أهمية دور الإيطاليين. فمنذ السنوات الأولى من حكم محمد على، ما كتب الباحث المصرى، توجه إلى إيطاليا، علاوة على إنجلترا وفرنسا.

وتأكيدًا لما يقوله، يحكى الشيال الدور الذى قام به عثمان نور الدين، المساعد الوثيق للباشا المصرى فى الدعم المقدم لتعليم الإيطالية في القاهرة والعلاقات مع إيطاليا. وقد رأس عثمان نور الدين الوفد المصرى المبعوث إلى إيطاليا من قبل محمد على فى ١٨٠٩ ومن هنا إلى فرنسا[٢٢]، للقيام بمهمة إعادة بناء المطبعة التى كانت قد أغلقت، وقد حدث هذا بعد أن ترك الفرنسيون مصر، وكان المستشرق مارسيل المسئول عن المطبعة قد نقل إلى باريس كل مواد الطباعة المستوردة من إيطاليا إلى تلك الدولة. وكان نابليون فى نهاية القرن الثامن عشر قد حصل بالفعل على الأحرف العربية من "مطبعة الدعاية فى روما"، التى جند منها العاملون الفنيون الذين كانوا يعملون تحت رئاسة مارسيل. وقد كانوا من العمال المتخصصين مثل جوفانى جورتى وجوفانى رينو، المسمى بـ "الشرقى"؛ ومؤلفين أمثال كاميللو روجا ونيكولو روزيللى وفرنشيسكو ماكاتى، وطباعين، مثل جوزيبى دى دومينيتشيس، ولويجى بيلليجرينى وفيليتش أنسيليونى. وكانت المطبعة موجودة فى الإسكندرية فى بيت نائب قنصل فنيسيا. ولم يكن من قبيل الصدفة أن أول عمل يصدر فى مصر كان مقالة طبية إيطالية" وصف التهاب العين فى مصر مع الطريقة العلاجية لأنطونيو بافاريزى، طبيب الجيش الفرنسى فى الشرق"، والمطبوع فى القاهرة فى العام الثامن من الجمهورية الفرنسية[٢٣]. وقد أشرف نور الدين علاوة على ذلك على تأسيس مدارس كانت تدرس فيها اللغة الإيطالية واجتهد

لتشجيع ترجمة نصوص إيطالية إلى العربية والتركية. وكانت اللغة الإيطالية تدرس في مدارس بولاق وقصر العينى، وبعد ذلك فى مدرسة المهندسخانة فى بولاق وفى بعض المدارس العسكرية[٢٤]. وعلاوة على ذلك جلب من إيطاليا مدرسين ومدربين عسكريين واشترى آلات للطباعة[٢٥]، وكتبا مفيدة تطرح على الجمهور المصرى من خلال عمل المترجمين المصريين والسوريين – اللبنانين بصفة خاصة، الخبراء فى التركية والعربية. كان عثمان نور الدين شخصية مهمة، وبعد أن زالت حظوته بعد ١٨٣٠ بسبب معارضته لحروب محمد على ضد الباب العالى، شجع أيضا وجود الأطباء الإيطاليين فى مدارس الطب وفى المستشفيات العسكرية. وهذه الأخيرة جوانب مهمة، خصصت لها هنا مساحة كبيرة مع دراستين للصقليين رستيفو وسبتسيالى.

ولم يكن المدرسون الأجانب الفرنسيون والإيطاليون والإسبان يعرفون سوى لغتهم ولكن التلاميذ كانوا يعرفون فقط العربية، وهو سبب جعل من الضرورى تأسيس وظيفة المترجم الوسيط بين المدرس والطالب. وفى مدارس الزراعة والهندسة الحديثة، التى أسست فى تلك الفترة، كانت تدرس الإيطالية والعربية والفارسية والتركية، علاوة على الفرنسية. وفى ١٨١٥ أسس مكتب المهندسخانة فى القلعة. وهنا أيضا، علاوة على العربية والتركية كان بوسع الكثير من الطلبة اختيار دراسة الإيطالية. وفى مدرسة الهندسة الثانية، المؤسسة فى ١٨١٩، كان يدرس السيد كوستا، بينما كان يدرس بالعربية والإيطالية تحت إدارة السيد توديرى[٢٦]. وعلاوة على الشيال، تعد شهادة بروكى المذكور حاسمة. فقد وصل بروكى بالفعل إلى مصر فى ١٨٢٢، وبقى فيها لخدمة الباشا فى القاهرة حتى الوفاة التى وقعت فى الخرطوم فى ٢٣ سبتمبر ١٨٢٦. ويقول رجل العلم والرحالة الإيطالى إن المكابس الخاصة بالطباعة كانت مستوردة من ميلانو والورق من ليفورنو؛ وفى مرحلة أولى كان الحبر أيضا مستوردا من إيطاليا، قبل أن ينتج فى مصر. والشيء نفسه يقال عن الأحرف العربية والتركية والإيطالية واليونانية أيضا المصنوعة فى ميلانو[٢٧]. وفى أوائل ١٨٣٥ أسست فى القاهرة مدرسة الألسن باسم مدرسة الترجمة، وكان يرأسها الشيخ الإصلاحى المعروف رفاعة

الطهطاوى[٢٨]. وقد تطلب تأسيس المدارس الجديدة أيضا شراء كتب الأدب والتاريخ باللغة الفرنسية غالبا من أوروبا، وقد شجع هذا نشاط الترجمة فى قطاعات الطب والرياضيات والهندسة والعلوم العسكرية والعلوم الاجتماعية والأدب والتاريخ والفكر السياسى. وعلى الرغم من أن الإيطالية منذ تلك اللحظة تركت المجال للفرنسية والإنجليزية، إلا أن الاهتمام باللغة الإيطالية استمر فى البقاء حيا. وكانت الترجمة عن اللغات الأوروبية، كما يذكر الشيال، من بين الخصائص الرئيسية لسياسة محمد على. ومن بين المطبوعات والترجمات الأولى نذكر طباعة قاموس إيطالى ــ عربى فى مطبعة بولاق فى ١٨٢٢، من إعداد السورى، الأب أنطون رفاعة الزاخور[٢٩]، الذى أعد أيضا الترجمة العربية لرواية "الأمير" لماكيافيللى فى ١٨٢٤-١٨٢٥[٣٠]. وفى ١٨٣٤ ترجم أخيرا إلى التركية "تاريخ إيطاليا" لـ "بوتا"، ولكن عن الفرنسية[٣١]. وقد فرضت عملية الترجمة، كما فى حالة الأمير لماكيافيللى وتاريخ إيطاليا لـ "بوتا" مشكلات كبيرة على المترجمين الذين لم يتمكنوا فى مقاطع عديدة من ترجمة فكر المؤلفين بصورة صحيحة. ويشير مقال ماريا نالينو المهم الذى اختير لهذا الكتاب إلى الإشكاليات المرتبطة بالترجمة، والاستخدام غير الدقيق غالبا للكلمات والمفاهيم. والشيال نفسه يشير إشارات كثيرة لمقال نالينو، وأنا واثق من أن الترجمة العربية للمقال نفسه ستلقى تقدير الباحثين العرب والمصريين.

وأختتم هذه المذكرة التمهيدية القصيرة بالأمل فى أن يلقى هذا الإسهام الإيطالى الصغير والجزئى تشجيعا وأن يعتبر أداة لمزيد من الدراسات المتعمقة. وأود أن أشكر الصديق أنجلو جويه، الملحق الثقافى فى المعهد الثقافى الإيطالى فى القاهرة للمساندة التى قدمها لتحقيق المبادرة. ولابد أن أشكر علاوة على ذلك إدارة المجلة العلمية الإيطالية المرموقة "الشرق الحديث"، التى نقلنا عنها بعض المقالات المجموعة هنا، ومعد كتاب "الترجمة والتجديد فى مصر (١٧٩٨-١٩٩٨)"، وأعمال المؤتمر الذى نظمته فى ميلانو جمعية دراسات الشرق الأوسط. وقد أخذت عن هذا الكتاب (ميلانو، ٢٠٠٠) مقالات سكارتشا أموريتى ورستيفو وسبتسيالى.

هـوامش

(١) من المفيد أن نرى من هذا المنظور المقالة الأخيرة للباحث المصرى محمد عفيفى، عرب وعثمانيون، رؤية مغايرة، دار الشروق، القاهرة..

(٢) أ. ريتستاتو، تاريخ العرب، دار نشر مانفريدى، باليرمو ١٩٧١، ص ٢٤٢، ٢٤٦.

(٣) أ. ريتستاتو، "Ali studi di storia araba" فى Ali studi sul vicino oriente in italia dal 1921 al 1970 المجلد الثانى، ص ٢٧-٦٧، ص ٦٣

(٤) إن إسهام أمبرتو ريتسيتاتو، المولود فى مصر ١٩١٣، والمعروف والمحبوب جدا فى هذا البلد وفى العالم العربى بصفة عامة يعتبر بلا شك هاما ومنوعا فى مجال النشاط الجامعى، ونشر اللغة، والثقافة الإيطالية فى مصر والدراسات العربية الاسلامية فى المجال المصرى، والتى كرس لها المستعرب الصقلى جانبا هاما من أعمالهخ فىة شبابه فى الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين. وقد نشر العديد من المقالات فى المجلة الإيطالية Oriente Moderno وفى مجالات مصرية هامة. وقد يطول بنا الحديث إذا ذكرنا مقالات ريتسيتاتو فى تلك الفترة، وأذكر على سبيل المثال،"studi di storia islamica in Egitto (1940-1952)" فى O M، العدد ٣٣، ١٩٥٣ (ص ص ٤٤٢-٥٦)؛ "lingua e cultura italiana in Egitto"

فى Paninae institionis binquarum، القاهرة ١٩٥٥.

"un secolo di giornalismo italiano in Egitto (1845- 1945)

فى Cahiers d'histoire Egyptienne، السلسلة ٨، الملزمة ٢- ٣، مايو ١٩٥٦ (ص ١٢٩-١٥٤)

(٥) جدير بالذكر أن ألبـــرت حـــورانى storia die popoli arabi, da maometto ai) nostri giorni, ترجمة إيطالية، موندادورى، ميلانو ١٩٩٢ A histoy of the arab people, 19991)

يخصص نبذات قصيرة لمحمد على، مدرجا عمله الاصلاحى فى الإطـــار الأعـــم لسياسة التحديث التى بدأها العثمانيون منذ عصر سليم الثالث أولا ومحمود الثـــانى بعد ذلك، بعد ١٨٢٠. ويوضح أنه كون حوله جماعته المسيطرة العثمانية المحليـــة المؤلفة من الأتراك والمماليك، وجيش حديث ونخبة من الموظفين والمتعلمين جيدا، واستخدمهم لفرض السيطرة على الإدارة وتحصيل الضرائب فى كل البلاد، ليمدها إلى أبعد من ذلك حتى السودان وسوريا والجزيرة العربية".

(٦) وقد اضاف قائلا: "كـــارل مـــاركس (فـــى New york daily tubrne ٢٥ يوليـــو ١٨٥٣) قيم ايجابيا إصلاح محمد على الذى كان يصفه بأنه الرجل الوحيـــد الـــذى يستطيع استبدال رأس حقيقى بعمامة توضع علـــى الـــرأس" (المجلـــد الســـادس. لوتسكى، storia moderno die paesi arabi ترجمة إيطالية، دار نشر تيتى، ميلانو ١٩٧٥، ص ٧٠)

(٧) بيتر مانسلفيد، storia del medio Oriente، ترجمة إيطالية، SEI تورينو ١٩٩٣/ A history of the Middle East، ص ٥٤. وجدير بالذكر ان تنـــاول المـــؤرخين الإيطاليين والأوروبيين الرئيسية غير المتخصصين يشير إلى عمل محمد على فى إطار سياسة القوى الأوروبية الرئيسية وما يسمى بقضية الشرق. ولكـــن يتضـــح الاهتمام الضئيل بالواقع الإسلامى الإقليمى والسياسة الإجتماعية لباشا القاهرة.

(٨) راجع عبد الرحمن الجبرتى، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبـــار، المجلـــد الثانى، طبعة دار الفارس، بيروت، بدون تاريخ، المجلد الثانى، فى مواضع متفرقة. وبصفة عامة انظر تناول أحداث السنتين ١٢١٨و ١٢١٩ مـــن الهجـــرة (١٨٠٤-١٨٠٥ ميلادية)، اللتين يرسم فيهما المؤلف، كمتفرج كبير، إجراءات وصول محمد على للسلطة.

(٩) يجدر بنا أن نذكر رحلة الحج التى قام بها الشاب عبد القادر الجزائرى الذى كـــان يصاحب الأب محيى الدين فى ١٨٢٥. راجع "الحاج مصطفى التهـــامى، صــــراط الأمير عبد القادروجهاده"، إعداد يحى بو عزيز، دار الغرب الإسلامى، بيـــروت. الطبعة الأولى، ١٩٩٥. الجزء المخصص للمرور بمصر يتضح أنه قصير ولكنـــه عرض هام للحياة اليومية فى الإسكندرية والقاهرة، من الناحية الدينيـــة والثقافيـــة. عند العودة من مكة وصل الجزائريان إلى القاهرة (قاهر مصر) فـــى أيـــام مولـــد النبى. وفى هذه المناسبة، يلقى الضوء على جو العيـــد، والعديـــد مـــن الأضـــواء المضاءة فى كل مكان وخاصة فى منطقة الحسين، وفى المســـاجد وقبـــر الإمـــام الشافعى. ويتضح علاوة على ذلك أن الفرحة كانت قد زادت للتزامن مع الفيضـــان السنوى للنيل (ص ١٢١).

(١٠) راجع محمد فريد بك، "تارخ الدولة العالية العثمانية"، دار الجيل، طبعة بيـــروت، ١٩٧٧، ص ١٩٢. وجدير بالذكر ان محمد فريد، فى رسم عهد محمد على، كـــان يؤكد على ان مصر جزء من الإمبراطورية العثمانية (ص ٢٣٣).

(١١) راجع نعمان قساطيلى، "الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء"، دار الرائـــد العربـــى، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٢/ الطبعة الأولى ١٨٧٩، ص ٨٧

(١٢) راجع "القول فى الوحدة العربية"، فى محمد كرد على، "أقوالنا وأفعالنا"، القـــاهرة، ١٩٤٦، ص ص ٣٣٩- ٣٤٨.

(١٣) أ. ريتسيتاتو، تاريخ العرب، المرجع المـــذكور، ص ص٢٤٢- ٢٤٨: الصـــحوة" (ص ٢٤٥)

(١٤) بالنسبة للقاءات التى نظمت فى مصر، انظر ذكرى البطل الفـــاتح إبـــراهيم باشـــا ١٨٤٨- ١٩٤٨، أعمال المؤتمر الذى نظمته الجمعية الملكية للدراسات التاريخيـــة فى القاهرة بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة ابن محمد على، مكتبة مدبولى، القـــاهرة ١٩٩٨. وفى خطاب الافتتاح أكد عبد الرازق أحمد السنهورى باشا بوضوح قائلا:

"إذا لم يكن إبراهيم عربى المولد، فإنه عربى النشأة والموطن، عربى اللغة والعاطفة، عربى المجد والعظمة، أتى مصر طفلا فغيرت شمسها دمه فجرى عربيا" راجع كلمة الافتتاح، ص.و) ومؤخرا، فى ١٩٩٩، جرى فى القاهرة لقاء للدراسات حول محمد على بمناسبة الذكرى الـ ١٥٠ لوفاته. راجع رؤوف عباس(إعداد)، "إصلاح أم تحديث. مصر فى عصر محمد على". ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بمناسبة مرور ١٥٠ عاما على رحيل محمد على باشا الكبير، ٩-١١ مارس ١٩٩٩، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

(١٥) عبد الرحمن الرافعى، عصر محمد على، الطبعة الثانية، القاهرة، دار المعارف ١٩٨٩/ الطبعة الأولى، ١٩٣٠. وهناك صورة لها مغزاها فى ص ٥٦٥ من الكتاب تصور إبراهيم باشا مع التعليق التالى: قائد الجيوش المصرية فى حروب الاستقلال (١٧٨٩- ١٨٤٧).

(١٦) أ. ريتسيتاتو...un secolo di المرجع المذكور، ص ٦٥. ولكننا لم ندرج فقرات مأخوذه عن الصقلى المرموق أ. فيرزى، "تكوين مصر الحديثة والإسهام الإيطالى فى نهضتها السياسية والحضارية فجر البعث المصرى"(١٧٦٠- ١٨٤٠)، مسينا ١٩٣٨.

(١٧) القاهرة، دار الفكر العربى، ١٩٥١.

(١٨) نفس المرجع ص ص ٦-٧ و١٠ وليس من قبيل الصدفة أن عنوان المقدمة هو"النقل عن الغرب وسيلة محمد على للإصلاح"، (ص ٥)

(١٩) أ. ريتسيتاتو، un secolo di، المرجع المذكور، ص ٦٣.

(٢٠) يجدر بنا ان نذكر بعض أعمال أنجلو سان ماركو،

Il regno di Mohamed Ali nei dowmenti diplomatici italiani ineddíti

المجلد الأول"l'Egitto nell'anarchia (lugilo 1801- lugilo 1804، القاهرة ١٩٣٠؛ المجلد الثانى؛

"gensi e primo svolgimento della crisi egiziano orientale del 1831- 1833 (gennaio 1831- gennaio 1832)"

روما ١٩٣١؛ المجلد التاسع

la presa di san giovanni d'Acri (febbrais- guigno 1832)"

روما ١٩٣٢؛ المجلد العاشر،

الجمعية الملكية «la conquista egiziana della siria (luglio – Ottobre 1832)"" للجغرافيا فى مصر، مطبوعات خاصة تحت رعاية صاحب الجلالة فـؤاد الأول، مطبوع فى روما عن طريق مؤسسة الدولة للطباعة للجمعية الملكية للجغرافيا فـى مصر، ١٩٣٢. ولنفس المؤلف،

"l'impratonza del giornale di viaggio di g.b brocchi per la conscenza della'Egitto e del sudan"

مقتطف من الـ bulletin de la societe royal de geographie d'Egypte

الكتاب السادس عشر، القاهرة ١٩٢٣؛

Il contributo degli italiani ai progressi scientificifici e pratici dell medicina in Egitto sotts regno di Mohammed Ali

بالتعاون مع أ. فيروتس بك، القاهرة ١٩٢٨؛

il viaggio di Mohammed Ali al Sudan (15 ottolre 1838- 15 marzo 1839) القاهرة ١٩٢٩؛

La marina egiziana sotto Mohammed Ali, iL contrilts italiano

القاهرة ١٩٣١.

(٢١) راجع ج. لوكيتا، "in Egitto e lungo il nilo"

فى، stosia di vragoviatosi italiani، الكتا، ميلانو ١٩٨٦ مجلة افرقيا، صص ١٠٦-١٣٣، ص ١٢٤.

(٢٢) الشيال، تاريخ اليرجمة ...، المرجع المذكور، الفصل الأول "عثمان نور الدين اول مبعوث مصرى الى أوروبا"، صص٩٥-١٠١

(٢٣) ا. ريتسيتانو، ...un secolo di، المرحع المزكور، ص١٣١.

(٢٤) للحصول على هذه الأخبار، راجع الشيال، "تاريخ الترجمة..."، المرجع المزكور، صص١٢-١٣.

(٢٥) فى الفترة من١٨١١-١٨٢١، ارسل نيقوك مابيكى إلى ايطاليا لتعليم تقنيات الطباعة، ولا ننسى أول جريدة ايطالية كانت " lo spettatose egiviano" (الإسكندرية ١٨٤٥) بمبادرة شخص يدعى كاستيلنوفو. راجع ا. ريتسيتانو، un ...secolo di، المرجع المزكور، ص ١٣٤-١٣٥.

(٢٦) الشيال، تاريخ الترجمة...، المرجع المذكور، ص ص١٨-٢٥.

(٢٧) راجع ج. ب. بروكى،

Giornale della osservazioni fatte ne' viaggi in Egitto, nella siria e nella nubia، o مجلدات، باسانو ١٨٤١- ١٨٤٣، المجلد الأول، ص ٢٧-٣٥.

(٢٨) الشيال، تاريخ الترجمة...، المرجع المذكور، ص٣٩.

(٢٩) نفس المرجع، ص٧١.

(٣٠) نفس المرجع، المذكور، ص٨٠، القاموس كان عنوانة قاموس ايطالى- عربى، إعداد الأب انطون رفائيل زاخور، مكان الطباعة بولاق١٢٣٤، ١٨٢٢.والعنوان العربى للأمير هو"الأمير فى علم التاريخ والسياسة والتدبير، ترجمة للأمير لماكيافيلى، إعداد الأب أنطون رفائيل زاخور من الإيطالية إلى العربية (مخطوط مؤلف الترجمة محفوظ لدى دار الكتب المصرية رقم ٤٣٥. سنوات الترجمة التى

أرادها محمد على ١٨٢٤- ١٨٢٥، المجلد الأول (توجد ترجمة ثانية مـن إعـداد محمد لطفى جمعة، مطبوعة فى القاهرة فى ١٩١٢. ويبـدو أن الترجمـة لقيـت تشجيعا فى إطار الاهتمام بالعلوم السياسية. ويجب أن نذكر إعادة اكتشاف مقدمـة ابن خلدون التى يقوم بها الشيال أنها اعتبرت فى ذلك الزمن، أكثر ليبراليـة مـن عمل ماكيافيللى نفسه. والـ"بروكى" أيضا يتحدث عن قاموس إيطالى عربى ألفه د. رفائيلى، أستاذ اللغة العربية فى بولاق والعارف الممتاز باللغة الإيطالية، مضيفا أن د. رفائيلى يرجع له الفضل فى الترجمة العربية لكتـاب الأميـر لكتـاب الأميـر لماكيافيلى (المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٣٦٩- ٣٧٠).

(٣١) تاريخ إيطاليا، ترجمة تاريخ إيطاليا لـ "بوتا"، ‘عداد عبد الله أفندى عزيز ابن خليل وحسن أفندى. ترجمة عن الفرنسية Histoire d’Italie، الكتاب الأول، إلى التركية. مطبعة سراى رأس التين، الإسكندرية، ١٢٤٩، ١٨٣٤. الثمن ٣٠ قرشا. مجلدان: الأول، ١٣١ صفحة، والثانى ١٥٤.

إصلاحات محمد على الصحية فى مصر
فى النصف الأول من القرن التاسع عشر

جوزيبى رستيفو

بدأت الحركة الأولى الإصلاحية فى المجال الصحى فى ١٨٢٧[١]. وكـــان محركها هو الباشا محمد على، فى إطار تقوية سلطته وتحديث مصر بدءا بالقوات المسلحة. وقد صاحب إنشاء جيش من نموذج جديد، يقوم علـــى التجنيـــد، تشـــجيع وتنمية الصادرات المصرية فى السوق العالمى. وكلا التجديدين يلفتان الانتباه لحالة الصحة العامة فى مصر، وعلاوة على ذلك فرضت أوبئة الكـــوليرا العنيفـــة فـــى ١٨٣١ والطاعون فى ١٨٣٤-١٨٣٥ ضرورة تجنـــب تكـــرار هـــذه الكـــوارث "القومية"[٢].

وكانت البلاد فى ظروف صعبة، وفى نظر الأوروبيين عند حد الألم. ففـــى ١٨٤٦، بعد تسعة عشر عاما من بداية الإصلاح تظهر القاهرة لدكتور فى أكاديمية الطب فى باريس بـــ ٢٠٠ ألف من السكان معظمهم فقراء و"قبيحون"، ومكدســـون فى بيوت مركبة كل منها على الآخر. مع قليل من الهواء بين الشـــوارع الضـــيقة غير المرصوفة. ومن النيل يؤخذ الطين المختلط بأجسام الحيوانات المتعفنة لبنـــاء جدران البيوت والماء للوضوء اليومى. وفى العاصمة المصرية يوجد ٢٥ مـــن٣٥ مقبرة داخل الأحياء السكنية، والموتى لا يدفنون على أعماق كبيرة، طبقا للعـــادات المحلية.

والقاهرة هى المنطقة الأولى التى تظهر فيها ويبلغ عن حمى الضنك، التـــى تسمى فى الإيطالية الحمى المكسرة للعظام. وفى ١٧٧٩ أعطت المدينة المصـــرية إشارة البدء للتعاقب السريع لحالات ظهور هذا المرض، الذى يضاف للآلام اليومية

مثل التيفود والجدرى والتهاب العين والدوسنتاريا. أى أن الموقــف مأســاوى، إذا أخذنا فى الاعتبار الوجود المكثف للفلاحين الذين يعيشون حياة بائســة ويرتــدون ملابس رثة[٣]. وتظهر القاهرة زحاما زائدا بصفة خاصة فى فترة الحج إلى مكــة، فهى نقطة مرور إجبارية كل عام لــ ١٠-١٥ ألــف مســلم محملــين بالبضــائع والأثاث، والقادمين من ثلاثة اتجاهات كبيرة. وإذا كان أحد هذه الاتجاهات مصــابا فإن العدوى تصبح فى غاية السهولة.

وكانت الإسكندرية أيضا نقطة مرور إجبارية للحجاج فى ذهابهم وعــودتهم من مكة؛ وفى الوقت نفسه كانت الإسكندرية هى الميناء المرجعــى علــى البحــر الأحمر، وعلاوة على ذلك هى نقطة التقاطع لمحــور الشــمال ـــ الجنــوب مــع إسطنبول ومحور الشرق ـــ الغرب مع المغرب من ناحية وســوريا مــن الناحيــة الأخرى. ولكن هناك محور آخر، "أطول" تقع عليه المدينة، وهو المحــور الــذى يربط الهند بإنجلترا، بمساء يبدأ من بومباى إلى السويس ومن هنــا إلــى القــاهرة والإسكندرية لكى يستأنف بعد ذلك إلى مالطة، وإلــى مرســيليا وإنجلتــرا. وفــى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر كان هذا الطريق فى أوج تطوره، فهــو منــدرج فى الإطار الكبير للإمبريالية البريطانية والتطور التكنولوجى لنظام النقل داخلها[٤].

ومع بناء الميناء الغربى، بإلهام من محمــد علــى، ستصــبح الإســكندرية العاصمة البحرية للبلاد. وفى خمسين عاما سيتزايد عدد سكانها بصورة مذهلــة[٥]. وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر يصل عدد السكان فى المدينة مما يقرب من ٢٠ ألف نسمة فى ١٧٥٠ إلى رقم يقدر ما بين ٥ و ٨ ألاف نسمة. ولكن بداية من ١٨٢٠ نجعل سياسة محمد على الجديدة منها محور الاتصــال مــع أوروبــا، و"الصينية الدوارة" نحو البحر المتوسط، والقاعدة العسكرية والبحرية، ونقطة القيادة العسكرية؛ ويصل عدد السكان إلى ٦٠ ألف نســمة فــى ١٨٣٥ طبقــا للقنصــل الفرنسى ديليسبس[٦].

وقد كان نموا يتعرض كثيرا للعرقلة، بسبب تكرار الأوبئة؛ وفــى مقــدمتها

أوبئة الطاعون. وعلاوة على ذلك فإن تدفق العديد من آلاف الأشخاص من البحر والبر إلى الإسكندرية يخلق موقفا محفوفا بالمخاطر الوبائية المستمرة. وقد حاول محمد على مواجهة هذا الموقف الدرامى بتأسيس أول مجلس للصحة فى الإسكندرية فى ١٨٢٧، وأتبعه فى العام التالى بتحويل بعض المخازن الكبيرة فى شبه جزيرة عزبة البرج بالقرب من دمياط إلى مراكز للحجر الصحى، وفى هذه الهيئة تطبق تعليمات جهاز الحجر الصحى، على الطراز الأوروبى باتباع الاتجاه العام لسياسة الباشا المصرى. وفى الواقع وطبقا لـ "بانزاك " كان محمد على قد وافق بالفعل منذ ١٨١٥ على محاربة الطاعون بمختلف الوسائل(٧)؛ ومع ذلك فإن التحول الحقيقى يحدث فى بدايات الثلاثينيات، بعد أن ينجح محمد على نفسه فى أن يكسب لصفه علماء الدين، دكاترة الشريعة الإسلامية.

ويرجع آخر ظهور للطاعون فى مصر، قبل واقعة دمياط فى ١٨٣١، التى اكتشفت على الفور وأوقفت، يرجع فى الحقيقة لعام ١٨٢٤/ ١٨٢٥. فكان الطاعون قد ظهر فى السنوات ١٧٨٣، ١٧٨٥، ١٧٨٨، ١٧٩٠، ١٧٩٤، ١٧٩٦/ ١٧٩٧، ١٨٠٠: ١٨٠٣، ١٨١٠: ١٨١٢، ١٨١٥، ١٨١٨. وبعد عامى ١٨٢٤، و١٨٢٥ كانت هناك حالات ظهور فى ١٨٢٨ و١٨٣١(٨)، وفى ١٨٣١، بعد اندلاع الحرب الصريحة بين الباشا والسلطان، قام الجيش المصرى بغزو سوريا، بقيادة ابن محمد على. وقد أصيبت هذه المنطقة بعد ذلك على الفور بالطاعون، الذى نزل فى بيروت مع سفينة رحلت فى ١٣ نوفمبر من القسطنطينية " الملوثة ووصل إلى الإسكندرية. وبعد أن تقرر لها هنا حجر صحى لمدة ١٩ يوما، مات فيها أربعة من الركاب البالغ عددهم ٩٥ راكبا، وقد أقنع تشخيص الطاعون الذى قام به الدكتور الإيطالى فرانشيسكو جراسى لجنة الصحة بإبعاد السفينة، التى تتجه بمقدمتها جنوب بيروت بقيادة القبطان حسين. وتصاب سوريا التى لم يمسها الطاعون فى الوقت نفسه وتهدد العدوى بالوصول إلى أكرى، التى كانت تحت حصار إبراهيم باشا.

وعند هذه النقطة يتعين على الجيشين المشاركين فى الخلاف على سان

جوفانى داكرى للدفاع عن أنفسهم ضد عدو مشترك ثالث رهيب: الوباء. ويسارع الجيش المصرى بقيادة إبراهيم بإحاطة نفسه بسياج صحى للدفاع عن نفسه ضد هجمات الطاعون. ويستدعى الباشا تقنية أوروبية، وينجح هكذا فى إنقاذ قواته المسلحة ولا ينجح بالطبع فى السيطرة على تحركات الحجاج إلى الأرض السورية.

ويواصل جانب من أولئك الذين نزلوا من السفينة الملعونة بقيادة الكابتن حسين الطريق إلى مصر على سفينة أخرى، تتجه صوب دمياط، وهنا على الرغم من الأوامر الصحية الصادرة، يستقبل المحافظ خليل بك البعض منهم فى مسكنه. وكان من نتائج هذا التهور فقدان ثمانية أشخاص من عائلة المحافظ نفسه، بينما سقط العديد من الضحايا من مختلف العائلات فى المدينة.

وسرعان ما تقرر لجنة الصحة فى الإسكندرية إرسال الدكتور فراشيسكو جراسى إلى دمياط وهو واحد من الأوروبيين الذين وصلوا إلى البلاد بناء على استدعاء من محمد على ومقيم فى الإسكندرية منذ ١٨٢٤. ويمتلك الطبيب الإيطالى الموظف فى المستشفى الأوروبى السكندرى تحت تصرفه عددا من السلطات الواسعة يمد من خلالها سياجا صحيا حول المدينة والقرى المجاورة ويبدأ سلسلة من الإجراءات من بينها فصل الأصحاء عن المصابين والتدخين وحرق المتعلقات الشخصية للمصابين بالطاعون. ويحتجز الطاعون داخل السياج وتكون النتيجة إيجابية من ناحية الصحة العامة، ففى ثلاثة أشهر، بين يونيو وأغسطس ١٨٣٢ يموت فقط ٣٠٠ من السكان يبلغ تعدادهم ٢٠ ألف نسمة.

وعلى الرغم من النجاح الطيب للمعركة ضد هذه النوبة من وباء الطاعون، يظل عام ١٨٣١ فى الوقت نفسه عاما كارثيا بالنسبة لمصر بسبب الكوليرا، "فالزيارة" الأولى لها تضرب البلاد بعنف شديد حتى إنها ظهرت من أشد الأوبئة فى التاريخ المصرى.

وفى بحر شهرين يقتل المرض ما يقرب من ١٥٠ ألف شخص، وفى ٢٨ يوما فقط تقتل من ٢٥٠ ألفا وهم سكان القاهرة عددا كبيرا يبلغ ٣٦ ألف ضحية؛

وفى ٤٠ يوما ١٢ ألفا فى الإسكندرية. وفى تلك المناسبة يحاول مكتب الصحة فى الإسكندرية، المؤلف من القناصلة العموميين لإنجلترا وفرنسا والنمسا وتوسكانا وروسيا مواجهة الكوليرا بالإجراءات نفسها المستخدمة لمواجهة الطاعون. ولا تنجح العملية؛ وتعترف جلسة للمكتب الصحى به بأمانة قبل أن يحل نفسه بقليل[٩].

وعلى الرغم من هذه الانتكاسة، تخلف اللجنة الأولى فى العام التالى (١٨٣٢) لجنة صحية، مع الوجود المؤثر لقناصلة روسيا والسويد وإنجلترا الموجودين فى الإسكندرية. وكانوا هم الذين أشرفوا بالتناوب على تطبيق مواد الحجر الصحى، التى تبينت فعاليتها فى الوقت الذى ترسو فيه فى ١٨ سبتمبر سفينة شراعية نمساوية قادمة من القسطنطينية وتتخذ اللجنة إجراءات مشددة لضمان سلامة الإسكندرية، بعد أن علمت أن السفينة التى يقودها القبطان ماركو سكاليارين نجا منها هذا الأخير فقط من إصابة الطاعون الذى راح ضحيته اثنان فى أثناء الرحلة.

وفى ٢٦ نوفمبر ١٨٣٣ تصل إلى الميناء السكندرى سفينة من جزر إيونيه "ليونيداس" التى تحمل على متنها مائة من الركاب وبكتريا الطاعون. وعلى الرغم من إبعاد الحجاج فى الحجر الصحى فإن ٢٤ منهم يموتون. وفى أعقاب ذلك بعد اتخاذ إجراءات العزل أيضا بالنسبة للبضائع، يتم "فحص" عام للركاب واغتسال بالماء المشبع بكلوريد الكالسيوم. وهكذا يتم حصار الطاعون ويقضى عليه. ولكن التنظيم الصحى لا يزال يبدو غير مكتمل، ويعطى تعليمات محددة للرحلات البحرية القادمة، مع نتائج قيمة أيضا، ولكنه يهمل أن يأخذ فى الاعتبار الرحلات الداخلية. وبالتالى تتم هذه الرحلات حتى ١٨٤٢ حرة ومستقلة عن أى قيد صحى[١٠].

وسوف يظهر المرض من جديد فى ١٨٣٤، بعد وصول سفينة شراعية يونانية قادمة من قبرص إلى الإسكندرية. وطبقا للرخصة الصحية كان لابد أن يكون على متنها فقط بعض حالات التيفود؛ ولكن بمجرد نزول وسكن المسافرين، يتفشى الطاعون فى الدير اليونانى الذى استضافهم. ولمواجهة الموقف الطارئ فى

الخط الأول كان هناك مرة أخرى الدكتور جراسي؛ وفى تقرير مسلم للقنصل الإنجليزى فى ١٨٣٩، يقول الطبيب الإيطالى إنه مقتنع بأن الطاعون المصرى ليس من أصل محلى، ولكنه قادم أيضا من الخارج[١١]. وبالتالى فإننا نفهم حساسيته إزاء الأحداث الوبائية التى تشمل، أو يكون حتى أبطالها من الأشخاص " الأجانب".

وبالتالى فإن جراسى يذهب على الفور، فى ذلك العام المشئوم ١٨٣٤، فى ٧ يوليو لتفتيش الدير اليونانى ويقرر وضعه تحت الحجر الصحى بعد أن أخبر بذلك لجنة الصحة. وللأسف تكون خمسة عشر يوما على رسو السفينة الشراعية اليونانية واستأنف رهبان الدير حياتهم المعتادة من الاتصالات وتبادل الزيارات.

وفى الوقت نفسه نعلم أن بعض ملابس سكرتير البطريرك، التى أصيب كلاهما بالطاعون، أرسلت إلى قرية قريبة لتغسل.

وفى هذه الرحلة بالذات المؤلفة من ١١٠ أشخاص، لا يتأخر الطاعون فى الظهور؛ وبالفعل تحدث ١٨ حالة وفاة فى ١٦ يوما ويحمل الضحايا علاماته. وتؤدى الإجراءات الصحية المطبقة فى القرية فقط إلى إنقاذ الباقين على قيد الحياة، فتطهر المياه بالدخان "وتعطر" المتعلقات الشخصية للسكان وممتلكاتهم القليلة، ولكن فى الوقت نفسه تكون قد حدثت فى السابق اتصالات بين القرية والمدينة، وتنتشر جرثومة الطاعون ويتفاقم الطاعون لعدة أشهر فى دلتا النيل وفى القاهرة. وعند هذه النقطة يتقرر إقامة سياج صحى حول الإسكندرية؛ وقد أخره ـ ويبدو أن هذا تكرار لقصص أوروبية قديمة ـ احتجاج التجار وافتراض الأطباء الذين يعاندون فى عدم الرغبة فى الإعلان عن أن المرض السارى فى السكان هو الطاعون[١٢].

وفى الخلاف الحاسم للطبقة التجارية هناك شىء جديد بالقياس لخمسين سنة قبل ذلك: أن مواقف التجار الأوربيين والسكندريين تتكامل بالتبادل.

فالفريق الأول، فى نهاية القرن الثامن عشر يبدو أنهم لا يزالون جالية صغيرة محددة حول قنصلية دولتهم، وجماعات تعيش حياة معزولة مع اتصالات نادرة مع السكان المحليين.

وعادة يتعلق الأمر بعشرة ـــ خمسة عشر من التجار، المحاطين بعدد مماثل من المساعدين وبعض الحرفيين، وبعض الدكاترة والعديد من الموظفين في القنصلية. ومن بين الأشخاص الذين كانوا على اتصال بهم هناك "الوسطاء" الأساسيين من الأوروبيين، من ناحية، والمستهلكين والمنتجين، من الناحية الأخرى؛ وهم غالبا من ممثلى الأقليات، مثل الأرمن والوانيين أو اليهود؛ وكانوا مستعدين حتى للإحلال محل التجار الغربيين عندما كان هؤلاء ينفون أنفسهم أثناء الأوبئة فى البلاد(١٣).

وطوال القرن الثامن عشر لا يبدو أن الجاليات الأوروبية المعزولة والصغيرة لها أى دور فى إدارة الصحة العامة؛ والمجال الإصلاحى الذى فتحه محمد على فقط هو الذى سمح لهم باكتساب ثقل ما، وفى العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر تظهر الإسكندرية بجاليات أكثر عددا "من الأجانب" وأكثر اندماجا مع المجتمع المحلى، حتى إن هذا أدى إلى مقاومة مشتركة للإجراءات الصحية. ويمكن الحديث أيضا عن المقاومة أيضا عند "الناس العاديين"، السكان المصريين، حتى وإن لم تكن قائمة على النقاش بين أنصار نظرية العدوى. والمناوئين لها.

وعلاوة على ذلك يرفض السكان المصريون الخضوع للإجراءات المقترحة من الدكتور جراسى، الذى يتعين عليه فى ١٨٣٤ طلب مساعدة الجيش ويحصل عليها ببعض المشقة ـــ لعزل مختلف القرى وإجبار السكان على أن يغمروا أنفسهم مع كل متعلقاتهم الشخصية فى النيل. وينظر كبير الأطباء الأوروبيين الموجودين فى مصر، كلوت بك، للإجراءات على أنه مفيد؛ ولكنه أدى بالتأكيد إلى غرق القمل المختبئ فى الأجساد والملابس.

وما يحدث داخل مدينة الإسكندرية يوجد شاهد مهم عليه هو الدكتور الإنجليزى جيمس ليدلو(١٤). وعندما تأكد وجود المرض فى المدينة، وضع السكان الأوروبيون أنفسهم فى حجر صحي ذاتى؛ وأغلقوا على أنفسهم أبواب منازلهم ولم

يتسلموا شيئا لا يخضع لعملية التدخين أو الخل والمــاء. وتتخـذ لجنــة الصــحة إجراءات مشددة، مع الأمر بإغلاق المنازل التى يوجد فيها مصــاب ونقــل كــل السكان إلى الحجر الصحى. ويروى الإنجليزى ليدلو وهو خائف كيــف أن قســوة المكتب الصحى لم تتوقف أمام أبواب الفندق الأوروبى الذى يتردد عليه كثير مــن الأوروبيين؛ فبعد وصول خبر بوجود حالة مشتبه بها فى الفندق، تحاصر قوة مــن الجنود المبنى ساعة الغذاء، وتفتش أربعين شخصا، وكثير منهم كانوا قد دخلوا قبل ذلك بقليل للغذاء. وعلى الرغم من الاحتجاجات ينقل الجميع إلى الحجــر الصــحى وهناك يحتجزون "للتطهير" لمدة أربعين يوما.

وعلى الرغم من قسوة الإجراءات الصحية المتخذة، وعلى الرغم من مراقبة جميع السفن القادمة من موانئ مشبوهة، فإن المرض انتشر وحمل معه خطا طويلا من الضحايا. وفى ١٨٣٧ فقط يتوقف الوباء، لكى يظهر من جديــد فــى ١٨٤١. وتظهر هنا من جديد أيضا المقاومات القديمة لنظام الحجر الصحى، ولكن إصــرار الباشا المصرى لا يضعف أبدا.

وفى الثامن من ديسمبر ١٨٤٤ تعالج فى مصر الحالة الأخيرة من الطاعون ومنذ تلك اللحظة يختفى المرض من البلاد.

وحتى إذا كان دور كلوت بك فى واقعة الوبــاء المحــددة فــى (١٨٣٤ — ١٨٣٧) يبدو سلبيا، فإن الفضل يرجع أيضا لوجوده ولنشاطه الــذى يضــع فــى الميدان جهازا متعددا من المؤسسات الصحية المقدر لهــا أن تحــارب الطــاعون وأمراضا وبائية أخرى موجودة فى مصر.

وهنا يبقى الطبيب الفرنسى الذى حصل على الجنسية المصرية، لمــدة ٢٤ عاما، يتعاون خلالها مع الإرادة الإصلاحية لمحمد على لإنشاء مجلــس الصــحة المصرى، والمستشفى العسكرى ومدرسة الطب فى أبو زعبل (التى ســتؤهل ٦٠٠ من مسئولى الصحة، ومنهم ١٢ تخرجوا فى الجامعة فى باريس)، ومدرسة للغــة الفرنسية مزودة بقاموس تقنى — علمى فرنسى — عربى.

وقد تعاقبت ثلاث بعثات من الطلبة: الأولى فى ١٨١٣ إلى إيطاليا والثانية فى ١٨١٨ إلى فرنسا والثالثة، أيضا فى فرنسا، فى ١٨٢٦ وتكونت من ٤٤ من الشباب بين ١٥ و٣٧ عاما (ولكن بأغلبية كبيرة بين ١٨ و٢٤ عاما). "وقد عاد فقط ثمانية دون تخصص محدد وحصل أربعة عشر على الليسانس فى الآداب، و٢٣ فى مواد العلوم ومن بينهم الطهطاوى الذى يعد واحدا من أعظم الشخصيات فى ذلك العصر"(١٥).

ولا شك فى التقدم الذى حققه الشباب المصريون فى التعلم، بعد أن أشركهم محمد على فى جهد التمكن من الأساليب الجديدة فى الفنون والعلوم؛ ويبدو أن هناك تقدما هائلا أيضا فى المجال اللغوى، على الرغم من رأى برنارد لويس المتشكك إلى حد ما فى هذا الشأن.

ومن ناحية أخرى يعترف المؤرخ الفرنسى نفسه بوجود العديد من الترجمات لكتب أوروبية عن "موضوعات مفيدة بالطبع، مثل الجغرافيا والعلم الطبى". وفى هذا المجال بالذات تم جهد كبير، وهو العمل على ترجمة الأعمال العلمية الأوروبية الأساسية إلى العربية، لأنها لا غنى عنها أيضا فى العملية التعليمية، التى يجب أن يتم فيها التدريس بالعربية (مع ما يصاحب ذلك من مصاعب ترجمة فورية تقريبا لدروس الأساتذة الأوروبيين فى المقررات الدراسية العليا المصرية). وقد اعتبر محمد على باشا ترجمة "الأمير" لماكيافيللى مهمة أيضا؛ وهى ترجمة لم تطبع لأن الباشا خلص إلى أنه لم يتعلم منها شيء، ولكنها وصلت إلينا على شكل مخطوط، لتشهد على الجوانب المتباينة فى شخصية الضابط الألبانى السابق.ويتجه النشاط المجدد للباشا المصرى إلى أرضية أرحب بكثير فى المجال الصحى، حتى وإن كان هذا يستحق عناية خاصة(١٦).

وهناك مستشفى عسكرى ثان، فى قصر العينى، ومستشفى مدنى فى الأزبكية، ومستشفى للتوليد ملحق بها مدرسة لأخصائيات التوليد، وحضانة للمتخلفين عقليا ومعهد للتطعيم ومتحف للتاريخ الطبيعى، وحديقة نباتية. وفى هذه

المؤسسات الجديدة يلاحظ أيضا إسهام الطبيب الفرنسى الأول والأهم الذى استدعاه محمد على من جديد، الدكتور كلوت بك. ويقوم هذا الأخير بدوره باستدعاء أطباء فرنسيين آخرين، مثل الضابط السابق "شاما" الذى قابله فى القاهرة جوستاف فلوبير وماكسيم دو كامب، الذى لا يدخر فى الوقت نفسه سخريته المنتقدة تجاهه. فالكاتب يؤكد بالفعل أن كلوت بك "نظم الخدمة الصحية فى الجيش المصرى بصورة سيئة وليست جيدة"[١٧]. وأخيرا ــ فيما يتعلق بأهم قطاع فى مكافحة الطاعون ــ كان تدخل كلوت بك له مغزاه بصفة خاصة فى تنظيم جهاز الحجر الصحى.

ويمكن أن توصف العمليات التى قام بها الطبيب الفرنسى اليوم بأنها "تعاون دولى"، ولكن كلوت بك لا يبدو بالضبط رائدا فيما يعرف اليوم بشخصية "المتعاون" بالمعنى المستخدم عادة هذه الأيام.

وقد عين محمد على فى ١٨٢٥ أنطوان كلوت، عضو كلية الطب فى مونبلييه لتنظيم الخدمات الصحية فى مصر. وقد وصل إلى البلاد بفضل العلاقة مع الباشا، ونجح فى القيام بعمليات وتعامل مباشرة مع الأحداث والمؤسسات والناس.

وقد بنيت مستشفيات وعيادات وأدخل نظام الحجر الصحى لوقف وباء الطاعون، وأسست سلسلة من المدارس الطبية لتدريب الدكاترة المحليين، وظهر تحسن فى ظروف حياة المصريين.

وقد قام محمد على بتعيين كلوت بك مديرا مدنيا بدرجة عالية مع منحه لقب "بك"، ثم قام بترقيته قائدا عسكريا برتبة سردار (جنرال) وقد استمد سلطته من حظوته عند الأمير، وعند وفاة هذا الأخير فقد هذه الحظوة وتعين عليه الانسحاب، ولكن النتائج بقيت، وأهمها اختفاء الطاعون من البلاد[١٨].

وهناك نتيجة أخرى كبيرة تحقق من خلالها الإصلاح الصحى الذى شجعه محمد على: وهى وضع القواعد للوصول إلى اتفاق أساسى على الصعيد الدولى فى مواجهة الأوبئة.

وعندما يقوم الباشا المصـــرى فـــى ١٨٢٧ بتكليـــف الممثلـــين القنصـــليين بالسيطرة على الأمراض المعدية، تتأسس أول هيئة دولية للتعاون الصحى[١٩].

ويمكن القول، بعد قرن ونصف، إننا نسمع أول صـــوت لمنظمـــة الصـــحة العالمية الحالية فى الإسكندرية فى ذلك العام وبإرادة حاكم غير أوروبى. ويمكن أن نضيف أن القوى الغربية فى تلك الفترة التاريخية لم تظهـــر مـــيلا للتعـــاون وقـــد شجعتها مبادرة محمد على بصورة ما.

هـوامش

(١) هذا التاريخ الذى اقترحه فرارى ا.،
Della peste e dell amministrazione sanitaria
فينسيا، ١٨٤٠، فى المقدمة.

(٢) كونكه ل.
Pullis in Nineteenth-century Egypt Health، بير كلى، مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٠، ص٣. بالنسبة للاهتمام الذى أثاره فى الطاعون عامى ١٨٣٤-١٨٣٥، انظر Sulla peste che offlinse lEgitto lanno 1835، نابولى، من مطبعة وزارة الدولة للشئون الداخلية، ١٨٤١

(٣) تفاصيل الموقف المصرى توجد فى أندريوتشى أ.
Considerate nei loro rapporti politico-souiali ed igienico-sanitari Dellle quarantine
فلورنسا، ١٨٦٩، ص ٢٩-٣١ و ٦٦.بالنسبة لحمى الضنك و هو مرض شبه استوائى، تنقله حشرة Aedes aegypti (بعوضة حمى الضنك) وبداية دورتها وحالات ظهورها، انظر زينسره.
Rats،lice and History، بوسطن، شركة ليتيل براون، ١٩٤٥، ص٨٥

(٤) هيدريك د. ر.
AL servijis delĺ impero. Tecnologia e imperialismo europesnell'Ottosento
بولونيا، المولينو، ١٩٨٤،ص ١٤٦.

(٥) بانزاك د.
International and domestic maritime trade in the Ottoman Empire during the 18th century
فى Jnt J.Middle East stud.، ٢٤، ١٩٩٢، ص ١٩٤، ١٩٥ و١٩٩-٢٠٠.

(٦) بانزاك د. Population et sante dans l Empire Ottoman (xvIIIe-xxe siecles)

اسطنبول، ايزيس،١٩٩٦، ص، ٥٣-٥٤. للحصول على، تقيم لنمو السكان المصريين خلال القرن التاسع عشر، والمميز في نصفي القرن، انظر للمؤلف نفسه

The Population of Egypt in Nineteenth century"

Asian and African studies

في (حيفا، إسرائيل)، المجلد ٢١، رقم١، مارس ١٩٨٧، ص ١١-٣٢.

(٧) بانز اك د.La peste l Empire Ottoman 1700-185 لـــوفيم، بيتـــرز، ١٩٨٥، ص ٤٥٨.

(٨) بيانات التقويم المصرى الأسود مأخوذة عن مكارتى ج.ا.،

"Nineteenth century Egyptian Population"

في Middle Eastern Studies عدد خاص عن اقتصاد الشرق الأوسط، المجلد ١٢، ١٩٧٦، ص١٢، وهيرش أ.

Handlook of Geographical and Historical pathology

لندن، جمعية نيو سيدنهام، ١٨٨٣، ص ٥٠٥

(٩) كونكه ل. Lives، المذكور، ص ٥١ و ٥٤.

في ١٨٢٦ يعين جوزبي، أتشيربي، قنصلا عاما للنمسا، بعد أن انتقل على، الفور إلـــى، الإسكندرية، حيث سيبدأ أيضا كعالم للمصريات وهو ما سيحمله على، عبـــور الـــبلاد على، فترات متتالية بحثا عن القطع التى تؤلف اليوم مجموعة أتشيربي التى تستضيفها قاعات قصر الشاي في مانتوفا.

(١٠) أندريوتشى ا. ...Delle quarantene، المذكور، ص ٤٨، ٦٦-٦٨ و ٧٧-٧٩.

(١١) الدكتور فرانشيسكو جراسي، تقرير حول عدوى الطاعون موجه للسيد جون وينجفيلد لاركينج، قنصل صاحبة الجلالة البريطانية في، مصر والادرات التابعة لها، في، مكتب السجل العام وزارة الخارجية ٧٨ (المراسلات العمة لتركيا)، المجلد ٣٧٦، ٩ مـــايو ١٨٣٩.

(١٢) أندريوتشى ا. ...Dell quarantene، المذكور، ص ٨٠

(١٣) بانزاك د.، ...grternational، المذكور، ص ١٩٣.

(١٤) وثيقة ٦ أغسطس ١٨٣٨، المرسلة من الدكتور ليدلاو إلى جون بولينج و المدرجـــة كخاتمة في بورينج ج..

Sulstance of olservations on Oriental Plague and on Quarantines, as a

Mean of Arresting its progress

الموجهة للجمعية البريطانية للعلوم، المجتمعة فى نيو كاسل، فى أغسطس ١٨٣٨، إدنبره، ويليام تيت، شارع الأمير؛ فى "Report on Egypt and Candia"، الملحق ف.، لندن، ١٨٤٠، فىPRO، وزارة الخارجية البريطانية ٧٨ (المراسلات العامة لتركيا)، المجلد ٣٨١.

(١٥) فيرنت ج. EL glam y Europa، برشلونة إلألبير، ١٩٨٢، ص ص ١٦٥-١٦٦.

(١٦) لويس ب.، L'Europa e L'gslam، روما- بارى، لترتسا، ١٩٩٥، ص ٨٠-٨٣: "التقدم فى تعلم اللغات الأوربية كان بطيئا" (ص ٨٠). يمكن أن يقال عن محمد على، أنه من أكثر الشخصيات المختلف عليها فى التاريخ المصرى: فالبعض يعتبرونه زعيما عظيما له مخططات طموحة لاستعادة مجد مصر القديمة، وآخرون يعتبرونه الديكتاتور الوحيد بعد الألف الذى جاء لاستغلال البلاد وشعبها. ولكن لاشك فى أن مصر تحت قيادته، عرفت عهدا من "النهضة". وبالنسبة للجهد الذى بذل فى مجال التعليم والمجال الإصلاحى بصورة ألمم، انظر شفيق غربال م.،

"La contrilution de mohamed ali à La solution de certains prollémes méditerranéens de son époque"

فى Annales du Centre Universitaire Méditerranéen (نيس)، ١٩٥٠-١٩٥١، ص ٢٤-٢٥.

(١٧) دور كامب م. Attraverso L'Oriente con Flaubert، باليرمو، القرن العشرون، ١٩٨٦، ص ٩١.

(١٨) لابيسونى، La medicine coloniale. Mythes et réalités، باريس، سيجرز، ١٩٨٨، ص٢٧١-٢٧٢. بالنسبة للسياسة العامة لمحمد على فى القطاع انظر شو س. ج.، History of the ottoman Empire and Modern turkey كامبردج، مطبعة جامعة كامبردج، ١٩٧٧، المجلد ٢، ص ١١.

(١٩) كونكه ل.، Lives، المرجع المذكور، ص ٤.

مشكلات تاريخية
بعض الملاحظات بشأن "الصبغة المصرية"

بيانكا ماريا
سكارتشا أموريتى

(١) إن أزمة القومية ظاهرة حالية ذات بعد عالمى. وهى تهم بصفة خاصة الدول العربية، ليس إلا بسبب استمرار قضايا قومية لم تحل وتشمل حتى الآن وبصورة ملحة بعضا منها؛ فنذكر على سبيل المثال القضية الفلسطينية والقضية الكردية. ومثل كل البلاد التى تعرضت بصورة أو بأخرى لأشكال من الاستعمار، وجد العالم العربى أيضا فى القومية العربية المذهب القادر على تعبئة الجماهير بهدف البدء فى تلك العملية من المشاركة الديمقراطية التى لا غنى عنها لتشجيع النهضة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. إلا أن البعض فى العالم العربى يشير بلفظ "القومية" إلى أفكار ومفاهيم مختلفة، حتى إنها تكون أحيانا متناقضة فيما بينها.

وقد كانت التجربة الواقعية ـــ كفاح التحرير القومى، وإقامة دول قومية... إلخ، قد أعدت وصاحبتها عمليات تأريخية مختلفة تبعا للخيار المذهبى الذى كان يتعين أن تخدمه – وكانت هناك نقطة وحيدة مشتركة: ضرورة العودة للماضى بحثا عن عناصر مؤسسة للهوية القومية، المفهومة على أى حال .

وقد اتخذت مثل هذ العمليات فى العالم العربى أهمية حاسمة، على الأقل بمعنى أنها بدت لجانب كبير من المثقفين المحليين أنسب للوفاء بدورهم فى تشكيل الوعى القومى. ومن الطبيعى إذن أن يشتمل الوضع الحالى على مراجعة تأريخية

أكثر عمقا، كما يبدو لى، مما يحدث فى التعاقب "الطبيعى" للتيارات والموضات[١].
ولابد بالفعل أن نقيم كيف أن اتخاذ موقف بشأن الطوائف التحليلية العاملة على المستوى النظرى تنطوى أم لا على الصعيد العملى، على الانضمام لخيارات سياسية محددة.

وتظهر مصر كـ"حالة" نموذجية فى هذا الشأن لسلسلة من الأسباب. فهى من ناحية يمكنها، أكثر من بلدان عربية أخرى، أن توضح بالأمثلة أحد التناقضات التى كنا نشير إليها: الثنائية التى تمر بها وتميز كل القومية العربية، يوضح العروبة ضد الخصوصيات المحلية، و"المصرية" فى هذه الحالة، مع ما يرتبط بهذا من مشكلة الولاء الوطنى والتوافق المذهبى تجاه هذه المرجعية أو تلك ومن ناحية أخرى، هناك علاقة الاستغلال المتبادل - وهو لفظ له وزن غير سلبى بالضرورة - بين الطبقة الحاكمة والمثقفين الذين يعهد إليهم بواجب الوساطة فى الوفاق الشعبى، وغالبا ما طالب به البعض كهدف صريح فى كثير من أعمال المؤرخين المصريين طوال القرن التاسع عشر وفى جزء كبير من القرن العشرين.

وربما يكمن هنا أحد الأسباب التى أدت إلى وظيفة الزعامة المعترف بها لمصر تجاه باقى العالم العربى[٢]. وسواء أكان هذا هو السبب أو النتيجة فى الأمر، فهذا لا يهم كثيرا، فإن الحقيقة التى لا ريب فيها هى أن الإنتاج التاريخى المصرى واسع ورفيع المستوى.

ومع ذلك فإنه يتضح فى مصر، أكثر من أى مكان آخر أن دور المؤرخ تجاه الدائرة السياسية قد تغير اليوم.

فقد كان متحدثا باسم السياسى أو منافسا له حتى الستينيات[٣]، وبداية من فشل الناصرية، أصبح المؤرخ، وهو الذى كان ممثلا مميزا حتى ذلك الحين للمثقف "الأصيل"، أصبح يتأثر بذلك التغريب المتزايد بين الثقافة والسياسة وهو ما يبدو اليوم مميزا لكل العالم العربى. والنشاط التأريخى يستمر[٤]، ويبقى له مغزاه على صعيد تاريخ الأفكار وكإدانة لتلك المعاناة التى ينطلق منها، ولكنه لا يبدو

بالضرورة ـ على الأقل من وجهة نظرى ـ كمؤشر للعمليات السياسية الجارية[٥].

كل هذا يساعد فى وضع إطار لمداخلتى. وبالربط بين أسماء وأعمال فى فترات تاريخية مختلفة، ولكنها سابقة للعقود الأخيرة، أود توجيه الاهتمام لموضوعات تبدو لى حتى الآن متضاربة، ولكنها لا تزال ضرورية لفهم المصاعب التى تخوضها مصر وبصفة عامة الشرق الأدنى العربى. مع تحديد واحد، أن الملاحظات التالية هى فقط على سبيل ضرب المثل، دون ادعاء بالكمال ولا حتى بالإبداع فى مجال إعادة قراءة المصادر.

(٢) إن نقطة الانطلاق يمكن أن تبدو مقبولة ظاهريا؛ فالتاريخ الرمزى أو الجوهرى الذى يشير إلى ميلاد مصر الحديثة هو ١٧٩٨ مع حملة نابليون بونابرت إلى مصر، أم ١٨٠٥ مع استيلاء محمد على على السلطة؟ هذه نقطة مقبولة ظاهريا، حيث إن الفارق الزمنى محدود بين الحدثين، وعلى العكس من ذلك يبدو واضحا جدا الترابط بين الحدثين أنفسهما.

والسؤال فى الواقع ليس من باب الكسل لأنه ينطوى على موقف بشأن القومية الفرعية أو العربية أو المصرية.

والإجابة بصورة أو بأخرى تعنى إخضاع دخول مصر مرحلة تاريخية جديدة لدافع خارجى أثر على التغيرات الجوهرية، أو أكد على أن مصر الحديثة هى الناتجة عن عملية محلية، تسارعت ولكن لم يشعل شرارتها الاحتلال الفرنسى. ويترتب على ذلك الحكم على محمد على.

ففى الحالة الأولى يمكن النظر لعمله كمجدد على أنه طبيعى، فى إطار وظيفته لحاكم عثمانى مستنير وطموح بصورة خاصة.

وفى الحالة الثانية، يصبح المحفز لعملية ستسمح لمصر، بالفعل، مع خلفائه المباشرين بأن تظهر كدولة قومية[٦].

وبالتالى فإن القضية التى أود التوقف عندها تظل مفتوحة. وبالفعل إذا كـــان إنشاء مصر الحديثة ينطوى بالضرورة على ميلاد القومية، أى فكرة علمانية، حتى عندما تسهم بالتعبير عن نفسها بلغة فكرية إسلامية، فلابد أن نحدد مـــا إذا كانـــت هذه القومية، وبالذات فى الفترة الأولية، قد صيغت بكلمات عروبيـــة أم مصـــرية. وهى "مصرية" ـــ ويجب أن نلتفت لهذا جيدا ـــ لا تختزل فى "هوية عملية معاشـــة ووجودية، كمبدأ للتعرف والتمييز"، "يشهد عليها دليل مـــن الاســـتمرارية البيئيـــة والإنسانية والثقافية التى لا تنفصم.."[٧]. و يجب ألا تفهـــم آليـــا كحقيقـــة مكملـــة للعروبة، ولكن كوعى وهوية محددة يجب أن تحدد بصورة مســـتقلة، أى بصـــرف النظر عن الانتماء للعالم العربى، حيث يمكن حقا أن تصح المعادلة:

مصر = مصر وما يترتب على ذلك من تأييد لافتراض وجـــود خـــط مـــن الاستمرارية فى "تاريخ" البلاد، وافتراض "تواريخ" أخرى تعاقبت فيها.

(٣) لنأت إلى المادة التى يقوم عليها تحليلى. إن المؤرخين ـــ وهم قلة ـــ الـــذين سيستخدمون كمثال اختيروا على أساس شهرتهم، هنا وفـــى مصـــر، حتـــى بالنسبة لجمهور غير متخصص. والأعمال التى سيشار إليهـــا، وقـــد كانـــت أعمال الحقبة الناصرية ذات إلهام ماركسى غالبا[٨] ليست أكاديمية، بـــالمعنى الضيق للكلمة، على الرغم من أنها صممت طبقا لمعايير علمية.

وهى تظهر كأعمال مهمة، كخلاصة للتاريخ المصرى، حتى عندما يكـــون هدف بحثها أحداث وظواهر أو فترات غير محدودة، بمعنى أنها تهدف دائما لتقديم مفتاح لقراءة الماضى وأيضا إرشادات وتصورات بشأن المستقبل.

وهذه بعض الكلمات عن مجمل الإنتاج التأريخى المصرى الذى تمثله. إنـــه إنتاج يوزع على مسافة قرنين بطريقة غير ثابتة بالطبع، ولكنها تسمح بمقارنـــات دقيقة بين ما هو شهادة مباشرة ورأى آخر لاحق. وهو بالفعل فى نهايـــة المكـــان إنتاج لا يغيب عن بصره القرنان الماضيان من التاريخ المصرى اللـــذان يقـــابلان، بالإجماع، تاريخ مصر الحديثة[٩]، حتى عندما يتجـــه للماضـــى العربـــى وأيضـــا

الفرعونى. واللغة المستخدمة هى بالطبع العربية، ولكن هناك أيضا أعمال كثيرة بالفرنسية (وأقل بالإنجليزية)، دون اختلافات نوعية كبيرة .

ولهذا أيضا، كما كنا نقول، فإنه إنتاج معروف. ولم ينتشر فقط فى البلاد، ولكنه تمتع أيضا بجمهور استثنائى، وخاصة إذا أخذنا فى الاعتبار التأخير الذى أدخلت به نصوص فى دوائر ليست ناطقة بالعربية تحديدا أو دوائر العاملين فى هذا المجال، وهى نصوص قيمة، لمؤلفين عرب غير مصريين حول موضوعات متشابهة جوهريا[١٠]. وهذه ثمرة بلا شك للزعامة المصرية، كما ذكرنا من قبل، علاوة على البعد العالمى الذى احتفظت به مصر حتى الثورة الناصرية، مشتملا فى الوقت نفسه على حقيقة أنه بالنسبة لأى مصرى لم توضع معرفة لغة أوروبية كبديل إجبارى عن العربية. وبالتالى فإن استخدامها لم تكن له نتائج تغريبية حدثت، على سبيل المثال، فى الحالة الجزائرية. وبالتالى فإن مصر هدف أولى لتحليل، وهذا أمر بديهى، إن لم يكن، على العكس من ذلك، خيارا داخليا فى ذلك التعارض المحتمل بين "العروبة" والمصرية، وهى العقدة التى يتعين مواجهتها .

(٤) على الرغم من الأولوية التى تعطى، كما قلت فى حديثى، للأعمال الشعبية والموجزة، إلى حد ما، فإننى لا أستطيع أن أتغاضى عن أهم مصدر بالنسبة للسنوات ما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: الجبرتى. ويمكن أن يبدو هذا اختيارا غير مناسب، نظرا لأنه بحكم أنه شاهد عيان للأحداث، فإنه لا يرد فى أعماله ولا يمكن أن يرد بوعى، بمعنى أو بآخر على السؤال المطروح. ولكن الجبرتى مرجعية إجبارية لكل المؤرخين اللاحقين وقد اعتمدوا عليه فى أعمالهم لتقييم معنى الاحتلال الفرنسى فى التطور اللاحق لمصر[١١].

ويؤكد الكثيرون أن الجبرتى يختتم تقليدا تأريخيا أكثر من كونه يفتتح تقليدا جديدا، حيث إنه مقلد لطريقة فى التأريخ من النوع الحولى، يفضل التفاصيل على الإيجاز، ويجد أن من الضرورى اللجوء إلى ترجمة الرجال اللامعين، ربما فى صورة نعى، لاستكمال ضرورى للأحداث العامة التى يقدم تقريرا عنها[١٢].

وهذا يضعه على خط التأريخ الإسلامى فى القرون الوسطى، الذى عرف مبكرا جدا تمييزا بين الأجناس التأريخية تواريخ عامة وتواريخ إقليمية(١٣). ولكنه بفضل "مشاركته الانفعالية العميقة"ـ التى جعلت بعضهم يقول إنه كما لو كان "يكتب عن لحمه ودمه" ـ أوقف تدهورا فى جنس التأريخ لدرجة أنه نفذ موضوعية يمكن أن تستخدم كنموذج لأى مؤرخ أوروبى حديث(١٤)، عندما تناول الاحتلال الفرنسى، حتى وإن كان ذلك باسم حب "بلاده" .

وهنا نبرر الانطلاق من الجبرتى بالذات. وبالفعل يمكن أن يمثل الجبرتى، فى رؤية تأريخية قومية، بالمعنى الإقليمى(١٥) أول مؤرخ لمصر الحديثة، وبالتالى فإنه يقدم مثالا "للمصرية" فى مواجهة "عروبة" قادمة، حيث قد لا يمنعه الولاء المحتمل للتقاليد من أن يكون مجددا فى رؤية مصر والمصريين التى يطرحها. ويبدو النقد الغربى أكثر اهتماما بالمشكلة من المؤرخين العرب ـ المصريين. وتسير موضوعيا فى هذا الاتجاه تحليلات لكيفية تغير موقف الجبرتى، خلال بضع سنوات، إزاء الوجود الفرنسى فى مصر(١٦).

وطبقا لقراءة سطحية إلى حد ما، فإنه ربما يكون هناك دور حاسم الواقعة شخصية كان فيها منفيا عن القاهرة وضحية للنظام الجديد، ثم "متعاونا" وأخيرا مؤيدا نشيطا ليوسف باشا، الوزير الذى يرجع إليه الفضل فى استعادة السيادة العثمانية فى البلاد(١٧). وهناك تحليل أكثر دقة يميز فى إنتاجه ثلاث فترات:

فترة تسبق الاحتلال الفرنسى (١٧٧٦/١٧٧٧ ـ ١٧٩٨)، وفترة ثانية تبدأ من ١٧٩٨ إلى ١٨٠٥، وأخيرا فترة ثالثة تغطى الحقبة التالية لمجىء محمد على، حتى ١٨٢١.

والتغيير المذكور موثق بالفارق بين ما كتبه الجبرتى فى "مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس" فى ١٨٠١ عندما ترك الفرنسيون مصر بالفعل، وذلك الجزء من عمله الأشهر وهو "عجائب الأثر فى التراجم والخبر" والمخصص للموضوع، والمعروف بـ "تاريخ مدة الفرنسى فى مصر"، الذى ينظر إليه على

أنه معاصر للأحداث[١٨]. وقد توقفنا بصفة خاصة عند تعليق الجبرتى، المذكور فى الـ "مظهر"، ولكن ليس فى الأعمال التالية على الإعلان الفرنسى الشهير فى يوليو ١٩٩٨ بعد الاستيلاء على الإسكندرية، الذى يتحدث مرارا ليس فقط عن التعاطف الفرنسى تجاه الإسلام، ولكن عن التطابق الجوهرى للرؤية الدينية بين المصريين والمحتلين. وأهمية الحذف كبيرة، حتى إن واحدة من أحدث وأدق الترجمات للـ"عجائب" لم تدخر وسعا فى إدخاله على أى حال فى النص[١٩]. وهو احتجاج سليم تماما. والإعلان، المعروف جدا فى الوقت نفسه، ولا يتطلب منا إعادته هنا بالتفصيل، يشجب الجبرتى فيه الجهل الفرنسى بالإسلام وسوء النية حيث يصر البعض على وحدة الدين.

وبتحليل يتوقف عند المصطلحات المستخدمة والنتائج الدينية المرتبطة بها، يبدو أن الجبرتى يقترح صورة للفرنسيين على غرار صورة القرون الوسطى الكلاسيكية للكافر.

ويترتب على ذلك حكم بالدونية يبر به المؤلف عن نفسه أيضا بألفاظ أكثر شخصية بوصفه عالما وعضوا فى عائلة شهيرة فى الأوساط الدينية[٢٠].

والأمر لا يتعلق بانتهازية سياسية؛ فالفرنسيون أصبحوا الآن بعيدين وعاد السيد القديم ـ وهذا يتضح فى العجائب، فى قمة ملحمة محمد على، من أنه لا يتوانى عن انتقاده لأنه لم يكن على مستوى التوقعات، وقد فعل ذلك بكلمات مشتعلة دفعت النظام لفرض حظر على نشر العمل[٢١]. نحن بالأحرى أمام تطور سياسى للمؤلف الذى يستنتج عدم التلاحم بين الأيديولوجية التحررية، والتى تدعو للمساواة التى يدعو إليها بونابرت، والتى ستتلخص فى الشعار "حكومة مصر لمصرى"، وفرض "اليد العسكرية" للسلطة الفرنسية[٢٢]، وهو ما لا يستبعد، من جانب الجبرتى نفسه، إعادة النظر والأسف بعد ذلك، عندما يقارن بين طغيان نظام محمد على والمساواة النسبية "للكفرة" الأجانب .

ولكن كيف تبدو مصر والمصريون، بين مطرقة الفرنسيين وسندان محمد

على؟ إن العقيدة الدينية لا ترتسم دائما لعنصر للهوية. وربما كان الفرنسيون أيضا غير مؤمنين، ولكن هذا ليس بالطبع الشيء الذى يبرزه الجبرتى بصورة أولية فى "العجائب"، كما أن الانتماء للإسلام ليس هو الذى يميز العثمانيون، عندما توصف عودتهم للبلاد، على الرغم من أنه يشار إليهم أحيانا من ناحية أخرى بأنهم مسلمون، مثل المصريين.

وفى الواقع لم يتم تحليل دقيق لمصطلحات الجبرتى للأسف، لأن استطلاعات الرأى القليلة أيضا التى تمت على المجلد الثالث من العجائب تقدم بعض المنطلقات المهمة للتدبر(٢٣).

ولفظ "مصريون" مستخدم بصفة خاصة عندما ينقل الجبرتى حرفيا تقريبا خطب وإعلانات وآراء الفرنسيين. وإلى جانبه، ربما بتكرار أكثر، تعبيرات من نوع: أهل مصر، أهالى مصر، حيث تلعب الازدواجية دورها بالذات فى لفظ "مصر" الذى يشير كما هو معروف للدولة وعاصمتها. وهناك إبهام مماثل أيضا فى "أهل مصر"، وهو بالتأكيد أكثر التعبيرات تكرارا واستخداما.

ولا تغيب كلمة "رعية" للإشارة بصورة مبهمة للشعب. والصيغة المتعلقة بذلك وهى "مصرى" تظهر بانتظام إذا كانت تصف الجيش والمثقفين والتجار... إلخ، وليس فقط سكان القاهرة. والمصطلحات الدينية التى تقول إن أهالى مصر مؤلفون من أقباط ومسيحيين سريانيين وأرمن ويهود... إلخ، محدودة دائما. والطوائف المنفردة تبعا لنظام "الملل" التى ستؤسسها التنظيمات ستسمى باسمها عندما يكون لها دور بارز بالفعل أو مسئولة عن الأحداث التى يسجلها الجبرتى ويبرز أول تقييم محتمل، حتى وإن كان ذلك يجب أن يؤخذ كمجرد افتراض للعمل. ويرى الجبرتى أن مصر تصور ككيان واقعى، ووعاء محدد يميز بدوره المحتوى وهو المصريون بالذات مع الإشارة للديانة الإسلامية وغير الإسلامية، على سبيل المثال "أهل العرب"، الذى عندما يذكر يشير صراحة لشبه الجزيرة العربية. هل هذا شيء جديد أم أنه مجرد استمرار لتقاليد أخذت دائما فى الاعتبار بالنسبة للفرد

وكذلك بالنسبة للجماعات الاجتماعية، تعدد الانتماءات، وخاصة الانتماء الديني والبلدي، إذا جاز التعبير (الإسلام من ناحية فى أنظمته المذهبية أو التى يأتى منها من الناحية الأخرى)؟

وبدلا من السعى لإجابة قد تكون متعجلة، وبالتالى اعتباطية، سنأخذ فى الاعتبار بعض العناصر الأخرى. إن أوصاف مصر التى تدهشنا غالبا فى الجبرتى، وهى غالبا منسوبة للفرنسيين فى الجزء المدروس، تتفق مع نوعيات من "الفضائل"، معتادة فى الجغرافيا وفى التأريخ الإسلامى فى العصور الوسطى.

"إن مصر مركز واحد، وهى من أخصب البلدان. وقد جذبت دائما التجارة من أقاليم بعيدة". "والعلوم والفنون والقراءة والكتابة، كما يعلم العالم، هى أمور معروفة عند أجداد السكان الأوائل فى البلاد. ولأن لها هذه الخصوصية فقد رغبت الأمم دائما فى حكمها"[٢٤].

والحقيقة التى يمكن أن تكون لها قراءة جديدة، وهى تعريف الأمم التى غزت مصر ومسئولة عن مصاعبها على أساس عرقى وليس دينيا ــ البابليون واليونانيون والعرب والأتراك ــ لا تعليق عليه، ويجرى تسطيحه ربما على أساس مفهوم العصور الوسطى الكلاسيكى الخاص بتعاقب الأمم على مسرح التاريخ. ويمكن أن يؤكد هذا الأمر ابتعاد كاتبنا إزاء الماضى الفرعونى، الذى سيتحدث عنه المؤرخون اللاحقون كعنصر أساسى للمصرية: ويعلق الجبرتى، بشىء من السخرية، على الاهتمام الأوروبى بالحضارة المصرية القديمة. وفى حديثه عن بعثة أثرية إنجليزية لأهرامات الجيزة يعلق قائلا: "بحكم طبيعتهم ورغبتهم، هم يحبون دراسة الأشياء الغريبة والاهتمام بالتفاصيل والتفاهات وخاصة الأطلال القديمة والأحداث المدهشة فى البلاد واللوحات والتماثيل المكتشفة فى مغارات أو فى مقابر قديمة فى صعيد مصر وأماكن أخرى. وبعض هؤلاء الإنجليز يتنقلون فى كل العالم لهذا الهدف، منفقين مبالغ طائلة من أموالهم"[٢٥].

ولكن هناك زاوية أخرى للرؤية تبدو لى معقولة. أن الجمل المتكررة فى

الجبرتى للحديث عن مصر تعتمد دائما على فكرة الأرض: البلاد المصرية، الأرض، الأراضى المصرية، الديار المصرية، الأقاليم المصرية... إلخ.

وهى بالطبع ليست تجديدية، ولكن لأنها توجد بالذات فى سياق خاص، من التعارض الموضوعى مع الاحتلال الفرنسى، بصرف النظر عن الرأى الذى يقال عن ذلك، فإنها يمكن أن تمهد لصياغة وطن، وهى كلمة موجودة أيضا هى الأخرى فى مفردات الجبرتى، فى حدود "المصرية"، دون أن ينطوى الأمر من جانبه على وعى دقيق بتأثير حملة بونابرت على مصير مصر القادم. وعلى أى حال فإن "وطن" الجبرتى هو أقل نظرية وأكثر شمولا من التعريف الذى سيقدمه الطهطاوى بعد ذلك بعد ذلك بعدة عقود، فى العديد من أعماله[٢٦]: "إن مصر فى عهد الفراعنة كانت *أم الأمم. والأرض المصرية يرجع لها الفضل فى نشر* هذه الحضارة التى تحض على الرقص والمرح". وهى وطن بمثابة "عش" للإنسان الذى ينمو فيه ويرحل عنه، ومكان وحدة أسرته وطفولته".

والعنصر التجديدى المحتمل لا يتعلق "بالوطن" ولكن بالبعد القانونى "للأمة" (الملة) التى هى فى عرف السياسة والجنس مجموع الأشخاص الذين يسكنون بلدا واحدا، ويتحدثون لغة واحدة، ولهم العادات نفسها ويتمتعون بالحقوق نفسها. وهم خاضعون عامة لقانون واحد وحالة واحدة. ويسمون الشعب والمواطنون والجنس وأبناء الوطن، حيث يتضح تماما الاعتماد على المفاهيم الفرنسية.

(٥) إن تحليل عمل الجبرتى المرتبط مباشرة بموضوعنا هو تحليل مؤرخ وعالم اجتماع مصرى، من أسرة مسيحية وتكوين ماركسى وهو أنور عبد الملك. فى عمل له صادر فى باريس فى ١٩٦٩، عندما أصبح انحدار عبد الناصر لا رجعة فيه "الأيديولوجية" والميلاد القومى. مصر الحديثة"، يطرح صراحة فى نهاية تفكيره، سؤالنا: "هل توجد أمة مصرية أو بمعنى أصح، أليست الأرض المصرية هى نفسها أحد أوطان الأمة العربية؟ مع التحديد اللازم: "كيف يمكن أن يكون الإنسان مصريا فى بداية وطوال القرن التاسع عشر؟".

وفى هذا التصور يخصص فصلا بأكمله لـ "ميلاد الضمير التاريخى" يتبنى فيه، مع بعض التحفظ، الرأى الإيجابى عند العديد من المستشرقين، مشيرا لعمل الجبرتى على أنه أحد الممرات الإجبارية "للوقائع والتاريخ العلمى"[٢٧]. ولكن عبد الملك لا يبحث عن المادة فى الجبرتى للرد على سؤاله.

وفى عمله المذكور، يحدد ما يشبه البديل (الدوبلير) للجبرتى فى مؤلف مصرى من القرن التاسع عشر، وشخصية تعيش حياة سياسية مضطربة، حتى يعينه الخديوى إسماعيل فى ١٨٦٣ مديرا لقسم الترجمات، حيث يبقى فى منصبه حتى الوفاة: وهو المذكور عاليه رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ – ١٨٧٣). وينسب إليه عبد الملك وظيفة أول منظر حقيقى للأمة المصرية، مع إشارة خاصة لعمل صدر الجزء الأول منه فى ١٨٦٥، "أنور توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل". وبعد أن وجد عبد الملك منهجية جديدة مطبقة فيها، يصف العمل التمهيدى لتأسيس "التاريخ كعلم " فى مصر. ومع ذلك فإن هذا العمل، كما يقدمه عبد الملك، يبدو كلاسيكى البناء. أى أنه يبنى، كما فى التواريخ العامة الكبيرة الخاصة بالماضى، تقسيما للفترات يحدد فترة سابقة (وهنا الماضى الفرعونى واليونانى والرومانى) وفترة لاحقة وهى مجىء الإسلام. وما يوضحه عبد الملك هو أن الطهطاوى يتناول بزوغ الإسلام ودور مؤسسه بروح نقدية ستظهر مرة أخرى فقط فى ١٩٣٥ مع كتاب محمد حسين هيكل، "حياة محمد"[٢٨].

ويروى عبد الملك أن هناك أمرين جديدين فى الطهطاوى. ولتحديد الأمر الأول، يستخدم كلمات ألبرت حورانى: خلق " الفكرة المحددة للوطنية الإقليمية بالمعنى الحديث للكلمة"، غير المتوافقة مع كلمة "أمة" المبنية على أساس الاتفاق على الوحدة الدينية[٢٩].

وهذا أمر جديد مختلف عليه. فكما رأينا، يمكن أن يعود بتاريخه إلى الجبرتى، وعلى أى حال ليس مفروغا منه حتى فى حالة الطهطاوى. وعبد الملك نفسه بالفعل يشير إلى أن مؤرخا مصريا مهما هو محمد صبرى يرى فى

الطهطاوى فى ٣٣ مجرد مؤيد لـ "مصر عربية وإسلامية، على أساس اللغة والدين"، حيث يمتد الربط المحتمل مع فكرة الأمة، بصورة طبيعية للعالم العربى والإسلامى، أكثر من ارتباطها بالطابع المصرى لمصر. ويحاول عبد الملك تأريخ رأى محمد صبرى، موضحا أن هذا الأخير "يبحث عن أسباب النهضة وليس الوطنية أو القومية المصرية"(٣٠). وهذا حقيقى، ولكنه يشهد بصورة أكثر على حقيقة أن العروبة، كما فهمها ممثلو "النهضة" التى يصعب فهمها بدون إسهامات خارجية، كانت فى عهد صبرى قد هضمت كنموذج سياسى مقبول يندرج فيه مفهوم "الوطن المصرى"، ويستلهم منه عمله المناهض للاستعمار.

والأمر الثانى الجديد تأريخى. ويكمن فى "فكرة البقاء والاستمرارية" فى التاريخ، وبالتالى فى مصير مصر، أم أمم العالم"، والمالكة منذ مجيئها للوجود "للسيادة الأخلاقية على كل ممالك الأرض"، حيث إن ما يدهش أكثر، فى حالة مصر، فى رأى الطهطاوى، مع استمرار شمس سعادتها وارتفاع نجم مجدها، هو أنها احتفظت لسبعين قرنا، دون انقطاع بمكانتها البارزة": وهو مصير ربما اتخذه الإسلام الأول جزءا من مهمته التاريخية ويتعين على مصر استعادته(٣١).

والنتيجة المباشرة هى أن ننسب للطهطاوى مثل هذه الفكرة: فكرة الوظيفة الإيجابية للمثقف التى تنتهى بداية من السبعينيات، ولكنها لا تزال قائمة على الأقل فى مصر، فى اللحظة التى يكتب فيها عبد الملك.

(٦) لنترك جانبا هنا القضية التى أشرنا إليها من قبل وهى موقف المثقف اليوم فى مصر لكى نركز على حديث الاستمرارية. والاستمرارية بلا شك، هى طائفة تأريخية يشترك فيها الجزء الأكبر من المؤرخين المصريين، فى فترة القرنين المذكورين هنا، أيا كانت قاعدتهم المذهبية، مما يجعل بعض المراجع الدقيقة غير مفيدة بل العكس هو الصحيح. وبصورة استفزازية قليلا، قد أميل للتأكيد على أن الدفعة لوحيدة التى لها بعض الوزن فى العالم العربى ـ الإسلامى فى الاتجاه المعتاد، أى الذى يؤدى إلى قراءة الماضى من ناحية

الصدمات والرقابات، هى ما يسمى بالأصولية الإسلامية الحالية، ليس لأنها تدعى تأسيس مشروعيتها على استعادة عصر ذهبى خانه البعض، ويقع فى فترة تاريخية محددة ولكنها منتهية.

وفى تصور للاستمرارية، ماذا يعنى إذن ١٧٩٨؟ بعض الأمثلة؟. إن عبد الملك متحفظ فى استخدامه للإشارة إلى مسار جديد فى التاريخ المصرى. وهو يفضل ١٨٠٥، "تاريخ تولى محمد على، باعث مصر الحديثة الحكم"، مؤرخا على نحو مختلف لدخول الأفكار الملهمة للنهضة ويرتبط بها[٣٢]. ومن جديد تتجه الإشارة إلى الطهطاوى الذى سيقوم بالمهمة "الأساسية" فى "غرس مبادئ الثورة الفرنسية فى النهضة القومية لمصر الحديثة"، فى كتابه الشهير "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز"[٣٣].

والاحتجاج الصريح تقريبا برمزية التاريخ يمكن تعميمه لدرجة أن هناك من يؤكد أن التأثير المصرى على الفرنسيين هو الذى يجب أن يؤخذ فى الاعتبار وليس العكس[٣٤]. ولكن أهمية محمد على هى مسألة عليها خلاف أكثر، حتى عندما نعترف بإنجازاته. وعبد الملك لا يشكل مدرسة أيضا فى هذا الشأن. فهناك بالفعل حول هذه النقطة اتفاق له مغزاه لآراء الماركسيين والقوميين الناصريين، الذين يرون التاريخ الأهم فى آليات التحديث فى مصر قد لا يكون ١٧٩٨ ولا ١٨٠٥ ولكن ١٨٨١. إن ١٨٨١ قد يمثل بالنسبة للماركسيين هنا ختام أو بداية جوهرية لتغيير فى طريقة الإنتاج، المقدر لها أن تشجع على تكوين طبقات اجتماعية جديدة. ويرى الناصريون والقوميون بصفة عامة أن الأوربة يمكن أيضا أن تكون قد بدأت مع حملة بونابرت، ولكن المهم هو نتيجة العملية، أيا كانت اللحظة التى بدأت فيها، أى ثورة عرابى باشا الوطنية[٣٥].

ويجدر بنا أن نشير إلى التناول المختلف للقضية من جانب مؤرخين عرب من مشارب أخرى. فالحورانى يختار ١٧٩٨ كتاريخ انطلاق "للحقبة الليبرالية". ويضع أنطونيوس البداية الحقيقية للعملية القومية العربية فى سوريا، فى بيروت،

فى ١٨٤٧، عندما أسس نصيف اليازجى وبطرس البستانى "جمعية أدبية متواضعة تحت الرعاية الأمريكية"، وربما لهذا يسمح لنفسه برأى كريم عن محمد على الذى "لو لم تكن هناك قوى أوروبا، لانتزع العرش والخلافة من بين أيدى المتسلطين فى القسطنطينية وأسس الأمبرطورية العربية"(٣٧).

ويندرج فى هذه الإشكالية أيضا اختلاف المعنى المنسوب لثورة ١٩١٩، العربية بالنسبة للغالبية، والداخلية، على العكس من ذلك فى التاريخ المصرى بالنسبة للتأريخ المصرى(٣٨). وعلى أى حال، وسواء أكان هذا بسبب طريقة جديدة للإنتاج أو لظهور ضمير قومى، فإن الاستمرارية التى نتحدث عنها يجب أن تجد طريقها للظهور بصورة خاصة. وهى يمكن أن تتعرف على فاعلها التاريخى فى جماهير الفلاحين وفى سلبيتهم الظاهرية(٣٩)، أو تصور نوعية فرعية بحرأوسطية، إفريقية، آسيوية، أو غير ذلك(٤٠). وبالتالى فإن "المصرية" تعود لكى تلعب دورها. ويمكن أن تكون هناك اختلافات فيمن يجسدها أو حول كيفية التعبير عنها. ويتحدث بيرك، فى عمل شهير له يرجع لعام ١٩٦٧، " l' Egypt. Impérialisme et révolution" بشأن المسابقة الأدبية التى أقامها فى ١٩٣٦ على ماهر الذى ينسب إليه ثقل كبير فى نهضته العربية، وبصفة أعم فيما يتعلق بأثر الأزهر على البلاد وأصل العادات والتقاليد المصرية، يتحدث عن المصرية كما يتحدث عن شىء يقع بين "العروبة" و"الفرعونية"(٤١). وهذه طريقة كانت تفخر بتقاليد راسخة فى عهد على ماهر.

مثال من بين أمثلة عديدة ممكنة. أحمد لطفى السيد: "نحن المصريين نحب بلادنا ولا نقبل الانتماء لأى وطن آخر، أيا كان أصلنا: حجازيا، أو بربريا، أو تركيا شركسيا، أو سوريا أو يونانيا. إن مصر هى ذلك البلد الطيب الذى كان لمرتين مهدا للحضارة ويمتلك الثروة الطبيعية وشرف الأجداد القادر على تأمين تقدمه، بمجرد أن يظهر أنه جدير بذلك، وأن تكون قلوب سكانه كريمة وترتفع طموحاتهم حتى تعيد إليهم الشرف وتجعلهم يستعيدون مجد أسلافهم"(٤٢). وهو شىء

كان طه حسين قد وصفه بألفاظ أدبية جدا بأنه "خليط رقيق من الابتسامة والجدية، والتفاؤل والحزن، يشع من الروح المصرية، الشابة جدا والقديمة جدا، المنجذبة للحديث والمتعلقة بالقديم، والقادرة على انطلاقات عظيمة وتقدم عظيم ولكنها فيلسوفة إلى حد أنها تركت الحياة تمر بين الحين والآخر"(٤٣). ولم يتغير أى شيء مع ذلك جوهريا ولا حتى بعد ذلك، على سبيل المثال، مع حسين فوزى الذى كان يؤكد فى ١٩٦١ قائلا: "كل هذه الآثار ــ الأهرامات مع كتاباتها البارزة والغائرة، ومقياس النيل والكنائس والمؤسسات الخيرية، والمساجد، والأضرحة المملوكية تحيي أسماء ملوك وخلفاء وسلاطين تجعلنا ننسى مبدعها الحقيقى، الشعب المصرى، هذا الشعب الحاضر وراء كل هذه العجائب، والذى يواجه بحزم مصائب وكوارث (...) والفلاح المصرى اليوم هو نفسه من آلاف السنين، ليس فى اللغة والفكر والإيمان أو فى الملبس (...) ولكن فى علاقاته مع الأرض والرى والزراعة". ويستمر النص فى صياغة علاقة خاصة فى مصر بين المدينة والريف، كما يبدو خاصا مصيرها فى أن تتعرض للغزو وتحكم من أجانب. ولكن كل شيء يؤدى إلى وحدة تجعل من وحدة الشعب المصرى أقدم وأقوى وحدة حققتها أى أمة تكونت على الأرض. وقد شكلها النيل بطميه وأضاءتها الشمس ببريقها"(٤٤).

وعلى أحد الثوابت الأساسية ترتكز متغيرات لا تنتهى، يمكن أن تقدم عنها قراءات لا تنتهى مماثلة، فى مدى من التفسيرات من المستبعد جدا أن ينتهى على المدى القصير، ليترك الآن المجال مفتوحا لافتراضات عن نوعيات العلاقة البينية المصرية والعروبة أو بشأن عدم توافقهما الموضوعى، وهو ما يجب على التاريخ المصرى أن يظهره بأى حال من الأحوال.

هــوامش

(١) تبر هن على الأمر الأدبيات النقدية الهائلة في هذا الشأن. يجدر بنـــا أن نـــذكر هنـــا، علاوة على الكتاب الذى ذكر كثيرا جدا، وهو
Wendell C., The Evolution of the Egyptian National Image from its origins to Ahmed hutfi al- sayyid
بير كلى، ١٩٧٢، بعض الأعمال الأحدث، على الرغم من أنها لم تكن كلها فى متناول من يكتب: Watterson B. , The Egyptians. Oxford 1997،
جورمان ب.
"In the shadow of the nation: the politics of the Egyptian Historiography in the twentieth centuary"
فى Journal of Arabic, Islamic and middle Estern Studies
٣، ١، ١٩٩٠، ص ١١٧- ١٢٦؛ أنزلى ج.،
The rise of modern Egypt: a Centuary and ahalf of the Egyptian History, 198- 1957
، إدنبره ١٩٩٤؛ جير شونى أ.، يانكوسكى ج. ب.،
Redefining the Egyptian Nation, Cambridge middle Eeast studies،
م، كامبريدج ١٩٩٥؛
Contemporary Egypt through Egyptian Eyes.،
دار نشر تريب س.، لندن ١٩٩٣. على صعيد المفاهيم العامة، ومع إشارة خاصـــة للقرن العشرين، راجع شولتزر.
Il Mondo Islamic nel xx secolo. Politica e sorietà civile،
ميلانو ١٩٩٨ (دار نشر ألمانية، ميونيخ ١٩٩٤)، الذى نتفق معه فى التناول المذهبى والتأريخى، مع الابتعاد غالبا عن الرواية الدقيقة للأحداث السياسية والأجواء الثقافية، وخاصة فيما يتعلق بما تناولناه فى الفصل الأول.

(٢) هناك مثال له مغزاه فى هذا الشأن، وهو بعض صفحات (٩٥- ٩٦) لمحمد عمارة، المثقف المسلم المصرى الليبرالى، والتى تظهر فى كتابه "جمال الـــدين الأفغـــانى– الأعمال الكاملة"، المجلد الأول، بيروت ١٩٧٩، فى الفصل المخصص لـــ"القومية... والعروبة"، ص ٨٥- ١٠٠، وهنا يعلق عمارة على لقاء مؤسس القوميـــة العربيـــة جمال الدين الأفغانى مع الخديوى إسماعيل حلمى، وقد يكون الأفغانى قـــد عـــرض

خلاله مشروعه السياسى بصورة ما، وبصرف النظر عن الرغبــة المحتملــة عنــد الأفغانى فى إرضاء الملك لكى يكسبه لقضيته، فإن من الواضح أن عمــارة محــب لمصر والمصريين، شديد الارتباط بهم، كثير البحث فى القضية المصرية، ويصــف مصر بأنها "أحب بلاد الله"، "باب الحرمين"، ويستخلص من الأمر خلاصة مؤداها أن أى بيعة محتملة للخديوى يمكن أن تقابل البيعة الشهيرة التى طلبها النبى (صــلى الله عليه وسلم) وأعطيت له، تحت الشجرة. حيث يعترف الأفغانى نفسه بالدور المهيمن لمصر والذى يبدو أن عمارة يؤيده.

(٣) راجع روسيلون أ.

"Egyptianité, arabité, inlamité: le recomposition des referents indetitaires'

فى Egypte- monde arabe، ١١، ١٩٩٢، ص ٧٧-٢٣٢، حيث يحلل عملان: فى أصول المسألة المصرية، القاهرة ١٩٥٠ لصبحى وحيــد الــذى يصــفه المؤلــف بأنه"شخصية انتقالية بين النظام القديم والجديد" (ص ٨٥) ومصر ورسالتها: دراســة فى خصائص مصر ومقومات تاريخها الحضارى ورسالتها فى الوجــود، القــاهرة ١٩٥٦ لحسين مؤنس الذى سيكون تنظيره قاعدة، بداية من الستينيات، لإعادة التكوين العربى الذى سيرسم صورة الأيديولوجية الرسمية. وبرنامج العمل للضباط الأحرار" (ص ٩٦)

(٤) راجع بالتحديد، ماجد منسى،

Tendances de l'histoigraphie égyptianne contemporaine Les arabes et l'histoires créatice

تحت إشراف د. شوڤالييه، باريس ١٩٩٥، ص ١٥٩- ١٦٢.

(٥) الإدانة الأحدث والمقنعة لما يقال هى، فى رأيى، إدانة السورى برهان غليون الــذى يجتاح حديثه كل العالم العربى - الإسلامى، ولهذا راجع"تقديم" ب سكارتشا أموريتى، للترجمة الإيطالية لواحد من آخر أعماله،

Islamic e islamisms. La modernità tradita

روما ١٩٩٨، ص ٩-١٩

(٦) يبدو أن هذا هو الرأى المتفق عليه: راجع كالكى- نوڤاتى ج.،

Storia della´Algeria indipendent، ميلانو ١٩٩٨، الذى يعزو أهمية معينة لتأثير محمد على، عل عبد القادر(ص ٢٢)، وهنا المثال الأكثر ملاءمة مرة أخرى: جمال الدين الشيال،

"Historiography in Egypt in the nineteenth centuary"

فى historianns of the middle Eeast،

لويس ب، طبعات هولت ب. م، لندن- أكسفورد ١٩٦٢، ص ٤٠٣- ٤٢١، الذى يصف محمد على صراحة بأنه خالق المناخ السياسى الجديد الذى سيتطور فيه التأريخ الجديد.

(٧) روسيلون أ. المقال المذكور، ص ٧٧

(٨) النصوص المسجلة فى الفترة المذكورة، أو التالية على الفور، هى التالية: على الجانب الماركسى: حسن رياض،

باريس ١٩٦٤؛ محمود حسين،

l'Egypte nassérienne، la lutte des classes en Egypt de 1945- 1968

باريس ١٩٦٩؛ أنور عبد الملك،

Idéologie et renaissance nationale. l'Egypt moderne

باريس ١٩٦٩؛ عاصم دسوقى، مصر المعاصرة فى دراسات المؤرخين المصريين، القاهرة ١٩٧٢؛ أحمد صديق سعد، تاريخ العرب الاجتماعى. تحول التكوين المصرى من النمط الآسيوى إلى النمط الرأسمالى، بيروت ١٩٨١؛ وعلى الجانب الوطنى- الناصرى: القشيرى محفوظ،

Socialisme et pouvoir en Egypte

باريس ١٩٧٢؛ مجدى وهبة،

La politique culturelle en Egypte

باريس ١٩٧٢. وقد استكمل هذا التسجيل، من ناحية باللجوء إلى سلسلة من المجموعات نشير إلى بعضها بصفة خاصة مثل"دار الكتب فى عهد الثورة، يوليو ١٩٥٢- يوليو ١٩٦٤، القاهرة ١٩٦٤ و ف. كليمنتس

The Emergence of Arab Nationalism from Nineteenth Century to 1921. A Bibliography

وور شيستر- لندن ١٩٧٦، ومن الناحية الأخرى، بتحليل من نفس نوع تحليل ر. ميجر فى

Contemporary Egyptian Historiographz of the period 1936- 1952.a study of its scientific and political character

والذى يرجع إليه نص مكتوب على الآلة الكاتبة، أمستردام ١٩٨٥، وكذلك العديد من مختارات النصوص، من بينها المختارات الرائدة،

Antologie de la literature arabe contemporaine. Les essais

اعداد أنور عبد الملك، باريس ١٩٦٥. بالنسبة لنصوص القرن التاسع عشر، راجع الأجزاء التالية

(٩) ويجب أن نذكر (ولكن راجع فى الأجزاء التالية، كتاب أ. بانبيني، أن هناك من يؤكد أن الفرعونية كأسطورة مؤسسة لمصر متأخرة نسبيا، وأن المسئول عنها محمد حسنين هيكل بحثا عن جذور الهوية "فى مواجهة الشرعية العثمانية والاحتلال الإنجليزى".

انظر ليلى عنان،

"l'Egypte pharaonique; un mythe des romans français aux romans égyptiens"

فى lmiroir égyptien، إلبرت ر.، طبعات جوتارد فى مرسيليا ١٩٨٤، ص ٢٩،٣٧.

(١٠) وقد سد مثل هذه الفجوة جانب كبير من عمل أ. بيليتيرى، الذى أشكره للنصائح الكثيرة التى قدمها لى. وعلى سبيل المثال، انظر أعماله:

Nazionalismo arabo.. siria, libano, 19 0- 1950

باليرمو ١٩٨٢؛ عبد الرحمن الكواكبى، (١٨٥٣- ١٩٠٣).

مواد جديدة تتعلق بالسير والمراجع، كراسات Oriente moderno، العدد . س. ١٥، ١٩٩٦؛

باليرمو Islam Bez al-'azm, intellettuale damasceno riformista 1865- 1952) ١٩٩٨.

(١١) ليس من قبيل الصدفة أن كرابس ج. أ. ج، فى

The writing of history in nineteenth centuarz Egypt, A studz in national transformation

القاهرة – ديترويت ١٩٨٤، لا يؤكد فحسب أن التأريخ المصرى، فى مجموعه بداية من القرن التاسع عشر،

"was in prosess of becoming 'modern"

ولكن عندما يصف منهج الطهطاوى، وهو مؤلف سنعود إليه، الذى ينسب إليه "أولنا فى الوطنية المصرية"، لا يمكنه أن يلاحظ أنه فى كتابه "التخليص"، وهو "ثروة من التفاصيل وعمق التعليق".... "يتذكر على الفور وصف الجبرتى للفرنسيين" (ص ٨٠)

(١٢) هولت ب. م. فى

"Al- JabartÎs Inteoduction to the history of the Ottamn Egypt"

فى Bulletin of the school of oriental and African studies xxv

العدد ٢٥، ١، ١٩٦٢، ص ٣٨-٥١، المذكورة في الجبرتي، مع الاختلافات الواجبة، بين مؤلفي "الوقائع الأدبية"، المقابلة لـــ "لوقائع الشعبية"، وهما النوعان اللذان يراهما هولت موجودين في عصر الجبرتي على ساحة التأريخ المصري.

وحول الانتاج التأريخي المصري في العهد العثماني فيما يتعلق بـــالجبرتي، راجـــع أيالون د.،

"The historian al- Jabartî and his background"

في "Bulletin of the school of Oriental and African studies

العدد ٢٣، ٢، ١٩٦٠، ص ص ٢١٧- ٢٤٩ . وفي المرجع نفسه

"studies in al- Jabartî . I. Notes of the transformation of mamluk society in Egypt under the ottomans",

في Jornal of the Economic and Ecnomic and social History of the orient

العدد الثالث، ١٩٦٠، ص ص ١٤٨-١٧٤؛ ٢٧٥- ٣٢٥.

وأخيرا انظر فيليب ث.، شوالد ج .،

"Arab al- Raman al- Jabarti's history of Egypt"

عجائب الآثار في التراجم والأخبار . A guide، شتوتجارت ١٩٩٤، ص ٥، حيـــث (ص٣٨٥- ٣٩٠) يمكن العثور على قائمة مراجع حديثة عن مؤلفنا وأعماله.

(١٣) راجع روزنثال ف.

History of Muslim Historioans of the Middle Eeast

الطبعة الثانية، لايدن ١٩٦٨، ص ١٣٣-١٧٢.

(١٤) انظر أيالون د.،

The Historian al- Jobatî

في Historians of the Middle East، المرجع المذكور، ص ٣٩٥.

(١٥) حول موضوع العلاقة المذاهب الوطنية، والتأريخ القائم على بنـــاء إقليمـــي راجـــع شكارتشا أموريتي ب.،

"Nationalismi, storie regional': osservazioni a margine"

في Azher. Studi arabo- islamici in memoria di umbreto Rizzitano (1913-1980)

إعداد بيليتيرى أ.، مونتاينا ج،

"Annali delle FacoltÀ di lrttere e filosofia dell□universite di Palermo. Studi e ricerch"

٢٣، باليرمو ١٩٩٥، ص ص ٢٣-٣٤

(١٦) انظر بوناواك أ.ك.،

"The Evolution of al- JabartÎ's Historical thinking as reflected in the muzhir and the agaib"

فى Arabica ، العدد ١٥، ٣، ١٩٦٨، ص ص ٢٧٠- ٢٨٨

(١٧) راجع فيليب ث.، شوالد ج.، المرجع المذكور، ص ٣.

(١٨) بصفة عامة، حول الترتيب الزمنى وأنواع عمل الجبرتى، راجع فيليب ث.، شوالد ج.، المرجع المذكور، ص٣ والصفحات التالية وكرابس ج. أ.، المرجع المذكور، بصفة خاصة، ص ٤٣٤٥، علاوة على E. I.2، تحت كلمة الجبرتى، وهنا يعتمد أساسا على ما هو مذكور فى بوناواك أ.ك. المقال المذكور.

(١٩) هذه هى ترجمة فيليب ث.، بيرلمان م.،

Abd al- Rahman al- Jabarti's History of Egypt

أربعة مجلدات فى ٢، شتوتجارت ١٩٩٤: هنا المجلد الثالث، ص٦

(٢٠) راجع بوركه ج. س.،

"A Description of the U ma's opposition to Napooleon; opposition to Napolion : organized Resistance to the French led by the 'Ulama' of Azhar"

فىHamadard Islamicus، العدد ١٧، ١٩٩٤،٤، ص ٥٥-٨٣

(٢١) راجع على سبيل المثال، أيالون د.

"The historian al- Jabarti"

فى Historians of the middle Eaest، المرجع المذكور، ص ٣٩٥-٣٨٩.

(٢٢) انظر بوناواك أ. ك.، المقال المذكور، ص ٢٨١.

(٢٣) الاستطلاع الذى تقوم عليه الملاحظات التالية يتعلق بالمجلد الثالث من طبعة "العجائب" فى القاهرة ١٣٢٢/ ١٩٠٤- ١٩٠٥، وبصفة خاصة ص ١- ٥٠ و ص ١٩٢- ٢١٠.

(٢٤) راجع فيليب ث .، بيرلمان م.، المرجع المذكور، ص ٣٦.

(٢٥) راجع بوسوورث س. أ.،

"al- Jabarti and the Frankish Archaeologists"

في International Journal of middle east studies,

٨، ١٩٧٧، ص ٢٢٩- ٢٣٦

(٢٦) أعيد الجزء الأول من استشهاد عبد الملك أ.،

Idéologie et eenaissance nationale . l' Egypte modern

باريس ١٩٦٩، ص ٢٢٦، والجزء الثانى من ناتالونى س.،

Per un'analisi del concetto di poplo nell'Islam,

ميلانو ١٩٨٧، ص١٢٠- ١٢٣، حيث يلاحظ أن كلمتى "أمة" و"ملة" يبدو أن كلاهما يعنى "أمة".

(٢٧) عبد الملك أ. المرجع المذكور، ص ٢٠٩- ٢١٠

(٢٨) المرجع نفسه، ص ٢٢٧.

(٢٩) المرجع نفسه، ص ٢٢٩

(٣٠) المرجع نفسه، ص ٢٢٦.

(٣١) المرجع نفسه، ص ٢٢٦. وهو ما لا يمنع الطهطاوى نفسه من أن يؤكد فى كتابه "تلخيص" (الذى رجع إليه هنا فى ترجمة أنور لوقا،

L'or de paris. Relation de voyage 1826- 1831,

باريس ١٩٨٨، ص ٣٠٨) أن "الحرية هى أيضا من صفات العرب، منذ أقدم عصورهم".

(٣٢) عبد الملك أ.، المرجع المذكور، ص ١٧

(٣٣) المرجع نفسه، ص ٢٢٠

(٣٤) راجع سعد أ. س تاريخ العرب الاجتماعى، ص ١٧٧.

(٣٥) حسن رياض، المرجع المذكور، ص ٧٢، يضع بداية مصر الحديثة عند منتصف القرن التاسع عشر، وجعلها تتزامن مع تشكيل حزب/ الحزب الوطنى الذى يصفه المؤلف بأنه حديث لأنه قادر على المطالبة بملكية دستورية وبرلمانية. ويرى محمود حسين، المرجع المذكور، ص ١٧١. ويجب أن نشير إلى أنه كان هناك من سيؤكد مثل مصطفى كامل أن عرابى لم يكن سوى "خائن، حريص فقط على مصلحته المادية": راجع لاكوتور ج . s.

L'Egypte en mouvement,

باريس، عدد طبعة ١٩٦٢، ص ٦٥، وهناك بعض الأصوات المخالفة، مثل القشيري محفوظ، المرجع المذكور ص٢٠٧ والصفحات التالية، الذى يتحدث عن "تجربة أثارها الانفتاح على "الأوروبية" مع حملة بونابرت". ولعرض رأى المؤرخين فى نهاية القرن وبداية القرن العشرين، يقدم عبد الملك، فى النص موضع التحليل هنا، الكثير من النقاط المهمة. وجدير بالذكر بصفة خاصة رأى لويس عوض، الذى يرى أن كل شىء يمكن أن يبدأ بإعلان بونابرت فى يوليو ١٧٩٨ (ص ٢١٣). وأيضا إلى جانب المؤرخين المصريين، لا يمكن أن نذكر ما يؤكده أ. حورانى فى كتابه

Arabic Thought in the hiberal Age , 1798- 1939,

أكسفورد ١٩٦٢، ص ١٩٣ والصفحات التالية، فيما يتعلق بحقيقة أن الاحتلال البريطانى هو الذى سمح بانصهار الحداثة الإسلامية والوطنية المصرية، بينما كانت الثورة نفسها على الاحتلال الفرنسى يقودها علماء الدين (ولهذا راجع رقم ٢٠)، بوصفهم "زعماء للرأى المحلى"، مع تأكيده على أنه مع الطهطاوى أولا ثم لطفى السيد بعد ذلك، ثم الانتقال مع فكرة "مجتمع الإيمان" إلى فكرة "الأمة المصرية" التى سيتحقق فيها مفهوم "الوطن"، وهو مفهوم مبنى بدوره على الاستمرارية التاريخية من الماضى الفرعونى والعربى إلى العصر الحديث.

(٣٦) يشار هنا إلى نص أ. حورانى، المذكور فى الملحوظة السابقة. ويجب أن نوضح أن المؤلف نفسه فى كتابه:

History of Arab peoples, كامبريدج (ماساشويتس) ١٩٩١، فيما يتعلق بالتأثير السياسى لمحمد على، يؤكد أنه "لم تكن هناك فكرة صريحة عن المواطنة أو التغيير فى الأساس الأخلاقى للحكومة" (ص ٢٧٣).

(٣٧) انظر أنطونيوس ج. The Arab awakening

بيروت ١٩٣٨، طبعة مراجعة ١٩٦٩. ١٣، ٢٠.

(٣٨) على سبيل المثال، عبد الرحمن الرافعى، "ثورة ١٩١٩: تاريخ مصر القومى من ١٩١٤ إلى ١٩٢١"، القاهرة ١٩٦٨.

(٣٩) هذا هو الرأى الذى يؤكده أحمد صادق سعد فى "تاريخ مصر الاجتماعى الفرعونى، الهيلينى، الإمبراطورى الإسلامى...، بيروت ١٩٧٩.

(٤٠) المفهوم مشار إليه فى "المقدمة" بتوقيع ناشرى Le mimroir egyptien,

المرجع المذكور، ص ١٢، وعلى نطاق أوسع، فى ج و س. لاكوتور، المرجع المذكور، ص٢٨ والصفحات التالية.

(٤١) انظر بيرك ج.،

L'Egypte. Impérialism et revolution

باريس١٩٦٧، ص ٥٢٥.

(٤٢) ننقل هنا عن،

Anthologie de la littérateure arabe contemporaine

المرجع المذكور، ص ١١٥- ١١٦.

(٤٣) منقول هنا عن بيرك ج .، المرجع المذكور، ص ٦٧٤.

(٤٤) منقول هنا عن

Anthologie de la littérateure arabe contemporaine,

المرجع المذكور ، ص ٤١٤. ويخبرني البرو فيسير محب س.أ يخبرني أنه في عمل شهير وحديث نسبيا، "الشخصيات المصرية"، يبدو أنه يوضح هذه المسألة، يؤكد المؤلف حنا م . أن المصرية هي مجموع كل هذه العناصر المختلفة التي أسهمت في تشكيلها من البحر أوسطية إلى الإفريقية. وهذه الاشارة، التي أشكر عليها البروفيسور محب، تؤكد فكرة الوحدة والتفرد التي هي أساس مفهوم المصرية، كما هي مقترحة هنا، علاوة على أنها تمثل تأكيدا آخر للآنية الدائمة للمشكلة.

الطريق المصرى للصحة
فى عهد محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٩)

سلفاتورى سبيتسيالى

١- أسباب ووقائع البحث

إن الاهتمام بالتحولات التى تتحقق فى المجال الصحى فى مصر سواء قبل أو بعد الاستعمار، ينشأ من التزام شخصى مزدوج. من ناحية، هناك الأبحاث التى تمت بالفعل عن دول المغرب ـ وتونس بصفة خاصة من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين[١]، ومن الناحية الأخرى، هناك الأبحاث الجديدة الجارية عن الاستعمار والصحة فى إفريقيا الشمالية[٢]. وهذان الطريقان فى البحث يتداخلان بدورهما مع طرق العديد من الباحثين من شتى المشارب التى تقودنا إلى تصورات أخرى بحد أوسطية وتشهد بواقع الإشكاليات الصحية والمستوطنة والسكانية[٣].

ووجهة النظر المتخذة هى من النوع المتعاون وبالتالى فإنها تتجه لإبراز أوجه الشبه والاختلافات بين المسارات الصحية لدول هذه المنطقة الجغرافية.

وسنحاول تحديد مستويات البداية، وبعد ذلك الطرق المتخذة لإعادة تنظيم النظام الصحى القائم أصلا، وبالتالى التأثيرالمختلف لحركات الاستعمار، وأخيرا حالة الأمور عشية الاستقلال.

والتناول المنهجى يتميز بشدة بتداخل المعارف، الذى يفهم على أنه مجموع تلك الأدوات التى تسمى بتحليل الجوانب المتعددة لماض معقد دائما ويعود بنا لقطاعات متخصصة فى الحياة البشرية: علم الأوبئة المستوطنة بصفة خاصة، وعلم السكان والاقتصاد والعقلية...

وهو تناول أعطى بالفعل نتائج على جانب كبير من الأهمية في بعض الأعمال المنشورة في العقود الأخيرة، سواء عن البحر المتوسط المسيحي أو الإسلامي.

ومن بحث أولي للدراسات المنشورة عن التاريخ الصحي للبحر المتوسط الإسلامي نستخلص أمرا له بالتأكيد مغزاه: في حين كان المغرب محورا لأبحاث قليلة متعمقة فإنه بالنسبة لمراكش ومصر بصفة خاصة، يوجد كم هائل لا يستهان به من الدراسات التي تحققت بصفة خاصة في السنوات العشرين الأخيرة[٤]. وهي أعمال تتفاوت قيمتها، بعضها مركز بالتحديد على عملية الانتقال التي تحققت بين القرنين التاسع عشر والعشرين، من "الصحة التقليدية" إلى "الصحة الحديثة".

وترتبط أسباب هذا الاهتمام الواضح بمصر الصحية بعوامل كثيرة:

أولا: المصالح الدولية الهائلة في هذه المنطقة، سواء أكانت ذات طبيعة سياسية أم تجارية.

ثانيا: العوامل الوبائية والمستوطنة التي تهدد وتعرقل التحقيق الكامل للمشاريع الأوروبية (التبادل التجاري الحر، غزو الأسواق والاستعمار)، أو المصرية (تقوية الجيش، وسياسة التوسع والتحرر من الإمبراطورية العثمانية). وأخيرا الدور "الفاعل" في التحديث الذي لعبه محمد علي، مع أهدافه في الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية وخاصة مع عمله المؤثر في المجال الاجتماعي.

وبالفعل، عند أول مقارنة مع ما حدث في الوقت نفسه في المنطقة المغربية، يتضح ثراء في المشروعات وقدرة على التنفيذ أوضح بالتأكيد في مصر. ولكن لابد أن نوضح في هذا الشأن نقطة أساسية: إذا كانت المشروعات المصممة والنتائج التي تحققت هي ثمرة رغبة فرد واحد، من ناحية ــ وهذا يؤدي حتما للتفكير في علاقة بين الاستبداد والتحديث، وحدود ومصاعب "التنفيذ من أعلى" ــ فإنها، من الناحية الأخرى، ثمرة أيضا لسلسلة كاملة من الظروف الداخلية

والخارجية. وهى ظروف تتضافر، بطرق مختلفة، لتحديد نوع من التحـديث بـدلا من الآخر، وطريق مصرى للصحة بدلا من آخر(٥).

٢- الصحة فى مصر بين التحفظ والتحديث

فى مجال هذا البيان القصير لابد بالضرورة الاقتصار فقط على رسم أهـم ظروف مسار التحديث. ولدواعى الإيجاز، يمكن إرجاعها لنوعين مـن العوامـل: عوامل طبيعية من ناحية وعوامل إنسانية، سواء متعمدة أو غيـر متعمـدة، مـن الناحية الأخرى. وعلى الرغم من أن التركيز كان منصـبا أساسـا علـى الحالـة المصرية، فإن البعض يرى أن من الضرورى توجيهه أيضا للعمليـات الموازيـة التى تنفذ فى الوقت نفسه فى البلاد الأخرى فى إفريقيا الشمالية فى هـذه المرحلـة الحساسة من التاريخ الوبائى العالمى. وهى مرحلة نشهد فيها تراجع الطاعون نحو البؤر الأصلية وتقدم الكوليرا فى كل الاتجاهات فى العالم.

العوامل الطبيعية

من بين العوامل الطبيعية التى يمكن أن نحصيها، هناك بعض الخصـائص الجغرافية ــ الطبيعية والمناخية والبشرية ــ التى تـؤثر مباشـرة علـى الجانـب الوبائى ــ الصحى. قبل كل شىء، هناك الموقع الجغرافى لمصر بين القارات وهو ما يؤدى إلى وظيفة بارزة لتوزيع البشر والبضائع وفى خط مواز هنـاك وظيفـة واضحة "للتوزيع البكتريولوجى". والطرق والممرات المطروقة أكثر من غيرها فى اتجاه الهلال الخصيب والأناضول والبحر الأحمر وشبه الجزيرة العربية والمغرب والبحر المتوسط، وبالتالى أوروبا هى بالفعل المسارات المطروقة أكثر مـن قبـل العدوى الوبائية.

وهناك بالتأكيد العديد من العوامل التى تقوى وظيفة "التوزيع البكتريولوجى".

محورية الدولة فى التدفقات البشرية بين القارات تبعا للاتجاهات من الغرب — الشرق — الغرب والشمال — الجنوب — الشمال نتيجة للحج إلى مكة والقرب من بؤر الطاعون الدائمة فى شبه الجزيرة العربية، وكردستان وليبيا والبؤر المؤقتة فى الأناضول والبلقان، والشبكة المكثفة من الاتصالات القائمة مع تلك المناطق[٦]، ثم الظروف المناخية (وخاصة العلاقة بين درجة الحرارة والرطوبة) المناسبة لبقاء بكتريا الكوليرا وبكتريا الطاعون وكذلك انتشارهما[٧].

وعلاوة على ذلك هناك وجود مصدر وحيد للتزود بالماء، يتمثل فى النيل الذى يؤدى إلى نوع من عدم الاستقرار فى الإمداد الذى تعرقله إجراءات صحية ويسهل انتشار الكوليرا.

وأخيرا، هناك التركيز المرتفع للسكان بطول ضفاف النيل وفى منطقة الدلتا، الذى يشجع بصورة هائلة على العدوى بين البشر.

وتسهم هذه العوامل مع عوامل أخرى فى خلق وتحديد صورة مصر فى الوعى الجماعى "كرأس جسر" للأوبئة طوال كل العصر الحديث والمعاصر[٨]. وهى صورة مدت جذورها سواء فى العالم المسيحى أو فى العالم الإسلامى، والمغربى بصفة خاصة[٩]. ونحن نشعر بانعكاسات هذه الرؤية بصورة ثقيلة، كما سنرى، على السياسات الصحية (الدفاعية) سواء على المستوى الأوروبى أو المصرى.

العوامل البشرية غير المقصودة

إلى جانب العوامل الطبيعية المدرجة، تضاف، سلبا، عوامل بشرية من النوع غير المقصود. وهذه العوامل تشمل تحولات السباق الجغرافى التى تنتج عن عمل الإنسان وخاصة فى القرن ١٩. وهى تحولات على المستوى الحضرى، والزراعى والطرق وتشمل على انعكاس غير متوقع على السياق الوبائى — الصحى، سواء على المستوى الصغير أو الكبير.

وفى هذا المقام قد تكفى الإشارة إلى بعض من أهم هذه العوامل:

أولا: التوسع الحضرى الإعجازى للإسكندرية الذى تحقق بداية من العشرينيات من القرن ١٩. وهو توسع يؤدى فى الوقت نفسه إلى ميلاد بؤرة حضرية جديدة من الطاعون[١٠].

ثانيا: انتشار الرى الدائم المفروض بداية من الثلاثينات.

وهذا النظام ينتج بالفعل سلسلة من الأنظمة البيئية الصغيرة الجديدة، المثالية لنمو الملاريا وانتشار الكوليرا.

وقد يتطلب الأمر فى النهاية حديثا خاصا للتحول الجارى فى النقل البرى وخاصة البحرى على الصعيد العالمى، بداية أيضا من العشرينيات والثلاثينيات من القرن ١٩. والعناصر الأساسية فى هذا التحول الأخير هى تحسن نظام الطرق، وخاصة انتشار السكة الحديد والملاحة التجارية خارج أوروبا. وقد أدت زيادة سرعة وسائل النقل إلى ضغط مكانى ــ زمانى، وهو ما يمكن أن يشار إليه على أنه العامل الذى أدى إلى الاعتدال بقوة[١١]. ومن الواضح أن هذا الضغط، عندما يطبق على المجال الوبائى، فإنه يترجم حتما إلى إسراع فى نقل الوباء.

وبالفعل فإن إحدى النتائج الدرامية هى بالتأكيد أول ظهور فى البحر المتوسط للكوليرا الهندية. وهو أمر يكتسب دورا محفزا أيضا فى عملية التحديث كما سنرى فيما بعد.

العوامل البشرية المقصودة

تشمل العوامل البشرية المقصودة على العكس من ذلك، تحولات النظام الصحى التى أعد برامجها محمد على وحاشيته والقوى التى عارضتها وهى قوى ذات طبيعة داخلية أو خارجية عن البلاد وتميز بدرجات متفاوته، حجم عملية

التحديث. وهى قوى بالطبع لا تعمل فى المجال الصحى فحسب ولكن فى كل مجالات المجتمع التى تمسها عملية إعادة التنظيم والتحديث عند من يحكم.

ونقطة الانطلاق هى، كما هو معروف، تقوية الجيش التى يمليها مشروع التوسع الطموح والاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية. وقد أدت المواجهة القادمة المحتملة بين القوتين إلى أن رأس المال البشرى اعتبر عنصرا ثمينا دائما، وعنصرا يتعين دعمه وحمايته من الكوارث الوبائية فى ذلك العصر(١٢). وبالتالى فإن مشروع التوسع هذا دفع محمد على فى البداية لإصلاح الإشراف الطبى فى البلاد وخلق نظام صحى مستقل بعد ذلك. ونظرا لاقتناعه بالفاعلية الأعلى للدواء الغربى فى الكفاح ضد الأمراض الوبائية، فقد بدأ فى عملية للتقليل من شأن الدواء التقليدى وإزالة النظام الصحى القائم من قبل.

وفى خط مواز أشرف على مبادرات الطبيب الفرنسى أنطوان بارثيملى كلوت: إنشاء هيئة طبية من جديد(١٣)، وهيئة من القابلات(١٤)، وإنشاء أو تقوية المنشآت الصحية(١٥)، وتأسيس هيئات للوقاية(١٦)، وأخيرا فرض منظم وإجبارى لإجراءات الحجر الصحى، والتطهير والتطعيم(١٧).

وهناك تحول مماثل، على الرغم من أنه مقتصر أكثر على الجوانب الدفاعية البحتة، يتضح فى الوقت نفسه فى حكومتى تونس والمغرب(١٨). وبخلاف ذلك نجد فى حكومة طرابلس أن المبادرات الصحية فى المجال الصحى، التى بدأها آخر الكرمنليين تترك المجال للسياسة الصحية للإمبراطورية العثمانية من ١٨٣٥ فصاعدا(١٩).

وفيما يتعلق بالجزائر الفرنسية، غداة أول إنزال للقوات (وكذلك غداة غزو كل مدينة) تنشأ شبكة من المجالس الصحية العسكرية، تستبدل بها فيما بعد مؤسسات مدنية(٢٠).

ولكن الطريق الصحى الذى اتبعه محمد على، على الرغم من أنه وجد صدى وموافقة سواء فى العالم العربى أو فى أوروبا، فإنه بقى غالبا معزولا عن

السياق الداخلى، وبالفعل كان ينقص الملك مساندة القاعدة فى المجتمع وكثيرين من مساعديه أنفسهم وهذا لسببين اثنين: الأول، لأن العلاقة التى يحتفظ بها الناس مع الميراث الطبى ـ العلمى قوية جدا لدرجة أنها لا تتكسر فى وقت قصير، وثانيا لأن إيقاع التغيير الذى فرضه محمد على كان مفاجئا جدا، وبالتالى فإن التجديدات التى تصورها كلوت بك وفرضها محمد على تظهر كسلسلة من التحديات للتقاليد وتغييرات حقيقية مؤلمة أحيانا. ويتضح إذا موقف الرفض والخوف علاوة على عدم الفهم تجاه هذه الإجراءات المستوردة، علاوة على كل شىء، من العالم المسيحى.

"بطء" العملية

كانت العملية البطيئة التى التأمت من خلالها الكسور مهمة جدا بقدر الطريقة السريعة التى حدثت بها. وهذه العملية من الفعل ورد الفعل التى حدثت فى هذا النوع من التحديث من أعلى، يمكن أن توضح من خلال أربعة أمثلة سنتحدث عنها فيما يلى:

الأول متعلق بإنشاء مدرسة الطب، والثانى بنشر ممارسة الطب الشرعى، والثالث يتعلق بفرص التطعيم، والأخير يبحث ترشيد إجراءات الحجر الصحى والعزل.

فيما يتعلق بالمدرسة الطبية التى أنشئت فى ١٨٢٧ فإنه لا يوجد نظام آخر للتجنيد المبدئى سوى الإجبار. فالطلبة يؤخذون من المدارس القرآنية ويدخلون مبنى ملحقا بالمستشفى الرئيسى فى الإسكندرية[٢١]. وبالنسبة لمدرسة القابلات التى أنشئت فى ١٨٣٢ فقد رأى البعض ضرورة اللجوء لشراء عشر إماء أدخلن تحت حراسة العبيد. ولكن استخدام اللغة العربية كلغة دراسة، وتعديل المواد التى تدرس من الناحية الشكلية بحثا عن لقاء مع ثقافة وديانة الدارسين، والمساندة الفعلية من جانب علماء الدين جعل هذه المؤسسات تبدأ ببطء فى كسب موافقة جانب من

الرأى العام، وبالتالى أيضا الانضمام الطوعى[٢٣]. وقد مثل هـذا أول وأهـم رأب للصدع الأولى.

وفى المرحلة التالية، أدى تنقل القابلات المصريات والمسئولين عن الصحة فى البلاد[٢٤]، إلى تقريب السكان ببطء من إجراءات الصحة والوقاية المفروضة. وبالفعل قام هؤلاء المهنيون الجدد بنشاط حقيقى فى التجديد. وقد حاولوا العمل: أولا، فى التقريب بين السكان والسلطات الصحية بتخطى ممثل الطب التقليدى[٢٥]، وثانيا، التصالح بين التقاليد الطبية التى ترجع للعصور الوسطى ويعود أصلها إلى أبقراط وجالينوس والطب الغربى الحديث[٢٦]، وهو شرخ آخر التأم مع الزمن، على الرغم من أنه لم يلتئم تماما[٢٧].

وفى هذه الفترة أصبح عمل علماء الدين أيضا أساسيا بالنظر بصفة خاصة للحجر الصحى ومراكز الحجر الصحى والتطعيم وتشريح الجثث. وقد وصلت فتاواهم التى انطلقت من التقاليد والأحداث إلى تبرير تطبيق تلك الإجراءات، وتلم الممارسات التى لم يؤخذ بها حتى ذلك الحين. وهكذا قاموا هم أيضا ببطء برأب ذلك الصدع الذى نشأ بين قمة وقاعدة المجتمع فى مصر كما فى باقى المغرب[٢٨].

ولكن مفهوم البطء يجب أن يعاد النظر فيه بالتأكيد. ومثال ممارسة التشريح، بالنسبة للدراسات التشريحية، علاوة على تحديد أسباب الوفاة، يمكن أن يعتبر نموذجا يحتذى. وبالفعل، منذ هجوم أحد الطلبة على كلوت بك أثناء تشريح جثة فى ١٨٢٩[٢٩]، وحتى تطبيع الممارسة نفسها، فى السنوات التالية، هناك فجوة قصيرة للغاية إذا ما قورنت بالمعاناة الطويلة التى عاشتها أوروبا[٣٠]، وقد مر وقت قصير بالمثل، من رفض التطعيم، الذى أدخل فى العشرينيات وأصبح إجباريا فى ١٨٣٧[٣١]، إلى الدفاع عنه من جانب علماء الدين[٣٢]. ولكن كان لا بد أن تمر عدة عقود حتى يبدأ التطعيم من نوع تطعيم جينر فى الإحلال محل التطعيم التقليدى بين الشعب. وهذا يحدث بصفة خاصة بعد الأربعينيات، عندما تلاحظ النتائج الأولى، وبصفة خاصة عندما يخف الخوف من أن التطعيم علامة على التجنيد العسكرى

القادم[٣٣]. وفى الوقت نفسه فى أوروبا ــ حيث لم يكن يوجد أى شكل تقليدى من التطعيم قبل ليدى مونتاج وجينر ــ عرقل الأساقفة والرعية، بصورة عنيفة غالبا، نشر هذا الاكتشاف الجديد.

وبالنسبة لحالات الحجر الصحى أيضا لم يتأخر علماء الدين كثيرا فى صياغة التبرير[٣٤]. ولكن تنفيذه لقى بصعوبة موافقة المسافرين والتجار فى العالم العربى. ولكن الحجر الصحى فى أوروبا كان موضع احتجاجات ومحاولات للمراوغة لفترات أطول: من العصور الوسطى، عندما بدأت، وحتى العصر الحديث، عندما يحاول البعض إسقاطه باسم التجارة الحرة[٣٥]. وبالتالى فإننا نشهد إسراعا جوهريا لبعض العمليات، وهذا من أهم سمات أى شكل من أشكال التحديث المستورد[٣٦]، وبالتالى فإن مفهوم بطء التحولات غالبا ما يكون مجرد وجهة نظر عند الرجل الغربى. وهى وجهة نظر من استوعب بالفعل التغييرات وأصبح لا يصبر على الوقت اللازم للآخرين.

الاستيراد الصعب

إن استيراد معارف وتقنيات من أوروبا ينطوى على نتائج أخرى جانبية. والأمر يتعلق عمليا هنا بنقل وتعديل نموذج خارجى ــ وهو النموذج الفرنسى فى الحالة المصرية السابقة للاستعمار ــ فى الصحة العامة والتدريس الطبى، مع تصوره الداخلى للواقع الصحى الخارجى بمزاياه وتناقضاته الداخلية. وهذا يعنى على سبيل المثال أن النظام المطبق فى التعليم الطبى والممارسة الصحية فى مصر تبدو من النوع "الدفاعى" أساسا، أى القائم على مفهوم (أو مفهوم مسبق) بأن الأمراض السائدة فى مصر هى من النوع الوبائى (الطاعون، الكوليرا، التيفود والجدرى... إلخ). وهذه هى الرؤية التى ولدت فى أوروبا نتيجة للخوف من الغزوات الوبائية القادمة من الشرق، وتهدف لخلق حصون بعيدة ضد تلك الغزوات. وكل هذا بالطبع على حساب الطب الوقائى والطب الأساسى.

وهناك نتيجة أخرى مباشرة لهذا النظام فى التعليم الطبى ـ الصحى هى استيراد مختلف المواقف العلمية الغربية المتناقضة بشأن القضايا التى لم تحل بعد. ففى حالة الأوبئة على سبيل المثال، نشهد فى أوروبا نقاشا محتدما بين أنصار نظرية العدوى والمناوئين لها[٣٧]. فالفريق الأول يؤيد الحجر الصحى والمحاجر الصحية كإجراء للحماية ضد الأشخاص والبضائع التى يمكن أن تنقل "العدوى" سيئة السمعة. ولكن المعارضين مقتنعون بعدم جدوى هذه الإجراءات. فهذا الفريق الأخير يرى أن الأوبئة سينقلها الهواء أو ستتولد فى المكان من مفارقات مناخية أو صحية أو كونية ـ زلزالية[٣٨]. والانحياز لهذ التيار أو ذاك ينطوى على انعكاسات عميقة على الصعيد الدولى، وخاصة فى هذه الفترة التاريخية التى يرتبط فيها اختصار الزمان والمكان الناتج عن الملاحة التجارية، التى أشرت إليها من قبل، بنجاح السياسات التى تدعو لتحرير التبادل التجارى. وكل مانع أو إبطاء فى الأنشطة التجارية ينظر إليه فى العالم الأنجلوسكسونى بصفة خاصة، كهجوم على الحرية[٣٩]. ومن المفارقات أنه فى حين بدأت أوروبا تعيد النظر فى نظام الحجر الصحى لديها فإن هذا النظام ينشأ ويقوى فى كل دول إفريقيا الشمالية والإمبراطورية العثمانية[٤٠].

وعندما انتقل النقاش إلى داخل بلاده، لعب محمد على دور الوسيط وهو من أنصار نظرية انتقال العدوى المقتنعين. ووجد أمامه المجلس العام للصحة من ناحية، ومقره القاهرة، محاربا لنظرية العدوى[٤١]، ومن الناحية الأخرى، الهيئة الصحية فى الإسكندرية المقسمة فى داخلها بين إنجلترا "البعيدة" المناوئة لنظرية العدوى والدول الأخرى المرتبطة بنظرية العدوى. وأمر عندئذ باحترام إجراءات الحجر الصحى والعزل الأرضى دون أن يهمل مع ذلك الإجراءات الصحية التى ينصح بها المسئولون عن الصحة ومكافحة العدوى.

وعلى الرغم من هذا فإن مواقفه المستمرة أغضبت كل الممثلين الدبلوماسيين الأوروبيين الذين كانوا يهدفون فى النهاية لفرض وصياتهم على "النظام الدفاعى" المصرى وكذلك على نظام كل البحر المتوسط الإسلامى.

وبالتالى فإن موقف محمد على يبدو غالبا معزولا عن السياق الداخلى، وكذلك عن السياق الدولى. وتصل ذروة هذه العزلة فى مناسبة تأميم الهيئة الصحية فى الإسكندرية، الذى تم فى ١٨٣٩. وهى حالة فريدة من نوعها فى إفريقيا الشمالية.

الحفز الطبيعى

فى لعبة القوى المتعارضة والمعقدة هذه، سواء على الصعيد الداخلى أو الدولى، سواء أكانت ذات طابع بشرى أم طبيعى، هناك دور بارز يلعبه بالتأكيد مرض وبائى رهيب: الكوليرا. ومن المفارقات أن اجتياحاته المتكررة فى البحر المتوسط بداية العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر أصبحت عناصر دافعة لعمل محمد على، وخليفته والحكام الآخرين فى إفريقيا الشمالية. وبالفعل أثار التوحيد الميكروبى لكل حوض البحر المتوسط، والخوف المشترك من موت رهيب سلسلة من ردود الفعل المتسلسلة، مليئة بالانعكاسات الداخلية والخارجية. وقد استعاد المناهضون لنظرية العدوى - الذين كانوا فى أزمة بين القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر- مصداقيتهم فى الغرب كما فى الشرق التركى بصفة خاصة، بحثا عن أشكال من الحماية الشخصية بصورة أوضح دائما أو ساندوا علانية الإجراءات الصحية المفروضة. وبهذه الطريقة، يصبح عمل الحكام دائما أقل عزلة فى كل موجة من الكوليرا (١٨٣١ و١٨٥٦ و١٨٦٥...) وبالتالى يمكن أن نؤكد أن ردود الفعل المجدد الذى نتج عن هذا المرض الرهيب كان على جانب من الأهمية حقا. وقد انطوى بالفعل على تغيير فى الاستسلام الشعبى التقليدى، كان بالتأكيد أكثر حسما من التغيير الذى أحدثه عمل الإنسان[٤٢].

عملية التحديث

إذا أردنا أن نحيط بكل ما أشرنا إليه حتى الآن فى رؤية شاملة فإننا يمكن

أن نؤكد أنه على الرغم من وجود العديد من القوى المتعارضة، فإن مخطط إعادة تنظيم التدريس الطبى والصحى القائم على استيراد المعارف والتقنيات من أوروبا حقق نتائج قيمة ودائمة. وفى منتصف القرن التاسع عشر أمكن لمصر فقط، من بين الدول التى كانت جزءا من الإمبراطورية العثمانية، أن تفخر بخدمة صحية من النوع القومى(٤٣)، بأطباء محليين وهيئات صحية عاملة وبيروقراطية صحية عاملة(٤٤). خدمة صحية من النوع الحديث تنتج ثمارها الملموسة فى النصف الثانى من القرن، لتخلق أسس نهضة سكانية فى البلاد(٤٥). ولم تكن العملية التى وصلنا من خلالها لهذه النتيجة عملية تسير فى خط مستقيم. فقد تأثرت بسلسلة من القيود الخارجية والداخلية التى رسمت نوعا من التحديث لا يمكن إرجاعه لتصور تطورى(٤٦). وتظهر العملية كسلسلة من الهزات الموجهة للاستخدامات الراسخة والعلاقات بين الأشخاص والرؤية التقليدية للمرض، وبالتالى للحياة والموت.

ويبدو التحديث الطبى ـ الصحى، علاوة على ذلك، كعملية لا يمكن التفاوض عليها؛ فالإجبار والاستبداد وعسكرة الدفاع الصحى وممارسة التطعيم تبدو بالفعل الأدوات المناسبة لوضع بداية لهذا الطريق المصرى للصحة، ولهذا التحديث على مراحل قهرية كما أراد محمد على. سلسلة من الصدمات يتم بعد ذلك علاجها ببطء من جانب كل الأطراف المشتركة، شاءوا ذلك أم أبوا، فى المرحلة الأولى من العملية. تحديث يتحقق أيضا فى حكومة تونس وطرابلس والمغرب، ولكن بمستوى أقل بالتأكيد.

هــوامش

(١) مشروع البحث للدكتوراه فى

"Studi su Vicino Oriente e Maghreb dall'avrento dell'Islam all'età contemporanea": Sanità, popolazione e società nella Tunisia husaynita (XVIII-XX secolo)

المعهد الجامعى الشرقى فى نابولى، الدورة السابقة، بتنسيق من البروفيسير چوڤانى أومان وإدارة البروفيسير ڤينتشنتو ستريكا. وقد أعقبت عمل البحث سلسلة من المنشوران من بينها:

سبيتسيالى سلفاتورى،

Altre la peste. Sanità, popolazione e società in Tunisia e nel Maghreb (XVIII-XX secolo)

، كوزنتا، بيليجرينى، ١٩٩٧، ص ٥٧٦.

(٢) مشروع بحث بعد دكتوراه فى

"Storia della dottrine politiche e delle relazioni internazionali": "Colonialismo e sanità nell'Africa settentrionale"

جامعة الدراسات فى فلورنسا، كلية العلوم السياسية، قسم الدراسات الخاصة بالدولة، بتنسيق من البروفيسير إنيو دى نولفو وإدارة البروفيسيرة مارتا بتريتشولى.

(٣) أذكر فقط بعض أبرز المؤلفين: بيرابين چان نويل،

Les hommes et la peste en France et dans les pays européens et méditerranees

، كتابان، الكتاب الأول، La peste dans l'histoire، الكتاب الثانى Les hommes et la peste ، باريس- لا هى: موتون، ١٩٧٥؛ ماكنيل ويليام هاردى؛ La peste nella storia، تورينو، إيناودى، ١٩٨١ (الطبقة الأولى Plagues and Peoples، جاردن سيتى، نيويورك، مطبعة انكور،١٩٧٦) لوڤين، بيترز،١٩٨٥، ص٦٥٩؛ بانزاك

دانييل، La peste dans l'Empire Ottoman (1750-1850)، لوفين، بيترز، ١٩٨٥، ص ٦٥٩؛ بانزاك دانييل، Quarantaines et lazarets. L'Europe et la peste d'Orient (XVIIe-Xxe siècle)، إيزان بروفنس، إديسودو١٩٨٦،ص ص٢١٩؛ رستيفو چوزيبى: Peste al confine. L'epidemia di Messina del 1743، باليرمو، EPOS، ١٩٨٤، ص ص ٢٢٣؛ رستيفو چوزيبى Le ultime piaghe. Le pesti nel Mediterraneo (1720-1820)، ميلانو، سيلينى، ١٩٩٤، ص ٣١٦

(٤) علاوة على أعمال دانييل بانزاك، اقتصر على ذكر بعض الأعمال مثل: La peste dans l'Empire Ottoman المذكور من قبل، وسلسلة غنية من المقالات التى أعيد نشر بعضها فى: Population et santé dans l'Empire Ottoman (XVIIIe-Xxe siècles)

اسطنبول، طبعات إيزيس، ١٩٩٦، ص ٢١٣؛ شيفولو سيلفيا،

Médecine et médecins en Egypte. Construction d'une identité professionalle et projet médicale

، باريس، لارماتان، ١٩٩٧، ص ٣٣٤. لاڤيرن كونكه،

Lives at Risk. Public Health in Nineteenth-Century-Egypt

، بيركلى- لوس أنجلوس- أكسفورد، مطبعة جامعة كاليفورنيا،١٩٩٠، ص ٢٢٣؛ چاچيو سيرچ،

La médicalisation de l'Egypte au XIXe siécle (1798-1918)

باريس، كورليه، ١٩٨٦، ص ٢٤٣ح كالاجار نانسى إليزابيث،

Egypt's other Wars. Epidemics and the Politics of Public Health

، سيراكوز (نيويورك)، مطبعة جامعة سيراكوز،١٩٩٠، ص ١٣، ٢٣٤.

(٥) وسط النقاش الحالى جدا حول عمليات التحديث وبالتالى حول العلاقة بين التقليد والتحديث أو بين الاستمرارية والتغيير فى أفريقيا الشمالية، هناك مقالان لـــ مايكل بريت:

"Modernisation in 19th Century North Africa", The Maghreb Review

العدد السابع، ١-٢، ١٩٨٢، ص ١٦-٢٢ و

"Continuity and Change: Egypt and North Africa in the Nineteenth Century", Journal of Africa History

،٢٧،١٩٦٨، ص ١٤٩-١٦٢. وفيما يتعلق بمصر قبل وبعد عمل محمد على، اقرأ: رايموند أندريه

"Ali Bey le Grand et le premier éveil de l'Afrique moderne"

فى AA. VV., Les Africains، باريس، طبعة ج.أ.، ١٩٧٧، العدد الثانى، ص ١٣-٤٢ و كينى لورن،

"The Khedive Ismail's Dream of Civilization and Progress", The Muslim World

١٩٦٥، ٥٥، ٢، ص ١٤٢-١٥٥ و٥٥، ٣، ص ٢١١-٢٢١؛ عبد الملك أ.

"The Renaissance of Egypt, 1805-1881

، ص ٣٢٤- ٣٥٥ فى AA. VV. General History of Africa المجلد السادس،

Africa in the Nineteenth Century until the 1880's

دار نشر آدى أجاى ج.ف. مطبعة جامعة كاليفورنيا- هاينمان إنترناشيونال- يونسكو، ١٩٨٩.

(٦) بانزاك دانييل، ..La peste، المذكور، ص ١٠٥-١٣٣

(٧) حول هذا الموضوع، اقرأ: داروين ل. بالمر،

"La peste e altre infezioni da Yersina"

فى AA. VV., Harrisson. Principi di medicina interna

، الطبعة ١٢، نيويورك، شركة ماك جرو هيل، ١٩٩٢، المجلد الأول، ص ٨٥٣-٨٥٦؛ سبيتسيالى سلفاتورى، ..Oltre la peste، المذكور، الجزء الأول، الفصل الأول:

Epidemie e medicina. La sguardo dell'uomo di oggi.

(٨) بانزاك يصف الإسكندرية أثناء القرن الثامن عشر بأنها "مركز توزيع كبير لاستقبال وتوزيع الطاعون"؛ بانزاك دانييل،

Alexandrie: Peste et croissance urbaine (XVIIe-XIXe siècles)"

فى AA. VV. Alexandrie entre deux mondes، ROMM، ٦٦، ١٩٨٧، ص ٤٨

(٩) فى حكايات الرحالة الأوروبيين، وفى تقارير القناصلة، وفى العديد من المناقشات الطبية والعديد من الشهادات العربية، مثل الوقائع التونسية للمقداحى، يشار إلى الشرق ومصر بوضوح لمصدريين للأوبئة.

(١٠) كما اتضح على نطاق واسع فى بانزاك دانييل،

"Alexandrie: Peste et croissance urbaine.."

، المذكور، و

"Alexandrie: évolution d'une ville cosmopolite au XIXe siècle", Annales Islamologiques

، العدد ١٤، ١٩٧٨، ص ١٩٥-٢١٦.

(١١) من بين آخر المؤلفين الذين توقفوا عند هذا الموضوع أنظر:

مارتينيللى ألبرتو، La modernizzazione، بارى، لاترتسا، ١٩٩٨ ص ١٢، ١١٧.

(١٢) بانزاك دانييل،

"Les bases démographiques de l'affrontement turco-égyptien de 1830-1840

أعمال النقاش

Economie et Société dans l'Empire Ottoman (fin du XVIIIe – début du Xxe siècle)

، ١٩٩٤، ص ٢١٩-٢٣٤

(١٣) مدرسة الطب التى ولد فيها المهنيون الجدد فى مجال الصحة نشأت فى ١٨٢٧. والدورات الدراسية مدتها خمس سنوات: سنه تمهيدية وأربع سنوات من الطب بالفعل طبقا لمنهج الدراسة الموجود فى فرنسا (فى الأساس علم التشريح والأمراض والطب العام). والمدرسون إيطاليون وفرنسيون ويتحدثون بلغتهم التت يقوم بترجمتها فوريا مترجم. ولتسهيل التعلم تتخذ طريقة لانكستر فى التقسيم لمجموعات والإعادة المستمرة. راجع لاڤيرن كونكه، المرجع المذكور، ص ٣٣- ٣٥.

(١٤) مدرسة "الحكيمات"، الطبيبات، فى مقابل "الدايات"، الدايات الشعبية، نشأت فى ١٨٣٢. والدورة الدراسية تنص بداية على عامين من دراسة اللغة العربية و أربع سنوات من الطب. وتدرس بصفة خاصة أمراض النساء، والصحة وتقنيات علاج الجروح، وممارسة التطعيمات إلخ. لاڤيرن كونكه، المرجع المذكور، ص ١٢٢-١٣٣؛ بانزاك دانييل،

"Médicine révolutionaire et révolution de la médicine dans l'Egypte de Mohammed Ali: Le Dr. Clot-bey

أعمال النقاش Les Arabes, les Turcs et la révolution française, ROMM

٥٢، -٥٣، ١٩٨٩، ص ١٠٥-١٠٦.

(١٥) على سبيل المثال: المستشفى العسكرى العام والمستشفى البحرى فى الإسكندرية،

المستشفيات المدنية فى القاهرة ورشيد ودمياط والسويس، وشبكة المستشفيات الصغيرة الريفية والمحاجر الصحية فى الإسكندرية ودمياط ورشيد والقصير وشبرا.

(١٦) على سبيل المثال، المجلس العام للصحة، الذى أنشأ بناء على طلب من كلوت بك فى السنوات الأولى من وصوله إلى القاهرة، والهيئة الصحية فى الإسكندرية، التى نشأت فى ١٨٣١ وهى مكونة من القناصل الأوروبيين. خمسة منهم يؤلفون اللجنة القنصلية للصحة. ADBR. 200E/467، خطابات القنصل الفرنسى فى الإسكندرية للمسئولين عن الصحة فى مرسيليا.

(١٧) التطعيم أدخل منذ عام ١٨١٩ برغبة من محمد على. وبداية من ١٨٢٧، يقوم كلوت بك بتطعيم الموظفين المدنيين والعسكريين وعائلاتهم؛ ثم المواليد الجدد فى المدن الكبرى وبداية من ١٨٣٠، المواليد فى الريف. وتقدم تفسيرا لعلماء الدين للحصول على مساندتهم ويعبأ الحلاقون. وفى النهاية يصبح التطعيم إجباريا لكل السكان من ١٨٤٦، بانزاك دانييل، "Médicine révolutionaire.." المذكور، ص ١٠٥

(١٨) حول البرنامج العام للإصلاحات الذى بدأه الباى أحمد فى حكم تونس أقرأ كارل ليون،

The Tunisia of Ahmed Bey (1837-1855)

، برنستون، مطبعة جامعة برنستون، ١٩٧٤، ص ٤٠٩. بالنسبة للجوانب الصحية: جالاجير نانسى إليزابيث،

Medicine and Power in Tunisia (1780-1900)

، كامبيردج، مطبعة جامعة كامبيرج، ١٩٨٣، ص ص ١٢-٥ وسبيتسيالى سلڤاتورى، ..Olter la peste، المذكور.

وحول الغرب: رينو لوسيان

Etudes sur l'hygiène et la Médicine au Maroc, suivie d'une notice sur la climatologie des principales villes de l'Empire

، الجزائر، مطبعة س. ليون، ١٩٠٢، ص ٢٠٤؛ موسوى دريس ورو ديسبس ميشيل (تحت إدارة)،

Histoire de la médicine au Maroc et dans les pays Arabes et musulmans

، الدار البيضاء، مطبعة ماچه الجريدة، ١٩٩٥، ص ١١٢؛ أخميس مصطفى،

Médicine sans médecins ou, médecine traditionelle médecine de toujours

الدار البيضاء، بينيميد، ١٩٨٣، ص ٢٩٤.

(١٩) الإقليم خاضع للنظام القضائى للمجلس الصحى فى القسطنطينية الذى أنشىء فى

١٨٣٨. وقد وضعت اللائحة الصحية للإمبراطورية فى ١٨٣٩. وحول صحة هذا الإقليم قبل الغزو الإيطالى لا توجد بعد خلاصة ذات طابع علمى.

(٢٠) من بين الأعمال العديدة جدا عن الصحة فى الجزائر، نشير إلى : رينو لوسيان، سولبيه هنرى، بيكار بول،

Hygiène et pathologie nord-africaines. Assistance médicale

فى Collection centenaire de l'Algérie، كتابان، باريس، ماسون وسى، ١٩٣٢، الكتاب الأول، ص ٥٥٠، الكتاب الثانى، ص ٦١٣؛ تورين إيفون،

Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale: Ecoles, médicines, religion (1830-1880)

باريس، ف. ماسبيرو، ١٩٧١.

(٢١) بالنسبة لنظام التعليم أنظر مولان آن- مارى،

"L'enseignement médical de Clot-Bey: l'esprit et la lettre de la modernité"

،ص ١٣- ١٦، فى

AA. VV. Médecine et modernité en terres d'Islam

إعداد مولان آن- مارى وكوتوبى لورنس، باريس، CNRS، ١٩٩٩ (المكتوب على الآلة الكاتبة فى طريقه للنشر وتفضلت المؤلفه بالإبلاغ عنه)؛ لافيرن كونكه، المرجع المذكور، ص ص ٣٣- ٤٨.

(٢٢) مولان ين- مارى، "..L'enseignement médical" ، المذكور، ص١٧: كانت الأعمال المكتوبة بالعربية ترسم بناء على العنوان الفرنسى وكانت تقترح عناوين فى جزئين مع البحث عن القافية والتناغم الصوتى لتسهيل الحفظ وخلق تأثير جمالى. وكان هذا يتضمن مقدمة كانت بمثابة دعوة لله مع تذكير بأنه سيد الكون، ومتضمنة أيضا تلميحات لدور الدولة المنعمة".

(٢٣) هذا يتحقق فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، بعد حكم محمد على.

(٢٤) هؤلاء مسئولون من الصحة وليسوا أطباء حيث أن المدرسة الطبية فى القاهرة لا تصدر هذه الشهادة. وبعض الطلبة يرسلون إلى فرنسا لاستكمال الدراسة والحصول على الدكتوراه ثم العودة إلى مصر كأطباء.

(٢٥) المسئولون من الصحة والأطباء الذين يتأهلون فى مصر يحاولون الاقتراب من الناس بتجاوز الأطباء العشوائيين والتشكيك فيهم. بالنسبة لنشاط التجديد الذى قام به أهم الأطباء أنظر شيفولو سيلفيا، المرجع المذكور، ص ص ١٢٣-١٢٦. والكفاح ضد

الطب التقليدى والممارسات الصحية التقليدية هو كفاح لم يتم الانتصار فيه بصورة نهائية. بالنسبة لعالم الفلاح فى مواجهة الطب الجديد أنظر شيفولو سيلڤيا، المرجع المذكور، ص ١٥٧ والصفحات التالية.

(٢٦) بالنسبة للحديث عن العلاقة مع الماضى الطبى فى العصور الوسطى أنظر شيفولو سيلفيا، المرجع المذكور، ص ١٣١ والصفحات التالية، الفقرة التى عنوانها

“Restitution d’une généalogie”

(٢٧) ريسبلر هاييم ف.

Islamic Medical Ethics in the Twentieth Century

، لايدن، بريل، ١٩٩٣، ص ١٥٢؛ شيفولو سيلڤيا، المرجع المذكور.

(٢٨) مثال مصر سيتم استغلاله فيما بعد فى بلدان أخرى. أقرأ على سبيل المثال: دينجويزلى بشير، La variole en Tunisie، بوردو، ى. كاردونيه، ١٨٩٧، ص ٦٣.

(٢٩) بانزاك دانييل، "Médicine révolutionaire.." المذكور، ص ص ١٠٢- ١٠٣. كلوت بك يلجأ لمساندة بعض علماء الدين المصلحية؛ مولان آن- مارى، "L’enseignement médical.." المذكور، ص ٣، شيفولو سيلڤيا، المرجع المذكور، ص ١١٦.

(٣٠) يجب أن نوضح أن الجثث تقدم فى هذه الفترة على أنها جثث سود وأوروبيين أو يهود. بانزاك دانييل، "Médicine révolutionaire.." المذكور، ص ٩٧.

(٣١) مولان آن- مارى، "L’enseignement médical.." المذكور، ص ٩.

(٣٢) هذا يحدث فى مصر فى الثلاثينيات بناء على دعوة من كلوت بك والملك (لاڤيرن كونكه، المرجع المذكور، ص ١١٥)؛ وفى تونس على العكس من ذلك نحو نهاية القرن التاسع عشر بناء على دعوة الدكتور دينجويزلى والسلطات الصحية للمحمية الفرنسية؛ راجع دينجويزلى بشير، المرجع المذكور.

(٣٣) كان البعض يخشى من أن تكون العلامة التى يتركها التطعيم على الذراع علامة تمييز للتجنيد الإجبارى بعد ذلك، مثل الدفة المرسومة كوشم على ذراع البحارة لتجنب التهرب من الخدمة العسكرية. وقد سمى أيضا "وشم الجدرى" لتشابهه مع الوشم؛ لاڤيرن كونكه، المرجع المذكور، ص ١١٦. وقد بدأت المخاوف تتبدد فى اللحظة التى أجبر فيها محمد على حل الجيش فى ١٨٤١. ولكن هذا لا يعنى أن كل السكان قبلوا التطعيم خلال القرن التاسع عشر. وقد تعرض التطعيم علاوة على ذلك لمنافسة قوية من التلقيح التقليدى. "وربما ظهرت فى نفوس المصريين، كما حدث عند المسلمين الجزائريين، مقارنة بين هذا الجدرى الإلهى، كهبة إلهية لمرض حميد بصورة تلقائية ويمكن تشبيهه بالبركة وجدرى الحكومة المتمثل فى عدد المضايقات الإدارية

والإجراءات الاستبدادية التى تؤدى إلى عدم التفاهم، والقلق والثورة". مولان آن- مارى، "..L'enseignement médical" المذكور، ص ١٠.

(٣٤) وقد حث محمد على على هذا مباشرة وحصل عليه. وقد انتشرت مساندة علماء الدين فى هذه القضية الحساسة فى العديد من الأعمال باللغة العربية التى ترجمت بعد ذلك إلى الفرنسية. على سبيل المثال: كمال محمد بن مصطفى بل الخوجة

La médecine et le quarantaines dans leurs rapports avec la loi musulmane (Tanouir Et Adlen) ، (ترجمة فرنسية)، الجزائر، المطبعة الشرقية، ١٨٩٦، ص ٣٦

(٣٥) حول هذه الموضوعات توجد قائمة مراجع هائلة للغاية. راجع أعمال وقوائم مراجع جون- N. بيرابين، دانييل بانزاك، جون- شارل سورنيا، چاك روفييه، چوزيبى رستيفو، باولو بريتو، فرانكو ديللا بيروتا، إلخ.

(٣٦) مارتينيللى ألبرتو، المرجع المذكور، ص ١٢-١٣، ٩٣، ١٠٩.

(٣٧) بانزاك دانييل،

"Pratiques ancienennes et maladies nouvelles: la difficile adaptation de la politique sanitaire au XIXe siècle", Bulletin et Mémoires de la Société a'Anthropologie de Paris,

عدد خاص، العدد العاشر، ١-٢، ١٩٩٨، ص ٥٣-٦٦.

(٣٨) يرى المناهضون لنظرية العدوى أن أى وباء يمكن ينتج على سبيل المثال من تغييرات فى درجة الحرارة أو الرطوبة فى مناطق مليئة بالمستنقعات أو غير صحية فى تزامن أيضا مع ثورات بركانية أو زلزال أو مرور مذنبات. ويمكن للرياح أن تنقل فى أعقاب ذلك "البخار العفن" الناتج إلى مناطق بعيدة للغاية.

(٣٩) مع الملاحة بالبخار أصبحت الرحلة من الإسكندرية لإلى مرسيليا تستغرق الآن ستة أيام بعد أن كانت تستغرق قبل ذلك من ١٥ إلى ٣٠ يوما. ولا تتجاوز أى رحلة فى البحر المتوسط الأسبوع. بانزاك دانييل،

Quarantaines et lazarets. L'Europe et la peste d'Orient (XVIIe-Xxe siècle)

، آيز أن بروڤانس، إديسود، ١٩٨٦، ص ١٠٩. وهذا يؤدى إلى نهاية الحجر الصحى الطبيعى الذى كان يتم فى السفن.

(٤٠) شيفولو سيلفيا، المرجع المذكور، ص ٢٥

(٤١) يجب أن نوضح أن التعليم الذى أراده كلوت بك فى مصر يقوم على وحدة المذهب. أى لتجنب الصدام فى الرأى والفوضى فى التفسير، كان يدرس للأطباء القادمين فقط

مذهب علم وظائف الأعضاء عند بروسيه. بانزاك دانييل، "Médicine révolutionaire.." المذكور ص ١٠٢؛ مولان آن-مارى، "L'enseignement médical.." المذكور، ص ١٦. ولهذا فإن المجلس الصحى العام فى القاهرة، المكون من أطباء مصريين من المناهضين لنظرية العدوى فى حين أن الهيئة الصحية فى الإسكندرية، المؤلفة من أوروبيين، منقسمة بين أنصار نظرية العدوى والمناهضين لها.

(٤٢) سبيتسيالى سلفاتورى، ...Oltre la peste، المذكور. أنظر الجزء الثانى بشأن العلاقات الاجتماعية.

(٤٣) بانزاك دانييل، ..La peste، المذكور، ص ٤٧٥

(٤٤) أحد الجوانب الأساسية فى عمليات التحديث، والذى تحقق أيضا فى الحالة المصرية أثناء حكم محمد على، هو بالتأكيد السيطرة على الكيان العددى وتكوين السكان من خلال إجراء التعداد وإصدار نشرات عن الوفيات والمواليد والتطعيم. وهى إجراءات تجرى فى مصر قبل المغرب. أنظر ADBR. 200 E/467 خطابات السفراء والقناصل والممثلين الفرنسيين والإدارات الصحية الخارجية: القرن ١٧-١٩. مصر ١٦٩٧-١٨٥٠. ويتضمن الصندوق الأخبار والبيانات المتعلقة بأوبئة الطاعون والكوليرا المسجلة من ١٨٣١ فصاعدا.

(٤٥) أسس الزيادة السكانية تتكون فى الأربعينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر فى أعقاب اختفاء الطاعون ونجاح انتشار التطعيم. بانزاك دانييل، Endémies, épidémies et population en Egypte au XIXe siècle فى AA. VV. L'Egypte au XIXe siècle، باريس، طبعات الـ C.N.R.S.، ١٩٨٢، ص ١٠٠. أنظر علاوة على ذلك لنفس المؤلف: ..Les bases démographiques المذكور؛ The Population of Egypt in the Nineteenth Century, Asian and African Studies، ٢١، ١٩٨٧، ص ١١-٣٢؛ La transition démographique en Egypte: Une transition en palier (1800-1986) أعمال الحوار La transition démographique dans les pays meditérranéens, U جامعة نيس، Cahiers de la Méditerranée العدد الثانى، ٤٠، يونيو ١٩٨٠، ص ٦٥- ٩٤؛ L'ancien régime démographique au Machrek, XVIIIe-XIXe siècles أعمال الحوار La démographique historique en Tunisie et dans le monde Arabe، (تونس، ١٥-١٦ نوفمبر- ١٩٩١)، تونس، إنتاج تشيريس، ١٩٩٣، ص ٨٣- ٩٤. وهذه الزيادة هى من العوامل الأساسية للمرحلة الأولى من عمليات التحديث. والمرحلة الثانية يمكن أن يشار إليها فى ممارسات احتواء الزيادة السكانية للمجتمعات النامية، والمتحضر والهجرة إلخ. مارتينيللى ألبرتو، المرجع المذكور، ص ١٢

(٤٦) التصور التطورى للنظرية الكلاسيكية فى التحديث "تعتبر التحديث عملية تسير فى خط واحد ولا رجعة فيه، يتجه لعبور مراحل محددة سلفا، عبرتها المجتمعات الحديثة. وبهذه الطريقة تهمل المقاطعات (أيزنشتادت، ١٩٩٦) وحالات التوقف (ريجز، ١٩٦٤)، والطابع غير المتساوى، وغير المستمر والمضطرب بشدة فى تغير المجتمعات النامية (سميلسر، ١٩٦٨٩، والانحدار السياسى (هنتينجتون، ١٩٦٥)". مارتينيللى ألبرتو، المرجع المذكور، ص ٧٧. أنظر أيضا كورى رالف م.، Neo-Modernization Theory and its Search for Enemies: the Role of the Arabs and Islam, Islamic Studies ، ١٩٩٦، المجلد ٣٥، ٤، ص ٤٤٩- ٤٥٨. چيفرى س. ألكساندر، Modern, Anti, Post & Neo, New Left Review، ٢١٠، مارس- أبريل، ١٩٩٥، ص ٦٣- ١٠١

لمحات عن أصول القضية المصرية

برونو أليبتى

١- يمكن إرجاع أصول القضية المصرية لحملة نابليون. فكان بالفعل فى أعقاب إنزال القوات الفرنسية فى وادى النيل (يوليو ١٧٩٨) أن أصبحت الأرض المصرية ميدانا للمنافسات الإنجليزية - الفرنسية وانتقلت فجأة إلى بؤرة الاهتمام الأوروبى.

وفيما بعد، مع شق قناة السويس (١٨٦٩) التى زادت بصورة حاسمة من الأهمية السياسية لمصر، أصبح الاهتمام الأوروبى بهذا البلد أكثر وضوحا. وقد وجد الصراع الدبلوماسى الفرنسى - البريطانى للسيطرة السياسية على وادى النيل فى البداية حله المؤقت فى تسوية، بفضل تكرين نظام مشترك للسيطرة عرف بفترة «السيادة المشتركة» (١٨٧٦ - ١٨٨٢) وانتهت بالتالى بالاحتلال العسكرى من جانب بريطانيا.

وكانت الحملة الفرنسية فى ١٧٩٨ قد صممت ونفذت لهدف محدد وهو إلحاق هزيمة منكرة بإنجلترا فى الشرق وفتح الطريق لغزو الممتلكات البريطانية فى الهند.

ولكن إنجلترا كانت يقظة. وكان شهر قد انقضى بالكاد على نزول الحملة الفرنسية فى مصر عندما نجح تشكيل بحرى كبير بقيادة الأدميرال نلسون فى العثور على كل الفرقة البحرية الفرنسية التى كانت قد نقلت الحملة ودمرتها بالكامل فى معركة حامية (أبو قير، أغسطس ١٧٩٨). ومنذ تلك اللحظة بدأ حصار بحرى حقيقى ضد القوات الفرنسية التى كانت تعمل فى مصر.

وفى ١١من سبتمبر التالى، أعلن سلطان القسطنطينية الحرب على فرنسا، وبعد ذلك بقليل أبرم تحالفا مع روسيا (٢٣ ديسمبر ١٧٩٨). وبموجب هذا التحالف، منح السلطان القيصر الحق فى مرور السفن الحربية عبر مضيقى البوسفور والدردنيل، وحصل فى مقابل ذلك على اثنتى عشرة سفينة حربية. وفى ٢يناير ١٧٩٩ أبرم اتفاق إنجليزى - عثمانى استكمل بعد ذلك بثلاثة أيام بمعاهدة سرية، تضمن بموجبه القوتان مناطق السيطرة الخاصة بكل منهما.

وطوال بقاء نابليون فى مصر واجهت الحملة الفرنسية بنجاح كل المصاعب على الرغم من أنها كانت مضغوطة من جميع الجوانب. ولكن حملة سوريا فى النصف الأول من ١٧٩٩، والتى انتهت بعدم اقتحام قلعة سان جوفانى داكرى، والخسائر الجسيمة التى تعرضت لها الحملة الفرنسية كانت بمثابة الغروب النهائى لأحلام نابليون فى التوسع فى الشرق. وبعد ذلك بسنوات طويلة، فى سانت هيلانة، ذكر نابليون الإنجليزى سيدنى سميث، الذى أحيا نظم الدفاع العثمانى لسان جوفانى داكرى، وكتب بمرارة مستسلما: هذا الرجل ضيع على حظى[١].

وبعد عودة نابليون إلى فرنسا، نجحت الحملة الفرنسية فى الاحتفاظ بمواقعها تحت قيادة الجنرال الماهر كليبر، على الرغم من أنها كانت منهكة وتعرضت لخسائر كبيرة. ولكن عندما اختفى هذا الأخير أيضا عن الساحة، بعد أن سقط تحت خنجر شاب مسلم، أصبح موقف القوات الفرنسية يائسا[٢].

ولم يواجه الجنرال مينو الذى انتقلت إليه قيادة القوات الفرنسية الباقية بالخبرة والقوة اللازمة حشد قوات عثمانية كبيرة فى سوريا والإنزال الناجح لما يقرب من عشرين جنديا بريطانيا فى شبه جزيرة أبو قير وثمانية آلاف هندى فى القصير على البحر الأحمر، فبدلا من تركيز كل القوات المتاحة ضد القوات التى أنزلت فى أبو قير، والتى كانت تمثل التهديد الأخطر، لكى يحاول طردها من جديد نحو البحر لكى يتجنب بعد ذلك التهديد القادم من القصير وسوريا، ارتكب مينو بالفعل، خطأ تفتيت قواته إلى حاميات صغيرة وسهل بهذه الطريقة إبادتها

التدريجية. وقد استطاعت القوات البريطانية والعثمانية تعزيز مواقعهـا وبالتـالى مواجهة القوات الفرنسية بانتصار بعد أن أنهكت وانهارت معنوياتها، فى معركـة كانوبو (أبو قير) (٢١مارس ١٨٠١).

وقد تدهورت الأحداث منذ تلك اللحظة. ففى يونيو من العام نفسه استسـلمت الحامية الفرنسية فى القاهرة، بقيادة الجنرال بليارد، وفى ٣٠ أغسطس التالى قبـل مينو بالاستسلام بعد أن حوصر فى حصون الإسكندرية بعد أن حصل من الإنجليز على وعد بإعادة قواته الفرنسية الباقية إلى الوطن.

وفى ٩ أكتوبر، وقعت فرنسا على الإجراءات التمهيدية للسلام مع السلطان. وقد ضمنت المعاهدة النهائية، الموقعة فى ٢٦ يونيو ١٨٠٢، سلامة الإمبراطورية العثمانية واعترفت بسيادة الباب العالى على مصر.

وبعد استسلام مينو، سحبت القوات البريطانية جزئيا مـن مصـر، بعـد أن استدعيت للاحتياج إليها للحرب فى مناطق أخرى. ولكن القوات الباقية، التى كـان يتعين عليها الرحيل عن مصر طبقا لسلام أمينز المبرم مع فرنسا فـى ٢٥مـارس ١٨٠٢، بعد ثلاثة أشهر من إبرام السلام نفسه، أعيدت إلى الوطن فقط فى مـارس ١٨٠٣، أو عشية قطع الهدنة الفرنسية – البريطانية، فـى أعقـاب الاحتجاجـات الشديدة لفرنسا.

وسرعان ما أصبحت مصر ساحة لمنافسات محلية جديدة بين أولئك الـذين كانوا يطمحون للسلطة، بعد أن تركت لتواجه مصيرها بعـد انسـحاب الجيـوش الأجنبية التى جاءت للاقتتال على أرضها. وقد تميـز العامـان ١٨٠٣، و١٨٠٤ بصراعات عنيفة بين المماليك، وقوات السلطان والعناصر الألبانية التـى أرسـلتها الحكومة العثمانية إلى مصر أثناء الصراع ضد الفرنسيين. وأثناء هذه الصـراعات تأكدت بسرعة سلطة الألبانى محمد على، عضو الحملة العثمانية، وبعد طرد الحاكم التركى محمد خسرو باشا وهزيمة المماليك نجح محمد على فى تعيين نفسه باشـا للقاهرة فى مايو ١٨٠٥، من قبل مجلس العلماء والقضاة. وقد صدق الباب العـالى على التعيين فى ٢٤ يوليو ١٨٠٥.

وفى بداية ١٨٠٧، عند اندلاع الحرب بين روسيا والباب العالى، اتخذت إنجلترا، بموجب التحالف القائم، إجراءات لتقديم المساعدة لروسيا والدفاع عن الشرق الأدنى من عمليات فرنسية أخرى. وفى ٩فبراير ١٨٠٧ دمر أسطول عثمانى عمليا فى معركة بحرية مع القوات الإنجليزية ولم تنجح بعض المفاوضات التى بدأت على الفور بعد إبرام السلام بفضل العمل الماهر الذى مارسه على السلطان الممثل الدبلوماسى الفرنسى فى إسطنبول، سيباستيانى.

وعندئذ قامت إنجلترا بإنزال قوة من ستة آلاف رجل فى الإسكندرية (١٦ مارس ١٨٠٧) بهدف تجنب أية مبادرات فرنسية. وقد احتلت المدينة دون إطلاق طلقة واحدة بينما كان محمد على مشغولا فى عمليات حربية فى صعيد مصر. ولكن المحاولات الإنجليزية التالية لمد نطاق الاحتلال لاقت نجاحا أقل. وفى ٣١ مارس و٢١ أبريل ١٨٠٧، فى صدامين متتاليين مع القوات المصرية فى منطقة رشيد (غرب الإسكندرية) هزمت القوات الإنجليزية وأجبرت بعد الهزيمة الثانية والحاسمة، على الانسحاب إلى الإسكندرية. وقد دفع نقص التعزيزات المناسبة والمصاعب الخطيرة فى الإمدادات الجنرال فريزر، قائد الحملة الإنجليزية للبدء فى مفاوضات مع محمد على. وقد تمت فى سبتمبر بإبرام اتفاقية تنص على الجلاء التام للقوات البريطانية عن مدينة الإسكندرية.

وقد دعم إخفاق المحاولة الإنجليزية موقف باشا مصر وزاد من مكانته القنصل الفرنسى دروفيتى، الذى كان مستشارا بالغ النشاط لمحمد على طوال الأزمة.

وبعد القضاء على خطر الغزو الأجنبى، استطاع محمد على أن يكرس نفسه كلية للإصلاح الداخلى لمصر والقضاء على المقاومات الأخيرة لعمله. وفى الحقيقة كان لابد من خلق كل شيء حيث إنه لم يكن هناك أثر لإدارة منتظمة. وكان المماليك، الإقطاعيون المحليون الحقيقيون، قد فرضوا سلطتهم حتى ذلك الحين، فى كل البلاد وفرضوا ضرائب ومظالم أخرى على سكان مقاطعاتهم.

ولم يتردد محمد على فى مصادرة أراضى المماليك التى عهد بها للفلاحين بعد تقسيمها إلى قطع صغيرة. وكان من الطبيعى أن يصبح عداء الحكام المماليك تجاه محمد على بعد هذه الإجراءات أشد قوة وعنادا. وقد قرر باشا مصر فى الوقت نفسه التخلص نهائيا منهم، بعد بعض المحاولات للوصول إلى اتفاق دون جدوى مع كبار ممثليهم. وقد سددت لهم ضربة حاسمة فى أغسطس ١٨١٠ فى صدام الفيوم. وقد أبيد القادة الباقون تماما فى كمينين تاليين نصبهما لهم محمد على، على التوالى فى مارس ١٨١١ فى قلعة القاهرة[٣]، وفى مايو ١٨١٢ فى منطقة إسنا.

ولم تعترض العمل الإصلاحى لباشا مصر منذ ذلك الحين أية عقبات. وكانت إعادة تنظيم الجيش الواجب الذى كرس محمد على له نفسه بعناية دقيقة حقا. وأنشئت المدارس الحربية وأعيد تنظيم كوادر الجيش وتوسيعها مع الاستعانة بضباط أجانب، معظمهم من الفرنسيين. وكانت القوات المسلحة تضم ما يزيد على مائة ألف رجل بعد أن كان يمثلها فى ١٨٠٦ بضعة آلاف من الرجال المسلحين والمدربين بصورة سيئة. وقد بنيت البحرية العسكرية أيضا من جديد.

وكان هدف محمد على واضحا. فقد كان ينوى خلق بناء حكومى متين ومتجانس وقادر على مواجهة أى تهديد من الداخل أو الخارج. ليس هذا فحسب، فربما كان باشا مصر ينوى، منذ ذلك الحين التمهيد لبناء دولة قوية فى وادى النيل يقدر لها فى مستقبل غير بعيد أن تحل محل الباب العالى العثمانى الذى كان يدرك انهياره السريع. ولكن العلاقات التركية المصرية، فى مرحلة أولى، كانت تتسم بود رسمى، وفى مرات عديدة قدم باشا مصر للسلطان مساعدته العسكرية الفعالة.

وقد قدمت أول مساعدة مهمة للباب العالى فى الصراع ضد الوهابيين الذين كانوا قد تمردوا فى الجزيرة العربية على سلطة القسطنطينية. وكان الصراع عنيفا وطويلا، وامتد مع حوادث متلاحقة لمدة سبع سنوات (١٨١١ - ١٨١٨)، ولكن التمرد أخمد فى النهاية. وقد أسر زعيم الوهابيين عبد الله، وسلم للسلطان الذى قطع

رأسه. وكمكافأة للمساعدة المقدمة، حصل محمد على على جزيرة تاسوس، الواقعة قبالة كافالا، مسقط رأسه.

وفى ١٨٢٠ بدأ باشا مصر حملة السودان بهدف إخضاع أقاليم أعالى النيل الغنية والشاسعة. وقد نفذت هذه الحملة أيضا وسط مصاعب كبيرة ترجع أساسا للظروف المناخية والخبرة الضئيلة بالأماكن. وقد سقط ابن محمد على نفسه، إسماعيل فى ١٨٢٢ فى منطقة شندى، ضحية كمين. وعلى الرغم من ذلك استؤنفت حملة السودان بأقصى طاقة واستطاع الاحتلال المصرى الوصول حتى حدود الحبشة بعد الاستيلاء على أعالى النوبة وسنار وكردفان.

وفى ١٨٢٣ تدخل محمد على من جديد لمساعدة السلطان واحتل كريت، بعد أن أعاد للسكان المتمردين رشدهم. وفى العام التالى، قدم السلطان لباشا مصر، كمكافأة على المساعدات المقدمة، ولاية دمشق، التى كان يطمح إليها محمد على منذ زمن بعيد. ولكن المكائد التى حاكها فى القسطنطينية خسرو باشا، الذى تولى بين يناير ١٨٠٢ ومارس ١٨٠٤ منصب باشا مصر واعترض بعناد على أول تصديق لمحمد على، دفعت السلطان لإلغاء العرض. ولكن بعد ذلك بقليل (يناير ١٨٢٤) كان السلطان مضطرا للعودة إلى طريق التنازلات وقدم لإبراهيم، الابن الأكبر لمحمد على والقائد الماهر للقوات المصرية[٤] ولاية موريا للحصول على مساعدة القوات المصرية فى قمع حركات التمرد التى انفجرت فى اليونان. وفى العام التالى، بعد أن حققت قوات إبراهيم نجاحات مهمة، عين السلطان محمود، محمد على رئيسا لوزراء الإمبراطورية العثمانية وجدد له الوعد بولاية دمشق.

وفى ١٨٢٦ واصلت القوات المصرية بانتصار حملتها فى موريا، وكان أهم حدث فى ذلك العام هو الاستيلاء على ميسولونجى من قبل الجانب العثمانى الذى وجه ضربة خطيرة للوطنيين اليونانيين (أبريل ١٨٢٦). ولكن طول أمد الحرب وسقوط أثينا (٥ يونيو١٨٢٧) سرع بإبرام اتفاق بين فرنسا وإنجلترا وروسيا حول القضية اليونانية.

وقد وقعت القوات الثلاث بالفعل فى ٦يوليو ١٨٢٧ فى لندن اتفاقية اعترفت فيها بضرورة إقرار السلام بين الباب العالى والوطنيين اليونانيين، علـى أسـاس تكوين مملكة اليونان التى تدفع الجزية للسلطان. وقد اتفق أيضا على إرسال فرقـة بحرية إنجليزية - فرنسية - روسية إلى المياه اليونانية بهدف ممارسـة الضـغط على السلطان. وفى سبتمبر التالى دعت القوى الثلاث الجنرال إبراهيم الذى كـان يقود عمليات موريا لوقف العمليات الحربية. وفى الوقت نفسـه أرسـلت الفرقـة البحرية المختلطة للقوى الثلاث إلى مياه نافارينو، حيث كان قد تجمع معظم القوات البحرية التركية - المصرية. وقد أدى حادث وقع بين الأسطولين المتجابهين إلـى معركة بحرية عنيفة انتهت بالتدمير الكامل للقوات التركية - المصرية (٢٠ أكتوبر ١٨٢٧).

وبينما قرر محمد على، بعد هذه الحادثة التخلى عن حملة اليونان واتفق مع الإنجليز على انسحاب قواته، احتفظ الباب العالى بتشدده فـى قضـية الاسـتقلال اليونانى، وكانت النتيجة أن أعقبت ذلك حرب روسية عثمانية انتهت فـى سـبتمبر ١٨٢٩ بسلام أدريا نوبولى. الذى شهد انتصار موسكو. ومع بروتوكول لندن فى ٣ فبراير ١٨٣٠، اعترفت القوى الكبرى باستقلال اليويان رسميا.

٢- وفى أغسطس ١٨٣٠ منح السلطان محمد على حكم جزيرة كريت، كمكافأة على المساعدات التى تلقاها أثناء الحرب مع روسيا. وفى هذه المرة أيضـا بقى الوعد بولاية دمشق حبرا على ورق. ولهذا السبب فـإن محمـد علـى أعطى إشارة البدء فى منتصف العام التالى تقريبا، لحملة سـوريا، بذريعـة ما، مستغلا الوضع الصعب الذى كان يمر به الباب العـالى نتيجـة لسـلام أدريا نوبولى. وقد حملت العمليات العسكرية القوات المصرية إلى مـا وراء سيناى. وفى ٨ نوفمبر تم الاستيلاء على يافا وبعد ذلك ببضـعة أيـام (٢٦ نوفمبر) حوصرت مدينة سان جوفانى داكرى المحصنة، والتى كانـت قـد تحطمت عليها هجمات نابليون قبل ذلك ببضع عشرات من السنين.

وقد توقفت المفاوضات التى كانت قد بدأت فى الوقت نفسه بين الباب العالى

ومصر فى أبريل ١٨٣٢، بعد رفض السلطان قبول شروط محمد على (ولاية سان جوفانى داكرى واحتلال طرابلس وسوريا واللاذقية)، وقد أعلن الباب العالى فى الوقت نفسه محمد على متمردا وأعلن عليه الحرب (١١مايو ١٨٣٢). وبعد ذلك ببضعة أيام (٢٧مايو ١٨٣٢) استسلمت مدينة سان جوفانى داكرى، وفتحت الطريق أمام قوات إبراهيم نحو قلب الإمبراطورية العثمانية. وعند هذا الحد، بدا محمد على ميالا للاتفاق مع السلطان، بعد أن رضى بالنجاحات التى حققها وخوفا منه لاحتمال تدخل القوى الكبرى. ولكن المفاوضات هذه المرة أيضا لم تبرم بسبب رفض الباب العالى منح باشا مصر حكم سان جوفانى داكرى وطرابلس سوريا.

وبعد استئناف العمليات الحربية، حققت القوات المصرية اختراقات مهمة فى سوريا، وفى ١٠يوليو ١٨٣٢، فى أول صدام مع القوات العثمانية، حققت نجاحا مدويا.

وقد أعقب ذلك، بناء على نصيحة من فرنسا التى كانت قد دعمت باشا مصر دائما، اقتراح جديد للسلام لمحمد على، على السلطان، ولكن هذا الاقتراح أيضا بقى بلا نتيجة. وكان باشا مصر ميالا للاعتدال لوعيه بالتعقيدات الدولية التى كانت ترتسم فى الأفق. ولكن نصائح إبراهيم بالتشدد كانت لها الغلبة وتلقت القوات المصرية الأمر بمواصلة العمليات فى سوريا. وفى ٢١ديسمبر اصطدمت قوات إبراهيم بالقرب من قونية بالقوات العثمانية وحققت انتصارا جديدا حاسما.

وفى هذه المرة بدا السلطان مستعدا لقبول تسوية وتلبية مطالب محمد على. وهكذا قدمت لباشا مصر فى يناير ١٨٣٣ حكم سان جوفانى داكرى، ودمشق. ولكن إبراهيم استأنف التقدم متجها بحسم نحو قلب الإمبراطورية العثمانية دون انتظار كلمات محمد على، سواء لأنه كان يعتبر التنازلات غير كافية أو لأنه كان يعتبر الباب العالى قد وصل إلى الحد الأقصى لإمكانياته فى المقاومة.

وعند هذا الحد ظهر تدخل حاسم للقوى الكبرى الثلاث (روسيا وبريطانيا وفرنسا)، ولكنه لم يكن تدخلا منسقا. فبينما أعلنت فرنسا صراحة عن وقوفها

بالفعل إلى جانب باشا مصر، أظهرت روسيا وإنجلترا تصميمهما على حماية سلامة الإمبراطورية العثمانية المتداعية.

ولم يكن الخلاف فى وجهات النظر سوى مجرد انعكاس لاختلاف المصالح. ففرنسا، منذ السنوات التى تلت مباشرة حملة بونابرت، كانت قد بدأت اختراقا سياسيا تدريجيا فى مصر ونجحت بالتأكيد بقوة على نفوذها لدى باشا مصر. وكان من مصلحتها فى الوقت نفسه أن ترى تدعيم موقف محمد على.

ولكن المصالح البريطانية والروسية كانت عكس المصالح الفرنسية. فبريطانيا، من ناحية، كانت تذكر المخاطر التى تعرضت لها إمبراطوريتها فى الهند أثناء حملة نابليون، وكانت تتابع بقلق متزايد تعاظم النفوذ الفرنسى فى مصر. ولهذا السبب لم تكن مستعدة لتشجيع تحرر وتقوية بلد كان لفرنسا نفوذ طاغ عليه. وكان لروسيا، من الناحية الأخرى، كل المصلحة فى ضمان سلامة الإمبراطورية العثمانية من أى خطر للتقسيم، بعد أن توصلت بمعاهدة أدريا نوبولى إلى بعض المطامح السياسية والإقليمية المهمة.

وكان أول من تحرك هو روسيا. فبعد أن شهدت فى ديسمبر ١٨٣٢ رفض السلطان لاقتراح بالمساعدة، سارعت بالتدخل على عجل بعد استئناف تقدم قوات إبراهيم. وبين فبراير وأبريل ١٨٣٣ دخل الأسطول الروسى البوسفور وأنزل ٢٠ ألف رجل فى سكوتارى.

وقد دفع الإجراء الروسى الذى غير بعمق التوازن فى البحر المتوسط، إنجلترا وفرنسا لتركيز الجهود لإقرار السلام بين الباب العالى وتابعه القوى، بهدف إبطال ذريعة روسيا التى كانت السبب فى تدخلها. وقد آتى العمل الفرنسى - البريطانى ثماره، وفى ٥مايو ١٨٣٣، أمكن بالفعل التوقيع على سلام كوتاهيا بين الباب العالى ومصر. ولم يحصل محمد على، على كل ما كان ينوى الحصول عليه، ولكن الباب العالى خرج مهانا إلى حد كبير من ولايتى سوريا وطرسوس، وقد حصل إبراهيم بدوره على الحكم مدى الحياة على مقاطعة أضنة. وبعد أن

انتهى هكذا هذا الصرع الذى أثار كثيرا من التوتر فى أوروبا، سحبت روسيا قواتها من الأراضى العثمانية وأسطولها من الدردنيل، ولكن بعد أن أبرمت أولا مع الباب العالى معاهدة هونكيا، إسكيليزى (٨ يوليو ١٨٣٣) التى تعهدت فيها القوتان العظميان بالمساعدة المتبادلة فى حالة حدوث أى اعتداء على أى منهما. وكانت روسيا فى الواقع قد نجحت، بهذه المعاهدة، فى إقامة حماية مقنعة على القسطنطينية نفسها، يلتزم السلطان بموجبها، فى حالة حدوث حرب، بإغلاق الدردنيل أمام السفن الحربية لكل القوى بناء على طلب روسيا.

لم يكن سلام كوتاهيا قد أرضى الباب العالى ولا محمد على. فلم يكن من الممكن للباب العالى أن ينسى الإذلال الذى تعرض له من تابعه القوى وكان يتوق للانتقام لينتزع من محمد على التنازلات التى كان قد اضطر لتقديمها له، ربما تحت ضغط الهزائم العسكرية. وكان محمد على من الناحية الأخرى يطمح فى أن يجعل نفسه مستقلا تماما عن القسطنطينية، وكان ينتظر فقط الفرصة المواتية لتحقيق طموحه هذا. وفى عام ١٨٣٨ أصبح الموقف متوترا من جديد بصورة خاصة بين السلطان ومحمد على وبدت بداية حرب جديدة وشيكة.

وقد تزايد النشاط الدبلوماسى لفرنسا وإنجلترا. وفى يونيو من ذلك العام حاولت حكومة باريس ندب روسيا إلى خط عمل مشترك تجاه مصر، مقترحة ممارسة ضغوط على السلطان حتى يتخلى عن عزمه فى الانتقام من محمد على والاعتراف بالاستقلال المصرى. ولكن الحكومة الروسية التى لم تكن لها أية مصلحة فى تقوية مواقف باشا مصر، تغاضت عن الاقتراح، بل إنها أعادت التأكيد على قرارها الالتزام بدقة بمعاهدة هونكار - إسكيليزى فى حالة اندلاع حرب بين تركيا ومصر.

وكانت إنجلترا راغبة فى إرضاء السلطان لإبعاده عن التحالف مع بطرسبرج، فأخبرت محمد على من جانبها فى بداية يوليو ١٨٣٨ بأنه فى حالة بدء العمليات الحربية ضد الباب العالى، لن تتردد إنجلترا فى الوقوف إلى جانب

السلطان. وقد وصل نص المذكرة بسرعة إلى علم الحكومة العثمانية. وفى الوقت نفسه انضمت الحكومة الإنجليزية بسرعة لاقتراح مقدم من محكمة فيينا لإجراء مؤتمر بين إنجلترا وفرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا للاتفاق على القضية التركية – المصرية، فقد كانت لندن ترى بالفعل فى هذا المؤتمر الوسيلة لإلغاء الوضع المميز الذى كانت روسيا قد نجحت فى ضمانه للقسطنطينية وللحد من طموحات باشا مصر. ولكن روسيا التى لم يفتها هدف المؤتمر، رفضت الدعوة.

وبعد ذلك بقليل، كان هناك تأكيد للاتفاق الإنجليزى العثمانى الذى كان يرتسم بإبرام معاهدة تجارية بين القوتين (أغسطس ١٨٣٨). ولكن المحادثات التالية لإبرام معاهدة تحالف فشلت لمعارضة إنجلترا الاشتراك الكامل مع الباب العالى أو للتحسن الذى طرأ على العلاقات الإنجليزية – الروسية.

وفى أبريل ١٨٣٩ قرر السلطان مهاجمة القوات المصرية المتمركزة فى سوريا معتبرا أن الموقف الدولى موات لذلك، ومستغلا بعض الانتفاضات التى كانت قد حدثت فى ذلك الإقليم.

ولكن الحملة انتهت بهزيمة خطيرة للقوات العثمانية. وفى ٢٤يونيو أوقعت القوات المصرية بقيادة إبراهيم بالقوات العثمانية هزيمة قاسية فى منطقة "تصيب" وكانت الكارثة هذه المرة أكبر بكثير من كوارث الحملات السابقة. وكانت نتائج المعركة ما يزيد على خمسة عشر من الأسرى والاستيلاء على كل المدفعية العثمانية تقريبا. وعلاوة على ذلك سلم الأسطول العثمانى نفسه لمحمد على دون إطلاق طلقة واحدة، علامة على الاحتجاج على التساهل الذى أبداه رئيس الوزراء جوزيف باشا إزاء التدخل الروسى المتزايد فى الشئون العثمانية.

٣- وقد أجبر الانتصار الحاسم الذى حققته القوات المصرية السلطان على الدخول فى مفاوضات لإبرام السلام. وكانت الشروط التى وضعها محمد على لوقف الأعمال القتالية هى: الاعتراف بالحكم الوراثى لولايتى سوريا

وكريت، وإقالة رئيس الوزراء خوزريف، الذى كانت توجهاته السياسية دائما معادية لمصر، وفى الوقت نفسه أعلن عن استعداده لإعادة الأسطول للسلطان.

كانت شروط السلام صعبة. ولكن السلطان الذى أصبح لا يمتلك الآن أية قوة عسكرية قادرة على مقاومة قوات إبراهيم، أجبر على الدخول فى مناقشة على هذه الأسس مستبعدا فقط أى احتمال للتنازل الوراثى عن جزيرة كريت.

وكانت المفاوضات بالفعل توشك على الانتهاء، عندما أنقذ "التنسيق" الأوروبى موقف الباب العالى فى آخر لحظة. وفى ٢٧ يوليو ١٨٣٩، بالفعل، سلم سفراء فرنسا وإنجلترا والنمسا وروسا – المعتمدين لدى الباب العالى – للسلطان مذكرة جماعية، أبلغ محمد على بمحتواها فيما بعد، وأعلن فيها عن أن الاتفاق على قضية الشرق يجب أن تضمنه القوى الكبرى، وأن تعلق الحكومة العثمانية لذلك "أى تحديد نهائى متعلق بالمقترحات المقدمة من باشا مصر دون مشاركتها"، انتظارا لقراراتها.

وعلى الرغم من تسليم هذه المذكرة للسلطان، فإنه لم يكن من الممكن اعتبار أن الاتفاق بين القوى الخمس قد تم بسبب الخلاف الجوهرى الذى استمر، خاصة بين فرنسا من ناحية وإنجلترا وروسيا من الناحية الأخرى. وبينما استمرت حكومة باريس، تمشيا مع توجيهات سياستها، فى مساندة باشا مصر، مؤكدة على ضرورة إعطاء محمد على حكم سوريا كلها. لم تكن بريطانيا وروسيا والقوى الكبرى الأخرى مستعدة للاعتراف لمحمد على بشىء أكثر من الحكم الوراثى لمصر، وأعادت التأكيد على ضرورة الحفاظ على سلامة الإمبراطورية العثمانية دون أى مساس بها.

وفى خريف ١٨٣٩، فى آخر محاولة للاتفاق مع فرنسا اقترحت بريطانيا الاعتراف لمحمد على بحكم سوريا الجنوبية أيضا، علاوة على الحكم الوراثى لمصر. وكان الباب العالى سيحتفظ بمدينة أكرى والأماكن المقدسة وسوريا

الشمالية. ولكن الاتفاق لم يتم التوصل إليه للإلحاح الفرنسى لتسليم سوريا كلها لمحمد على.

وفى النصف الأول من ١٨٤٠، كان عمل الدبلوماسية الفرنسية مكثفا لتشجيع اتفاق مباشر تركى – مصرى. واجتهدت فرنسا بنشاط لتقريب وجهتى النظر العثمانية والمصرية بتقديم الاعتدال للحكومتين. وقد حقق عمل الدبلوماسية الفرنسية فى مايو أول نتيجة مهمة، فقد أقال السلطان بالفعل رئيس الوزراء خوزريف باشا من منصبه، وقضى بذلك على واحدة من العقبات الرئيسية أمام الاتفاق بين الباب العالى ومصر.

وبمجرد أن وصل الخبر إلى القاهرة، سارع محمد على بإرسال مبعوث له إلى القسطنطينية للتفاوض على السلام مع السلطان على أساس الاعتراف بميراث حكم مصر وسوريا كلها، فى مقابل إعادة الأسطول العثمانى. وعلى الرغم من أن باشا مصر أبقى على مطالبه دون تغيير بشأن سوريا فإنه أعلن مع ذلك عن استعداده للتخلى عن جزيرة كريت بهدف تسهيل الاتفاق.

وقد منع تدخل إنجلترا لدى السلطان مرة أخرى إبرام الاتفاق. فحكومة لندن التى كانت قد نجحت بالفعل منذ يناير ١٨٤٠ فى إبرام اتفاق مع روسيا حول المساعدات المقدمة للسلطان ضد باشا مصر(٥)، قدمت فى يوليو التالى اقتراحا للتصالح يفرض على الباب العالى ومصر وقد أصبح هذا الاتفاق، الذى نوقش وتمت الموافقة عليه، فى المؤتمر الذى عقد بين بريطانيا وروسيا وبروسيا والنمسا فى شهر يوليو نفسه فى لندن، أصبح جزءا لا يتجزأ من معاهدة لندن فى ١٥يوليو ١٨٤٠.

وهكذا حققت إنجلترا نصرا دبلوماسيا مهما، ليس فقط لأنها تسببت فى فشل الوساطة الفرنسية بين محمد على والسلطان ولكن أيضا لأنها تركت حكومة باريس فى عزلة تامة فى أوروبا.

ومن تلك اللحظة، كما سنرى، سيطالب "الاتحاد الأوروبى" بالحق فى مناقشة

وحل أى تعقيد فى قضية الشرق وسينصب من نفسه ضامنا لسلامة الإمبراطورية العثمانية. وسوف تضاف إلى القوى العظمى بعد ذلك فرنسا التى ستنضم لاتفاقيات العام التالى، بعد أن تخلت عن مطامحها، للخروج من عزلتها وإيطاليا (بييمونتى) كعضو موقع على معاهدة باريس فى ٣مارس ١٨٥٦ وبعد ذلك، بعد وحدة المملكة، كعضو منضم للوثيقة النهائية لمؤتمر لندن ١٨٧١[٦].

٤- كانت ظروف السلام التى أقرتها اتفاقية ١٨٤٠ تهدف للحفاظ على سلامة الإمبراطورية العثمانية من أى تهديد محتمل. وكانت مقدمة الاتفاقية واضحة جدا، حيث كانت تبرر التدخل بطلب من السلطان وتبرره بـ "الرغبة فى الحرص على الإبقاء على سلامة واستقلال الإمبراطورية العثمانية، لمصلحة تعزيز السلام فى أوروبا..."[٧]. وكانت القوى الكبرى، لغيرة كل منها من الأخرى، قد وجدت فى صيغة "الوضع الراهن" العنصر المؤقت لمصالحها المتضاربة.

وفى المواد الثلاث الأولى من الاتفاقية هناك إشارة إلى الإجراءات العسكرية التى ستتخذها القوى الكبرى، كضامنة لسلامة الإمبراطورية العثمانية، ضد محمد على إن لم يخضع لشروطها فى السلام. وقد تقرر بصفة خاصة التزام القوى الكبرى بـ "العمل فى اتفاق تام" و"توحيد جهودها لدفع باشا مصر للتمشى مع قواعد الاتفاقية" (المادة ١). وإذا أبدى محمد عبده مقاومة على الرغم من ذلك، فإنها ستلتزم بأن تتخذ ضده التدابير المتفق عليها والمقررة سلفا بناء على طلب السلطان. وإذا رد باشا مصر عسكريا، فإنها تعهد بالالتزام الرسمى بالسعى فى اتفاق مشترك" بهدف وضع مضايق البوسفور والدردنيل، وكذلك عاصمة الإمبراطورية العثمانية، تحت الحماية ضد أى اعتداء (المادة ٣) والمادة التالية تكمل السابقة، فهى تقر بأن جميع الإجراءات التى يحتمل أن تتخذ للدفاع عن المضايق ستتخذ طابعا مؤقتا واستثنائيا وأن السلطان، على أى حال، سيبقى مبدأ حظر الدخول أمام السفن الحربية الخاصة بالقوى الأجنبية سارى المفعول فى

البوسفور والدردنيل فى أى وقت. وكان هذا الحظر يطبق أيضا على روسيا كطرف فى الاتفاقية.

كان من الواضح أن القوى الأوروبية، فى مطالبتها بحل أى قضية ترتبط بمصر وضمان سلامة الإمبراطورية العثمانية، لم تكن تريد ضرب محمد على فحسب، بل أيضا وبصفة خاصة نزع المزايا التى كانت روسيا قد اكتسبتها بمعاهدة هونكار - إسكيليزى.

وكانت شروط السلام التى يتعين فرضها على مصر محددة فى وثيقة مرفقة بالاتفاقية. ويمكن تلخيصها فيما يلى:

(١) سيمنح حكم مصر وسان جوفانى داكرى، مع حق الانتقال الوراثى المقتصر على مصر، لمحمد على إذا أبلغ القوى الكبرى بقبوله خلال اليوم العاشر من إعلان المقترحات. ولكنه سيتعين عليه فى هذه الحالة أن يسلم لمبعوث السلطان الأمر المكتوب والمباشر لقادة القوات المصرية بالجلاء فورا عن سوريا الجنوبية والجزيرة العربية وجزيرة كريت.

(٢) إذا لم يرد محمد على خلال هذه الفترة، فإن المقترحات ستفقد أى قيمة لها. ولكن باشا مصر سيكون له موعد جديد متاح لمدة عشرين يوما لقبول الولاية الوراثية لمصر وحدها. وأخيرا إذا لم يرد محمد على أيضا خلال هذه الفترة، فإن السلطان سيكون حرا فى إلغاء التنازل الثانى أيضا.

(٣) ستدفع مصر للباب العالى جزية سنوية تتناسب مع امتداد الأراضى الخاضعة لحكم الباشا. وسوف تحصل الضرائب باسم السلطان.

(٤) فى أى من البلدين، سيعاد الأسطول العثمانى كله إلى السلطان.

(٥) المعاهدات الدولية التى أبرمها الباب العالى، بالإضافة إلى القوانين العثمانية ستطبق على الفور فى مصر وفى أكرى.

(٦) قوات مصر البرية والبحرية ستعتبر جزء لا يتجزأ من قوات الإمبراطورية العثمانية.

وقد أعقب ذلك "بروتوكول" و"بروتوكول سرى". فقد تأكد فى البروتوكول مبدأ إغلاق المضائق أمام السفن الحربية. وفى البروتوكول السرى اتفق على أن الإجراءات القهرية ضد باشا مصر كان يمكن أن تتخذ، عند الضرورة، أيضا قبل تبادل التصديقات.

وأثناء المفاوضات التى كان من المقرر أن تفضى إلى الاتفاقية المذكورة فى لندن، كانت الحكومة البريطانية قد دعت سرا ممثلها لدى السلطان لزيادة مقاومة سكان سوريا ضد قوات إبراهيم بكل الوسائل والتمهيد لانتفاضة عامة، بهدف وضع محمد على فى موقف صعب ودفعه هكذا لقبول الشروط المقترحة. وسرعان ما حدثت بالفعل انتفاضات خطيرة تفجرت فى سوريا لتضع القوات المصرية التى أصبحت الآن متعبة وفاقدة للثقة من الحملة المضنية فى وضع حرج للغاية.

وفى تلك الفترة بالذات، أبلغت قرارات القوى الكبرى لمحمد على، على شكل إنذار. ولكن باشا مصر رفض الفرض وحث على الوساطة الفرنسية فى الوقت نفسه.

وبعد مرور عشرة أيام قامت القوى الكبرى بعرض جديد متعلق بمنح الحكم الوراثى فقط لمصر. وقد رد الباشا الذى كانت فرنسا قد أعطته فى الوقت نفسه نصائح بالاعتدال، رد حينها بالقبول، ولكنه حث فى الوقت نفسه الباب العالى على تقديم بعض التنازلات الأخرى.

وقد اعتبرت القوى الكبرى تحفظ محمد على بمثابة رفض. ومن جانبه، لم يدع السلطان الفرصة تفلت منه فى أن يستفيد من القدرة المخولة له بموجب الاتفاقية الموقعة من القوى الأربع الكبرى وأعلن تنحية باشا مصر عن وظائفه (سبتمبر ١٨٤٠). وبعد ذلك بدأت قوات عثمانية وبريطانية بقيادة الأدميرالين نابييه وستوبفورد عملية واسعة ضد القوات المصرية فى سوريا. وبينما حقق نابييه

نجاحات مهمة فى صيدا (٢٦- ٢٧سبتمبر ١٨٤٠)، وعلى جبال أردالى (١٠أكتوبر)، قام ستوبفورد بغزو مدينة بيروت بعد قصف عنيف من البحر (١٠ أكتوبر).

وفى أعقاب احتجاجات قوية قدمتها فرنسا إلى لندن والقسطنطينية فى الأيام العشرة الأولى من أكتوبر، أرسلت حكومة لندن (بالمرستون) تعليمات لممثلها فى القسطنطينية، بونسوبى (١٥ أكتوبر) حتى ينصح السلطان بإبرام السلام مع تابعه على أساس الاعتراف الوراثى لمصر، بعد إعادة الأسطول العثمانى للباب العالى وجزيرة كريت وكل سوريا. ولكن بدا بعد ذلك أن الحكومة البريطانية قد غيرت موقفها، ربما أيضا للنجاحات الإنجليزية – التركية فى سوريا والتى توجت فى ٣ نوفمبر بانتصار على القوات المصرية التى هلك معظمها. وفى ١٤ نوفمبر، بالفعل، وفى تعليمات جديدة مرسلة للأدميرال ستوبفورد للتصريح بإرسال مندوب بريطانى لمحمد على بهدف إدارة المباحثات، اقتصر اللورد بالمرستون على الحديث بصورة عامة عن تنازل لمحمد على لحكم مصر، دون إضافات أخرى، مما أثار الشك فى أن الحكومة البريطانية لم تعد بعد مستعدة للاعتراف لمحمد على بالحق فى توريث الحكم.

وقد عهد بقيادة المفاوضات للأدميرال نابييه الذى كان قد شارك فى العمليات فى سوريا ضد قوات إبراهيم. وقد جعل الموقف الصعب الذى وجد محمد على نفسه فيه الإنهاء السريع للمباحثات ممكنا. وفى ٢٧ نوفمبر أبرم اتفاق يلتزم بموجبه باشا مصر بإعادة الأسطول التركى للسلطان والتخلى عن سوريا، مع الاكتفاء بالحكم الوراثى لمصر. وكان الاتفاق سيدخل حيز التنفيذ بمجرد أن يصدق الباب العالى على هذا التنازل الأخير.

ولكن ستوبفورد لم يعترف بالاتفاق لأنه لا يراه متمشيا مع التعليمات التى تلقاها من لندن. وفى الوقت نفسه هاجم الممثل البريطانى فى القسطنطينية، بونسوبى الاتفاق بعنف، وألح على ضرورة وقف إجراء التنحية الذى اتخذه

السلطان إزاء محمد على. وقد شعر السلطان فى الوقت نفسه أن سلطته عدم الاعتراف بأى قيمة للاتفاق واعتبار باشا مصر مبعدا عن وظائفه.

وقد قام الأدميرال ستوبفورد بخطوات جديدة لدى محمد على، عن طريق الكابتن فانشيف، بهدف إبلاغه بعدم جدوى الاتفاقيات المبرمة مع نابييه وبنصحه بالخضوع غير المشروع للسلطان. وفى ٩ ديسمبر أجبر محمد على، على الخضوع لهذا الشرط الصعب.

ولكن بالمرستون، الذى كان يجهل الموقف فى الوقت نفسه، كان قد اعترف بالاتفاقيات التى أبرمها نابييه فى ٢٧نوفمبر. ولم يكن غريبا، على موقف لندن المعتدل، العمل التصالحى الذى كانت تقوم به محكمة لندن، وكذلك الرغبة الفرنسية فى التقرب من فرنسا للحصول على انضمام باريس لمعاهدة لندن لعام ١٨٤٠. ونتيجة لاعتراف الحكومة الإنجليزية، تمت خطوة رسمية للقوى الكبرى الأربع لدى الباب العالى حتى يمنح محمد على الحكم الوراثى فى مصر. وبعد بعض محاولات المقاومة التى شجع عليها الموقف المعادى لمصر من بونسوبى يطوال الأزمة كلها، اعترف السلطان لمحمد على بفرمان أو مرسوم إمبراطورى فى ١٣ فبراير ١٨٤١، بالإدارة المستقلة لمصر، ليمارسها باسم السلطان نفسه، مع حق التوريث لأبناء سلالة الباشا. وبالمرسوم نفسه حصل محمد على أيضا على الحكم مدى الحياة للأقاليم السودانية فى النوبة وسنار وكردوفان.

ولكن السلطان أراد الاحتفاظ ببعض المزايا. وهكذا، على سبيل المثال، بعد أن أقر بمبدأ الخلافة الوراثية، قرر أن الاختيار بين أبناء وسلالة محمد على من الذكور سيكون من اختصاص السلطان. وكانت القسطنطينية تقصد بهذا الاحتفاظ لنفسها بضمان فعال بشأن الشخص الذى سيحكم مصر فى كل مرة. وقد تقررت تحديدات أخرى فى القطاعين العسكرى والمالى. فلم يكن بوسع الجيش المصرى أن يتجاوز ١٨ ألف رجل، وسيكون تعيين الضباط من الرتب الأعلى فوق رتبة رائد من اختصاص السلطان مباشرة، وسيقوم باشا مصر بإجراء ما يلزم نحو صك

العملات وتحصيل الضرائب، ولكن ربع الدخول الإجمالية سيخصص للباب العالى بوصفه جزية، بينما ستحمل العملات المصكوكة فى مصر صورة السلطان.

وفى ٤ مارس ١٨٤١، وقعت القوى الكبرى الأربع على بروتوكول صرحت فيه بتنفيذ الشروط المنصوص عليها فى اتفاقية لندن ١٨٤٠، بعد أن سجلت خضوع محمد على (الذى تم بإعادة الأسطول للسلطان والتخلى عن سوريا كلها) وقبول السلطان.

وقد قررت علاوة على ذلك إعادة مقارها التمثيلية إلى مصر. ولكن محمد على فى ذلك الحين، بعد أن رأى المرسوم الإمبراطورى والقيود التى يتضمنها، رفضه جملة واحدة، بعد أن ضمن لنفسه مساندة فرنسا.

كانت تجرى فى تلك الفترة، كما أشرنا تنقية عامة للعلاقات الإنجليزية الفرنسية وكانت بريطانيا تظهر حرصها بصفة خاصة، للأسباب المذكورة سلفا، على الاتفاق مع باريس. ولهذا كانت مساندة الدبلوماسية الفرنسية للباشا فعالة. وقد اتفقت القوى الكبرى الأربع الموقعة على معاهدة لندن بالفعل على ضرورة تحسين موقف حاكم مصر، وفى مذكرة فى ١٩ أبريل ١٨٤١، موجهة للباب العالى، وضعت الأسس لفرمان إمبراطورى جديد بتنصيب محمد على. وقد حددت المذكرة ما يلى:

(١) أن خلافة حكم مصر ستئول إلى أبناء وسلالة الباشا من الذكور، طبقا لقانون الأقدمية السارى فى الإمبراطورية العثمانية، دون أى حق فى الاختيار من جانب السلطان.

(٢) أن الباب العالى سيتخلى عن ربع الدخول الإجمالية المصرية وسوف يقتصر على تلقى جزية سنوية، يتفق عليها.

(٣) أن باشا مصر سيتمكن من تعيين الضباط مباشرة حتى رتبة عقيد بدلا من رتبة رائد.

وفى ٢٣ مايو ١٨٤١، قبل مرسوم إمبراطورى جديد كل المطالب التى تضمنتها مذكرة القوى الكبرى. واعترف المرسوم لمحمد على بالحكم الوراثى لمصر مع حق التوريث طبقا لقانون الأقدمية. وسيلقب محمد على بلقب وزير، بنفس درجة أى حاكم آخر فى الأقاليم العثمانية. وسوف تطبق قوانين ومعاهدات ولوائح الباب العالى فى مصر، ولكن مع الأخذ فى الحسبان "الظروف المحلية والعدالة والمساواة"، وسوف يتم تطبيق وتحصيل الجزيات باسم السلطان، طبقا للأنظمة المستخدمة فى تركيا، وستدفع مصر جزية سنوية للباب العالى، وستحدد فيما بعد بـ ٨٠ ألف حقيبة تركية، وستحمل العملات المعدنية المصكوكة فى مصر صورة السلطان، ولن تختلف من حيث الوزن والسبيكة عن العملات التركية، ولن يتجاوز الجيش ١٨ألف رجل، مع الاحتفاظ بحق الباشا فى زيادته فى حال الحرب، بناء على تصريح من الباب العالى، وسيعين باشا مصر مباشرة الضباط من الرتب الأعلى حتى درجة عقيد. ويمكن تنفيذ تعيينات الرتب الأعلى بعد الحصول على تصريح إمبراطورى، ولن تستطيع مصر بناء سفن حربية، دون تصريح إمبراطورى. ويختتم المرسوم بأنه فى حالة انتهاك أى من التعليمات التى يتضمنها، فإن ميراث الحكم فى مصر سيلغى على الفور.

وبهذه الوثيقة تنتهى مرحلة فى غاية الأهمية من العلاقات التركية المصرية. وإذا كان محمد على يرى من جانبه استبعاد طريق الاستقلال التام، فإن الباب العالى من الناحية الأخرى لم يكن له مبرر للفرحة الزائدة لتدخل القوى الكبرى. فإذا كانت سيادته معترفا بها بالفعل فى مصر، فإن هذا حدث فقط بإرادة "الوفاق الأوروبى" الذى أخذ على عاتقه آنذاك مهمة تسوية أى تعقيد فى الشرق الأدنى مباشرة.

وبعد انتهاء الصراع بين الباب العالى ومحمد على، انضمت فرنسا لاتحاد القوى الأربع وشاركت معها، فى التوقيع على "بروتوكول" ١٠يوليو ١٨٤١ بعد أن حققت تحسنا فى بعض الشروط المفروضة على محمد على. وبعد ذلك بخمسة أيام

وقعت القوى الخمس مع الباب العالى على "اتفاقية المضائق" التى تأكد معها المبدأ القديم فى إغلاق المضائق أمام السفن الحربية لكل القوى.

٥- كان تدخل القوى الكبرى قد منع محمد على من تحقيق طموحه الكبير فى التحرر تماما من الباب العالى وخلق دولة قوية مستقلة فى شرق البحر المتوسط. ومع اتفاقيات لندن بين القوى الكبرى الأربع، التى أضيفت لها بعد ذلك فرنسا، رأى حاكم مصر استقلاله مهددا أكثر، لأنه فى المستقبل لن يتعين عليه الرد فقط على السلطان بشأن مسلكه ولكن أيضا تجاه القوى الكبرى التى تولت مهمة ضمان سلامة الإمبراطورية العثمانية والتدخل فى حل أى خلاف محتمل بين الباب العالى وتابعه.

وقد نغص الموقف الذى نشأ على هذا النحو السنوات الأخيرة من حياة حاكم مصر. وقد كرس نشاطه كله تقريبا لعملية الترتيب الداخلية، التى كانت ضرورية جدا بعد الحروب المستمرة التى خاضها. ولكن من المهم أن نوضح أن كل المصاعب تجاوزها بموارد الموازنة المصرية فقط دون أن يلجأ أبدا لقروض من الخارج. وكان الموقف الاقتصادى - المالى فى السنوات الأخيرة من حكم محمد على يبدو متينا ولم يسمح بأى مبررات للقلق.

وفى ١٨٤٦ ضعفت القدرات العقلية لباشا مصر، المهتزة أصلا من المرارات وخيبة الأمل التى تحملها فى السنوات السابقة، بصورة ملموسة، حتى إن ابن محمد على الأول إبراهيم الذى أدار بخبرة كبيرة القوات المصرية فى موريا وسوريا اضطر فى بداية ١٨٤٧ لتولى الحكم. وفى العام التالى، بعد أن اتضح عدم إمكانية علاج محمد على، وافق إبراهيم على أن يتولى بالكامل مسئولية الحكم وقبل التنصيب الرسمى للسلطة من السلطان (يوليو ١٨٤٨).

كانت حكومة إبراهيم تبشر بالخير. وكان إبراهيم بالفعل هو الذى أظهر أنه أقرب بالذكاء وقدرات الأب فى المجال العسكرى والسياسى والإدارى من بين أبناء

الباشا. ولكن فى ١٠ نوفمبر ١٨٤٨، عندما كان لا يزال محمد علــى علــى قيـد الحياة، انتزع موت إبراهيم المبكر من مصر زعيما عظيما جديدا.

وقد تولى حكم مصر عندئذ، فى ديسمبر ١٨٤٨، وطبقا للمبادئ المقررة فى مرسوم ١٨٤١، عباس حفيد محمد على والوريث الأكبر سنا.

وقد أظهر عباس على الفور طبعا مختلفا جدا عن طبع سلفه الكبير. ولم يكن محمد على قد تردد فى السماح بهجرة كبيرة لعناصر أوروبية، اقتناعا منــه بأنــه يفعل شيئا مفيدا للبلاد. وعادت على مصر بالفعل فوائد هائلة من هذه السياسة بعيدة النظر. وإذا كان حقيقيا أنه كان هناك بين جمهور المهاجرين أيضا مغامرون بــلا حمير، انجذبوا إلى مصر على أمل تكوين ثروات سريعة، فالحقيقة أيضا هــى أن غالبية الأوروبيين الذين جاءوا إلى مصر كانت مكونة من عناصر نشــيطة، مــن العمال البسطاء والمؤهلين والحرفيين وخاصة من المهنيين. وشهدت مصر فى فترة وجيزة ميلاد صناعاتها وتجارتها وتطورها وازدهارها. وتحسن وأصــلح النظــام الإدارى، وقد استعان محمد على فى هذا الميدان أيضا بعناصر أوروبية لم يتــردد فى إدخالها فى الخدمات العامة إلى حد معقول.

كان أثناء حكم محمد على بالذات أن بدأ الإيطاليون فى التدفق بأعداد كبيــرة إلى مصر، حيث بدأوا ذلك العمل الكبير فى التعاون فى البناء المدنى للــبلاد التــى كان لابد أن تشهد تطورا مهما فى القرن التاسع عشر.

وفى هذا التدفق الأول من الهجرة المرتفعة بصورة خاصة، كانــت هنــاك نسبة من الأجانب الإيطاليين، نجدها تقريبا فى كل مكان فى حياة الــبلاد. وعلــى سبيل المثال فقط سنذكر من بين الكثيرين لودوفيكو كولوتشى، الذى أصبح طبيبــا لنائب الملك، بينما واصل أبناؤه أنطونيو وكارلو وباولو نشاط الأب واكتسبوا شهرة عن جدارة، وأنوفريو أباتى باشا، الذى ذهب مع القــوات المصــرية إلــى القــرم والسودان، وشغل فيما بعد مناصب مهمة فى النظام الطبى المصرى، وألســاندرو ريتشى، الذى أنقذ إبراهيم من الموت فى ١٨٢١، حيث شفاه من مرض أصيب بــه

فى سنار، والدكاترة بياجو فيرنونى، وفيليبو ماروتشى ولاندونى، الذين كانوا أطباء لعائلة نائب الملك، وفيليبو فينوتشى، الذى كن طبيبا جراحا فى الأسطول الحربى المصرى وشهد معركة نافارينو، وجوفانى ديل سينيورى كبير الأطباء فى قوات إبراهيم، والدكاترة تود سكينى، وأنطونيو فيرلينى، وأنطونيو سكوتى والعديد من الآخرين الذين كانوا فى صحبة القوات المصرية بقيادة محمد على وإبراهيم، وفرانشسكو جايتانى، الذى صاحب محمد على فى السودان فى عامى ١٨٣٨، و ١٨٣٩، والصيدلى أندريا حنتيلى، الذى شارك فى حملة إبراهيم ضد الوهابيين، وأنطونيو فيجارى بك، الذى كان صيدليا خاصا لمحمد على، ومفتشا عاما لهيئة الدواء وبعد ذلك أستاذا فى مدرسة الطب والصيدلة فى القاهرة التى أسست فى ١٨٢٥ وكان غالبية أعضاء هيئة التدريس من الإيطاليين، والدكتور موربورجو الذى كان أول مدير لـ "مستشفى فرانكو" فى الإسكندرية، الذى أسسته فى ١٨١٧ جماعة من الإيطاليين وكان رئيسه جوزيبى أتشيربى حتى ١٨٣١، وخلفه بعد ذلك إيطالى آخر هو أنيبالى روسيتى، والدكتور جراس بلس الذى كان جراحا فى مستشفى البحرية فى الإسكندرية وبعد ذلك، فى ١٨٤٠، مفتشا للهيئة الصحية المصرية، والدكتور لوريا، الذى كان رئيسا للمستشفى المركزى فى القاهرة.

وكان مهما بالقدر نفسه تعاون العناصر الإيطالية فى تنظيم الجيش المصرى. فقد كان طاقم العاملين فى الترسانة الحربية البحرية فى الإسكندرية إيطاليا بالكامل تقريبا، كما كان مديرو مسبك المدافع ومصانع الأسلحة والذخائر فى القاهرة من الإيطاليين. وكان كذلك المدربون الإيطاليون فى جيش وبحرية محمد على. وسنذكر من بين الآخرين الكولونيل سيلفيا، والكولونيل مازى، والكابتن إياكارينو (وهذا الأخير كان مدربا على بارجة الأدميرال)، والضباط المهندسين ألبرتينى وديل كاريتو وورومى، الذين وضعوا الخطط التى سمحت لإبراهيم باقتحام قلعة سان جوفانى داكرى، التى قاومت وانتصرت على نابليون.

وفى القطاع المدنى، سنذكر بصفة خاصة، من بين الذين كانوا أهلا للكفاءة

والتقدير من الإيطاليين فى هذه الفترة الأولى المهندس فرانشيسكو مانتشينى، الذى كلف فى١٨٣٢ بمهمة إعداد الخطة المنظمة للإسكندرية، والتى اتخذت المدينة بفضلها مظهرا حضاريا حديثا، والإيطالى فاسكارينى، مدير الترسانة البحرية فى بولاق، والذى قدم فى ١٨١٠، فى فترة وجيزة للغاية، الأجزاء المفككة للسفن التى استخدمها محمد على لعبور البحر الأحمر فى الحملة ضد الوهابيين، وعلماء الآثار جوفانى باتيستا بلتسونى وجوفانى باتيستا كافيليا، وبرناردو دروفيتى وألساندرو ريتشى، المعروفين بأعمالهم فى صعيد مصر، وعالم المصريات اللامع إيبوليتو روز يللينى، المساعد المباشر لشامبليون، والمهندس مازى، الذى شارك تحت حكم محمد على فى حفر قناة الإسكندرية الملاحية وأسس فى ١٨١٨ مدرسة المساحة فى بولاق (القاهرة)، ولورنتسو مازى، الذى أدخل فى مصر فى ١٨٢٠ أول شكل لسجل الأراضى الممسوحة.

ويرجع الفضل للمبادرة الإيطالية الاستثنائية فى الخدمات البريدية المصرية الأولى فى الإسكندرية فى ١٨٢٠، والمرتبطة بأسماء كارلو ميراتى وجاكومو موتسى، فى القاهرة (١٨٤٠) والمراكز الصغرى الأخرى. والكلمات الإيطالية على أول طوابع بريد مصرية هى دليل مباشر على هذا الوجود البارز. وكانت الإيطالية، علاوة على ذلك، لغة رسمية للخدمات البريدية، حتى مرسوم ١٨٧٦ الذى أدخل استخدام الفرنسية.

ولا ننسى العمل الإنسانى والمدنى الذى قامت به بكثير من إنكار الذات مختلف الجماعات الدينية الإيطالية (وبعضها كان موجودا فى مصر منذ عدة قرون) التى انتشرت وتأكدت بصورة حاسمة فى كل مكان من الأرض المصرية خلال القرن التاسع عشر.

وقد جاء بعد هذا الفريق من الإيطاليين، بداية من النصف الثانى من القرن الماضى، بعد فترة توقف دامت ست سنوات، تزامنت مع نيابة الملك عباس الأول (١٨٤٨ - ١٨٥٤) جاء تدفق من المهاجرين، على جانب كبير من الأهمية، رفع

عدد الجالية الإيطالية فى مصر من ستة آلاف نسمة فى ١٨٢٠ إلى ٥٢ألف نسمة تقريبا فى ١٨٩٩، حتى وصل العدد إلى ذروته التى بلغت ٥٢٤٦٢ فى ١٩٢٧.

ولم يكن الأمر يتعلق بهجرة جماعية من نوع الهجرة التى اتجهت نحو الأمريكتين، ولكنها كانت هجرة تدريجية ومنظمة وانتقائية بصفة خاصة، مع عدم وجود أى حافز لتدفق الأيدى العاملة غير المؤهلة أو قليلة التأهيل نظرا لوفرة الأيدى العاملة المحلية ورخص ثمنها. وقد كان الإيطاليون الذى استقروا فى مصر فى الفترة المذكورة بالفعل، فى جانب كبير منهم، من الفنيين والحرفيين والتجار وصغار رجال الصناعة والموظفين الصغار وكبار الموظفين والقضاة وبصفة خاصة أصحاب المهن الحرة (المحامين والمدرسين والأطباء والمقاولين والمهندسين والمهندسين المعماريين... إلخ) الذين وجدوا فى النظام الليبرالى فى مصر الأرض الملائمة للقيام بأنشطتهم وتعزيزها.

وقد قدم عمل هؤلاء الإيطاليين الجدير بالتقدير إسهاما لا يقدر بثمن من الحضارة وترك بصمة دائمة كل قطاعات الحياة فى البلاد التى استطاعت استقبالهم بصداقة وتعاطف ملىء بالثقة.

هــوامش

(١)فرديناندو برات،Napoleone e l´oriente، ميلانو، ١٩٤٤، ص ١١٢

(٢)للحصول على تاريخ مفصل وموثق لحملة نابليون فى مصر، المشار إليها هنا فى خطوطها العامة جدا فقط على سبيل التمهيد، راجع بصفة خاصة، علاوة على الدراسة المذكورة لـ ف. برات، تشارلز روكس.

L´Angletrre et l´expédition française en Egypt

القاهرة، ١٩٢٥، هـ. دهران،

L´expédition du céneral Bonaparte

باريس، ١٩٢٤؛ م. ج. بينفيل

L´expédition française en Egypte

(١٧٩٨- ١٨٠١) فى Précis de l´istoire d´ Egypte, المجلد الثالث، القاهرة، ١٩٣٣؛ كارلو چيليو:

La question egiziana del 1798 al 1841,

فى Oriente Moderno، العدد ٢٣، ١٩٤٣، ص ٤٥٥-٥٠٠.

(٣) القلعة هى قلعة واقعة على هضبة تطل على مدينة القاهرة.

وقد دعا محمد على المماليك لهذه القلعة بحجة الرغبة فى المصالحة على وليمة قتلهم جميعا خلالها على أيدى جنوده. ويقال ان واحدا فقط من المماليك الموجودين نجح فى الهروب من المذبحة ونشر الخبر بعد أن قفز بحصانه إلى ساحة القلعة.

(٤) بعض المصادر تعتبر أن إبراهيم ابن محمد على بالتبنى.

(٥) ولكن الجزء الرئيسى من الاتفاق لم يكن ذلك المتعلق بسياسة القوتين تجاه الصراع التركى المصرى، بقدر ما كان متعلقا بالجزء الآخر الذى كان يقر مبدأ حرية مرور السفن الحربية للقوتين عبر مضيقى البسفور والدردنيل، فى مخالفة صريحة للمبادئ التى أقرتها معاهدة هونكار إسكليزى.

(٦) هذه الوثيقة، المعروفة باسم "معاهدة البحر الأسود"، بعد أن ألغت، بتعليمات جديدة، المواد ١١

و ١٣ و ١٤ من معاهدة باريس لعام ١٨٥٦، أقرت في المادة الثامنـــة أن: "الأطـــراف العليـــا المتعاقدة تجدد وتؤكد جميع اشتراطات معاهدة ٣٠ مارس ١٨٥٦، وكذلك ملحقاتها، التي لـــم تلغ ولم تعدل بهذه المعاهدة".

(٧) بالنسبة لنص الاتفاقية راجع هـــ. لامبا،

Droit puplic et administrative de l'Egypte,

القاهرة، ١٩٠٩، ص ٦٠١-٦٠٣.

الشرق الحديث
الوثائق الدبلوماسية المتعلقة بمحمد على وأرشيفات الدولة الإيطالية

أنجلو سان ماركو

فى معركة أبو قير فى ٢٥ يوليو ١٧٩٩، حيث قضى نابليون تقريبا علـــى الجيش المرسل من الباب العالى ضد الغزو الفرنسى لمصر، حارب فى صـــفوف القوات التركية محمد على. وقد كان برتبة بنباشى (رائـــد)، وكـــان يقـــود القـــوة العسكرية فى قطاع كافالا (كافاله) فى مقدونيا حيث ولد منذ ثلاثـــين عامـــا، فـــى ١٧٦٩. وفى ذلك الصدام، الذى كان مدمرا للجيش العثمانى، قام الحـــاكم القـــادم لمصر بواجبه بشجاعة، ولكنه هزم فى البحر وأوشك على الموت غرقـــا. وفـــى أعقاب الحملة قدم محمد على براهين على المقدرة والشجاعة، حتى إنه رقى إلـــى رتبة جنرال عندما اضطر الفرنسيون لترك مصر.

وقد أستأنف محمد على ونفذ المخطط العبقرى لبعث مصر، الذى صممه ولم يستطع تنفيذه نابليون، ويمكن أن يعتبر محمد على هذا الجانب هو المنفـــذ لوصـــية نابليون والمؤسس الحقيقى لمصر الحديثة. ولكن قبل أن ينجح فى ذلك، كـــم مـــن المخاطر الرهيبة أضطر لمواجهتها، وكم من المصاعب التى لا يمكن تجاوزها كان مضطرا لاجتيازها ! ويرى بول مورييه، الذى كتب واحدا من أكثر الأعمال دقـــة عن محمد على، أن حاكم مصر أقل فقط من نابليون من حيث تفوق عملـــه كغـــاز وسياسى، وأن الظروف التى عمل فيها نابليون[١]. وربما لا يوجد مثال آخر على الموقع السياسى الرفيع الذى تطلب للحصول عليه والحفاظ عليه كما ممـــاثلا مـــن العمل وإنكار الذات والدهاء[٢].

إن فوضى البؤس الذى سقطت فيه مصر عند رحيل الفرنسيين يتحـــدى أى وصف. ويصرح القناصل فى ذلك العهد بأنهم غالبا ما كانوا يقفون دون مســـتوى الحقيقة حتى لا يبدو وصفهم غير محتمل. وأصبح المماليك الذين كانوا قد حكمــوا البلاد دائما كمستبدين أفظاظ وعنيفين، أصبحوا أيضا أشد قسوة، بسبب الكفاح الذى كانوا يخوضونه ضد الباب العالى، الذى كان يريد بكل السبل التخلص منهم. وإلى جانب الشرور التى كان يجلبها هذا الصراع على السكان، كانت تضـــاف مظـــالم الأرنؤوط والألبان وسلب ونهب البدو. ووسط كثير من الفوضى والقمع الخطيـــر، اتخذ محمد على موقف المدافع عن الشعب، واكتسب بالتدريج يوما بعد يوم، مزيدا من المكانة، حتى استولى على السلطة العليا. وفى يوليو ١٨٠٥ عينه الباب العالى باشا، لأنه اعترف به على أنه الرجل الوحيد القادر على وقف تلـــك الحالـــة مـــن الصراعات والمذابح التى لا تحتمل. وبعد أن نجح فى هـــذا العمـــل الكبيـــر مـــن المهارة، قام بعمل أكثر صعوبة، وهو البقاء على عرش، ربما يكون أضعف عرش على الإطلاق، من خلال حكومة قوية ومستنيرة. ومن الفوضى والانحطاط الـــذى كانت فيه مصر، استطاع أن يقيم فى بضع سنين دولة تتمتع بصورة مطلقة بالأمن والأمان وهى أولى متطلبات الدولة المتحضرة. ثم نهض بهذه الدولة لتصبح قـــوة تسمح لنفسها بمد أراضيها على نطاق واسع وتمارس نفوذا هائلا علـــى الأحـــداث السياسية والعسكرية فى عصره. فقد استطاع بالفعل تكوين قوة عسكرية قوية فـــى الأرض والبحر، منظمة على الطريقة الأوروبية، أسس بها إمبراطورية شاســـعة، كانت تمتد فى ١٨٣٣ من تاورو فى آسيا الصغرى إلى حدود الحبشـــة. وتجاســـر مرتين على مواجهة الإمبراطورية التركية، على الرغم من أن هذا كـــان بمســـاندة القوى الأوروبية الكبرى، وأوقع بها دائما هزائم جسيمة، من بينها اثنتان مهينتـــان جدا، وهما هزيمة قونيه (٢١ ديســـمبر ١٩٣٢) وهزيمـــة "نصـــيب" (٢٤ يونيـــو ١٨٣٩). وكانت هذه الانتصارات ستسمح لنائـــب ملـــك مصـــر، بمســـيرة إلـــى القسطنطينية، لو لم تتدخل القوى الكبرى الأوروبية، التى كانت خائفـــة جـــدا مـــن التصفية النهائية للهيمنة التركية. وبسبب هذا التدخل اضطر محمد على، الذى كان

يطمح فى استقلال كل الأراضى الشاسعة التى استولى عليها، إن لم يكن الاستقلال الكامل، اضطر للرضا فقط بالملكية الوراثية لمصر والسودان تحت السيادة العليا للباب العالى (١ يونيو ١٨٤١). وقد كان محمد على مختلفا تماما عن الطامحين المبتذلين، فلم يستخدم سلطته من أجل إرضاء شخصى أنانى، ولكنه اعتبره واستخدمه كوسيلة لتنفيذ المخططات الكبيرة التى صممها لنهضة مصر. وهو أمر يدعو للإعجاب بصفة خاصة فى ملك شرقى. ولأكثر من أربعين عاما عمل محمد على بنشاط لا يعقل لنقل مصر إلى مصاف الدول المتحضرة: الجيش والخدمات الصحية والإدارة والماليات والتعليم العام والمدرسة العليا للطب والصناعة والزراعة، كل شيء أنشئ وأصلح من الأساس ببعد نظر من الأفكار وروح التسامح. ويظهر سمو رؤاه فى الحماية التى خص بها المسيحيين من كل المذاهب وفى ضمه لخدمته أشخاصا قادرين دون أى تمييز فى الدين.

وكان هذا العمل الحضارى لمحمد على مليئا بنتائج هائلة أيضا فى المجال العلمى. فبدون الأمن والأمان اللذين أقامهما محمد على، كانت مصر ستظل لوقت طويل بعيدة عن الرحالة والباحثين، ولتأخر لسنوات طويلة كثير من الاكتشافات الأثرية المهمة والمعارف التاريخية. ومن السنوات الأولى لحكمه، استطاع عدد كبير من علماء الآثار والجغرافيين وعلماء التاريخ الطبيعى أن يجوبوا البلاد فى جميع الاتجاهات بحرية، فوصلوا حتى النوبة والسودان وواحة سيوة. بل إن الكثير من الاستكشافات العلمية شجعها وساندها محمد على الذى أسهم بهذه الطريقة، وكذلك عن طريق الحملات العسكرية، فى توسيع المعرفة الجغرافية والتاريخية لمصر والدول المجاورة. وفى هذا المجال ظهر عمل الإيطاليين لامعا حقا، فأثناء السنوات الأولى من حكم محمد على قام درفيتى وبيليتسونى وريتشى وبروكى وكافيليا وسيجاتو... إلخ، بأبحاثهم المتنوعة للغاية فى مصر. وجدير بالذكر أن هذا العام يوافق مرور قرن، منذ أنهت البعثة الفرنسية ــ التوسكانية دراساتها فى علم المصريات فى وادى النيل، والتى رحب بها محمد على وساعدها بتشجيع كبير. ومن بين منجزاته فى المجال العلمى يجدر بنا أن نشير بصفة خاصة للإسهام

الفعال للغاية الذى قدمه من خلال رحلته إلى السودان (١٨٣٨ـ ١٨٣٩) والبعثات الثلاث التى أرسلت إلى النيل الأبيض (١٨٣٩ـ ١٨٤٢) لحل مشكلة منابع النيل القديمة.

لم تكتب إذن حتى الآن أدبيات ثمينة وعلمية حقا، حول تاريخ هذا الحاكم، الذى كان عمله عبقريا وخصبا جدا، فى حين تراكمت عن رجال دولة أقل أهمية كتابات لا حصر لها. وليس هذا لنقض الأعمال التاريخية عن حكم محمد على، فهى موجودة، وبعضها أيضا قيمة مثل تلك التى ذكرها مورييه ومينجان، والتى يمكن أن نضيف إليها دراما أ. دى كادالفين وأ. بارو حول الأزمتين المصريتين ـ الشرقيتين فى ١٨٣٢ـ ١٨٣٣ و ١٨٣٩ـ ١٨٤٠[1]. ولكننا لا نزال بعيدين عن امتلاك أعمال ترتسم فيها الصورة الحقيقية لمحمد على، وتدرس عمله وتعيده إلى الأذهان باتساع ودقة. ومثل هذه الرواية لن نحصل عليها إلا إذا استطعنا الاستفادة من أرشيفات مصر وتركيا والمراكز الرئيسية فى أوروبا، فحكم محمد على لم يكن العامل الأساسى لمصر الحديثة فحسب وعنصرا بالغ الأهمية فى تاريخ تركيا، ولكنه دخل أيضا ليشكل جزءا من السياسة الأوروبية بنشاط كبير، بل إنه أحيانا ما كان يشكل اهتمامها الرئيسى. ولكننا إذا لم نحظ بالمصادر الحقيقية والرسمية لكل الدول التى مسها العمل الشاسع الذى قام به ملك مصر، فلن يكون من الممكن ذلك الفحص للأخبار وذلك البحث المتعمق لها، وهو ما يتضح من مقارنات عديدة، ويسمح بأن نرى الأمور على حقيقتها الدقيقة والشعور بها فى قيمتها الفعلية. ولكن تاريخ محمد على حتى الآن كتب من خلال انطباعات بعض الرحالة وأعمال منقولة عن آخرين، ولم يفكر أحد أبدا فى رواية تاريخ نهضة مصر طبقا للقاعدة الأولى والأساسية فى المنهج التاريخى، أى على أساس الوثائق الأصلية، المجموعة بنظام والمفحوصة نقديا. وحتى الوثائق التى تكتظ بها أرشيفات القلعة فى القاهرة والتى كان يجب أن نفكر فى أنها تضم التاريخ الحقيقى لأصول مصر الحديثة، لم يستفد منها أحد أبدا.

وأخيرا هناك من يوشك أن يجد علاجا لهذه الحالة من الأمور التى تدعو

للأسى. فملك مصر الحالى، فؤاد الأول(*)، ابن حفيد محمد على المباشر، خطط أيضا للاستكشاف المنظم للأرشيفات الدبلوماسية ليس فى مصر وتركيا فحسب، ولكن فى كل الدول الرئيسية فى أوروبا، لجمع ونشر الوثائق المتعلقة بحكم محمد على، بين الإصلاحات الحضارية التى يدخلها بحذر والمبادرات الثقافية الكبيرة التى شجعها وساندها بسخاء من أجل تقدم مصر. وهى عملية هائلة، ولكنها لا تعلو إرادة وعظمة الملك. والوثائق التركية، الموزعة فى المخزنين الكبيرين فى قصر عابدين الملكى والقلعة بالقاهرة، يجرى فرزها وتصنيفها حاليا فى مكتب الترجمة فى قصر عابدين الملكى تحت إدارة ج. دينى، أستاذ اللغة التركية فى مدرسة اللغات الشرقية الحية فى باريس. ويجرى الإعداد لجرد إجمالى لها، وسينشر باللغة الفرنسية، وهناك حصيلة كبيرة من الوثائق المتعلقة بحروب إبراهيم باشا وغيره من الجنرالات المصريين جمعت وهى تحت الطبع.

والوثائق المأخوذة من أرشيفات وزارة الخارجية فى فرنسا وإنجلترا فى طريقها للنشر، وقد ظهرت خمسة مجلدات من إعداد المؤرخين الفرنسيين إدوارد دريو وجورج دوان، فى ثوب طباعى جميل. وقد صدرت المجلدات كما ستصدر الأخرى كلها، عن "الجمعية الملكية للجغرافيا" فى القاهرة، فى مجموعة تحمل عنوان "المطبوعات الخاصة تحت رعاية صاحب الجلالة فؤاد الأول"، وقد أسسها أدولفو كاتانى وقام بإدارتها حتى وفاته. وقد عهد بالمجموعة الآن لرعاية السكرتير الحالى للجمعية، هنرى مونييه، الذى يعد قائمة مراجع معقولة لتاريخ ملك محمد على. والوثائق منشورة فى طبعة إضافية وتكمن أساسا فى التقارير التى كان القناصلة والسفراء فى مصر يبعثون بها إلى حكوماتهم حول الشئون المصرية وكثير من التقارير الفرنسية، ومن بين أهم التقارير، يرجع إلى الإيطالى برناردينو دروفيتى (١٧٧٦ـــ ١٨٥٢) الذى أدار لسنوات طويلة القنصلية الفرنسية فى مصر. وكل مجلد من مجموعة الوثائق يضم مقدمة، توضح الإسهام الجديد الذى تحمله

(*) كان هذا وقت كتابة المقال.

للمعرفة التاريخية. وفى الملحق هناك جدول تحليلى للمواد يجعل من السهل الرجوع إليه. والمجلدات الخمسة التى ظهرت حتى الآن تغطى الفترة من ١٨٠٢ إلى ١٨٢٣، وتلقى عليها ضوءا جديدا[٣].

وفى هذه المجموعة الكبيرة من المصادر التى ستقيم تاريخ محمد على، على أسس متينة، ستظهر أيضا الوثائق الإيطالية، بل إنها ستحتل جزءا كبيرا، إن لم يكن الجزء الأكبر. وقد أخذت من أرشيفات الدولة الإيطالية نسخ التقارير الدبلوماسية الخاصة بحكم محمد على، وهناك الآن كمية كبيرة من الوثائق، ما يقرب من عشرة آلاف، قادمة من أرشيفات الدولة فى نابولى، وفلورنسا، وتورينو، وفينسيا، وفيينا، ومراكز أخرى أصغر، توجد محفوظة فى المكتبة الملكية فى قصر عابدين. وقد أدار المجموعة بنشاط ذكى المرحوم أوجينيو جريفينى بك[٤]، وقد كلف الكاتب باستكمالها ودراستها ونشرها.

وقد قام ببحث ونسخ الوثائق، تحت الإشراف المباشر للمشرفين على الأرشيفات أنفسهم، أشخاص مثقفون ومؤهلون بصفة محددة، قاموا بكفاءة ونشاط بعمل دقيق ويتطلب صبرا. وفى نابولى كلف الدكتور الفارس فينتشنسو موريللى، الأرشيفى الأول، وفى فلورنتا الدكتور جوفا تشيللينى، الأرشيفى الأول، وفى تورينو الكونت ألفونسو ديللا كييزا، وفى فيينا بدأ العمل الدكتور أوتو برونر، والآن يكمله، على الرغم من أنه لم يكتمل بعد، الدكتور فريتز أنطونيوس. وهناك نية للعمل على استكشاف مراكز أخرى أرشيفية وأيضا أرشيفات خاصة، حيث لا يزال هناك أمل فى العثور على مادة مهمة، وقد سمح الفحص لأوراقنا، ثم بعناية لعدة شهور، والمقارنة مع الأوراق الأخرى المنشورة بأن نؤكد بيقين أن الوثائق الإيطالية تمثل مصدرا لا ينفذ من الأخبار القيمة عن حكم محمد على، وأن نشرها سيؤدى إلى توضيح وتحديد، وفى بعض الحالات، تجديد تاريخ الحاكم الكبير.

وطوال كل تلك الفترة كان ممثلو مختلف ولايات إيطاليا غالبا رجالا يتسمون بالتزام كبير وحصافة رفيعة. وأرسلوا لحكوماتهم تقارير مسهبة ودقيقة تصف

أحداثا وظروفا لبعض الأمور بحيوية وحصافة. وعلاوة على ذلك، ونظرا لتنوع ولايات إيطاليا فى ذلك الوقت وما يترتب على ذلك من تعدد التقارير الدبلوماسية عن الأحداث نفسها، فإننا من الممكن أن نقيم مقارانات مفيدة للغاية بين مختلف المعلومات، وهكذا يصبح من الممكن تحديد الأحداث بدقة وتعميق معناها. بل إن الممثلين الدبلوماسيين الأوروبيين وحدهم ولعدة سنوات ومن أهم سنوات تكوين محمد على، كانوا إيطاليين على درجة كبيرة من النشاط والذكاء: برناردينو دروفيتى وكارلو دى روسيتى (١٧٣٦-١٨٢٠) الذى ذكر من قبل.

وقد مثل دروفيتى فرنسا، كما ذكرنا، بداية من ١٨٠٣، وتنشر تقاريره المكتوبة بالفرنسية، حاليا، فى مجموعة الوثائق الفرنسية. وكان دى روسيتى قنصل فينيسيا خلال السنوات الأخيرة من الحكم التركى، وبعد هزيمة جمهورية فينيسيا فى ١٧٩٧، أصبح ممثلا للنمسا وبعض الولايات الإيطالية وأيضا لروسيا. وبالتالى فقد كان دى روسيتى قنصلا فى مصر عندما كان دروفيتى لم يأت بعد ولم يكن لإنجلترا ممثل مستقر؛ ولبعض الوقت عهدت إنجلترا بشئونها أيضا لدى روسيتى، الذى وجد نفسه هكذا القنصل الوحيد الأوروبى، المقيم فى مصر بين نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر. ودى روسيتى هو آخر ممثل كبير لجمهورية فينيسيا المجيدة، وهو يتميز بذكاء حاد وطبع مرن ونشاط كبير، وقد تمتع بنفوذ كبير لدى آخر المماليك، وخاصة لدى على بك (١٧٦٦-١٧٧٣) ومراد بك (١٧٧٩-١٨٠١) اللذين لجأ كل منهما إليه بسبب مفاوضتهما مع القوى الأوروبية. وأثناء الغزو الفرنسى وفترة الفوضى التى أعقبته، وجد دى روسيتى نفسه ممتزجا بالأحداث الرئيسية واستفاد من سلطته للدفاع عن الجالية الأوروبية. وقد كان يحظى بتكريم كبير من نابليون، حتى إن الجنرالات الفرنسيين دهشوا من ذلك. وقد تمتع أيضا بكثير من المصداقية لدى كليبر، الذى استخدمه لإبرام اتفاقية مع مراد بك، ومحمد على فى فترة الصعود الصعب الذى استفاد من عمل دى روسيتى، الذى يحتفظ بين أوراقه أيضا بخطاب كتبه له محمد على بتاريخ ٢٣ يونيو ١٨٠٥.

وعندما تولى السلطة، عين محمد على دى روسيتى مستشارا مقربا وموثوقا فيه، واستشاره دائما بشأن الإصلاحات التى كان يريد إدخالها. وكما نـــرى، شـــهد روسيتى لما يقرب من نصف قرن، وشارك فى العديد من التحولات، بل إنه كمـــا يقول هو نفسه بتعبير ينبض بالحياة، كنت مغمورا فى مصر وأنا أتعــرض لمــدها وجذرها المستمر.

ونظرا لندرة الوثائق فى تلك الفترة، المتشابكة جدا، عند نهاية هيمنة الحكـــام المماليك وبداية سلطة محمد على ونظرا لاتساع وعمق تقارير دى روسيتى، فإننـــا يمكن أن نقول إن هذه تمثل أحد المصادر القيمة للتاريخ المصرى فى نهاية القـــرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. وربما لا تكون هناك مصـــادر دبلوماســـية أخرى ترسم بالوفرة نفسها فى التفاصيل وبإبراز درامى عن أحداث تلــك الفتــرة السعيدة(١).

وتوجد تقارير دى روسيتى السياسية كلها فـــى أرشـــيفات البيـــت الملكـــى والإمبراطورى، فى المحكمة وفى دولة فيينا، لأنه عندما كان دى روسيتى مكلفـــا أيضا بشئون بعض الولايات الإيطالية مثل دوقية توسكانا الكبرى ودوقية لومبارديا وفينيسيا، بسبب التبعية السياسية لهذه الولايات تجاه النمســـا، كانـــت ترســـل إلـــى فلورنسا وفينيسيا تقارير تجارية فقط – ولم تكـــن التقـــارير السياســـية للقنصـــل النمساوى فى مصر قد أرسلت مباشرة إلى فيينا، ولكنها أرسلت لســـفير الفاتيكـــان النمساوى فى القسطنطينية، الذى كان يجمع تقارير القناصل النمساويين فى الشرق، الذين كانوا يتبعونه، وكان يرسلها بعد ذلك إلى فيينا مع ملاحظاته. والآن، فى حين كانت تقارير السفير البابوى وتقارير القناصـــل التـــابعين المكتوبـــة بالفرنســـية أو الألمانية قصيرة جدا غالبا، فإن التقارير القادمة مـــن مصـــر، والمكتوبـــة أيضـــا بالإيطالية، كانت مسهبة جدا ومكدسة بالأخبار.

وبعد وفاة دى روسيتى، استمرت القنصلية النمساوية فى العمل تحـــت إدارة الإيطاليين، ومن بينهم بصفة خاصة جوزيبى أتشيربى مانتوفـــا الشـــهير (١٧٧٣-

١٨٤٦) وهو رحالة وكاتب مرموق. ومن المعروف أن أتشيربى كان مؤسسا لمجلة La Bibbioteca Italiana المعروفة. وأثناء إقامته الطويلة فى مصر (١٨٢٦ــ١٨٣٥) أرسل أتشيربى للمجلة مراسلات تبين وتكمل رسائله. وقد خطط لأن يجمع فى مجلد واحد تلك المراسلات، التى يمكن اعتبارها تقريبا كما لو كانت لم يسبق لها النشر، لأنها حتى الآن غير معروفة ونادرا ما استخدمت لأغراض المعرفة التاريخية، وقد دفنت كما هى فى المجلدات الكثيرة والنادرة فى المكتبة الإيطالية.

ويحتفظ لأتشيربى، علاوة على ذلك، فى المكتبة البلدية فى مانتوفا، بالمخطوطات التى لم يسبق لها النشر والخاصة بعمل كبير فى علم المصريات والمراسلات، وفى هذه خطاب لشامبليون، يبين التقدير الكبير الذى خصه به لحله شفرة الكتابات الهيروغليفية. وسيتم الرجوع لهذه المصادر، وإذا اعترف بأهميتها فإنها ستنشر.

وبعد أوراق فيينا تأتى، من حيث الترتيب الزمنى، أوراق مملكة الصقليين التى أسست قنصلية لها فى مصر فى ١٨١٢. وتبدأ المراسلات من ذلك التاريخ، ولكنها تصبح بالفعل منتظمة وغزيرة فقط مع ١٨١٦، أى عند عودة البوربون إلى نابولى بعد استعادة الحكم عام ١٨١٥.

وقد كانت وثائق نابولى أكثر غزارة من وثائق كل الولايات الأخرى، ولإعطاء فكرة عن ذلك بالتقريب سنقول إنها شكلت كومة أعلى من متر. وهى تتضمن أخبارا دقيقة وحصينة بالنسبة لكل ما يقال عن النشاط السياسى والعسكرى والاقتصادى فى مصر. ويوضح عمل محمد على فيها من خلال التعليق رجل ذكى ومحايد، هو ريكاردو فانتوتسى، قنصل السويد قبل ١٨١٢، ثم القنصل البوربونى أثناء كل حكم محمد على تقريبا. وفى المراسلة نجد مرفقات ثمينة: بيانات عسكرية، وقوائم الأسعار فى السوق وأخبارا إحصائية، وفقرات من صحف العصر، ومشروعات تشريعية فى مجال الضرائب وأخبارا عن الآثار والفنون الجميلة... إلخ.

وكانت الرسائل الخاصة بحملة اليونـــان (١٨٢٣-١٨٢٨) عديـدة وغنيـة بالمعلومات، وعلاوة على ذلك هناك تقارير لمبعوثين خاصين فى معسكر إبـــراهيم عن الحملة الأولى فى سوريا.

وقد كتبت أيضا تقارير القنصل البوربونى فى القسطنطينية، وهـــى توضـــح جيدا جدا الحرب الذكية المصرية عند اندلاعها وفـــى تطورهـــا وفـــى مرحلتهـــا الحاسمة.

وأخيرا يجب أن نلاحظ أن أرشيف نابولى كان يضم مكتبة، كان يـــتم فيهـــا فرز أشهر المجلات والصحف الأوروبية بمعيار حديث جدا وكانت تجمع وثائق من مصادر غير دبلوماسية على سبيل المثـــال، العديـــد مـــن الخطابـــات الخاصـــة، واليوميات، وقد أخذت عن هذه المصادر أيضا بصورة مناسبة جدا جميـــع النســـخ فيما يتعلق بمصر، وهى تمثل عناصر مفيدة مكملة للتقارير القنصلية، ولن يفوتنـــا نشر أهمها.

ولم يرسل أى أرشيف آخر وثائق من هذا النوع. وتشكل وثـــائق أرشـــيف الدولة فى فلورنسا فى مجموعها كما يقل قليلا عن وثائق نابولى. ونظرا لأحـــداث توسكانا التاريخية، فإن الفترة من١٨٠٠ إلى ١٨٥٠ تعد فجوة كاملـــة تقريبـــا، لأن السياسة الخارجية لتوسكانا فى تلك الفترة كانت تقوم بها إســـبانيا أثنـــاء الســـيطرة البوربونية (١٨٠١-١٨٠٧)، ثم فرنسا طوال كل الســـيطرة النابليونيـــة (١٨٠٨-١٨١٤). وبعد العودة إلى الحكم كان التمثيل الدبلوماسى فى مرحلة أولى مشـــتركا مع النمسا، كما أشرنا، ولكن الأعمال بقيت منفصلة، وفى سلاسل المراسلات مـــع الممثلين الدبلوماسيين والقنصليين هناك العديد من الأخبار المتعلقة بمصر.

وبعد ١٨٢٢، كان هناك بعد ذلك سلك قنصلى حقيقى من توســـكانا، وزادت الأعمال التجارية. ومن بين أوراق فلورنسا هناك تقارير قنصلية من القسطنطينية، وقد كتبها لفترة معينة (١٨١٥ــ ١٨٣٤) ممثل قنصلى نمساوى فى القســـطنطينية، مثل التقارير السابقة، ثم مكلف بالأعمال من توسكانا بعد ذلك، بـــل إنـــه بالنســـبة

للسنتين ١٨٣٣ـ١٨٣٤ كانت هناك تقارير الممثلين. ومن الواضح أن المكلف بالأعمال التوسكانى قام بفترة تجربة تحت إدارة الممثل النمساوى، الذى كان البارون ستورمر الشهير، والمبعوث غير العادى والوزير المفوض لدى الباب العالى. وكل هذه المراسلات من القسطنطينية لها فائدة كبيرة جدا لاستكمال المعلومات القادمة من مصر والتحقق منها.

وجدير بالذكر أن الوثائق التوسكانية، بخلاف كل الوثائق الأخرى، تنقسم إلى سلسلتين: إحداهما هى سلسلة شئون البروتوكول العام لوزارة الشئون الخارجية، وتتعلق بالقضايا الناشئة عن التقارير المباشرة والسياسية والتجارية بين مصر وتوسكانا، أو مواطنى توسكانا المقيمين فى مصر. وهذه الأوراق له قيمة خاصة بالنسبة لتاريخ مصر، ولكنها مهمة بصفة خاصة بالنسبة لمعرفة الهجرة والنشاط الإيطاليين، وقد أعيد ترتيب مختلف الملازم بالكامل بدقة كبيرة مثل حبات المسبحة، أى بملخص يضم مسودات السكرتارية ويعطى إشارة لأداء العمل، مرفقا بها أيضا الوثائق القادمة للسكرتارية وخطابات المراسلين... إلخ.

وتتكون السلسلة من المراسلة السياسية الخاصة بالمعلومات لسكرتارية وزارة الشئون الخارجية، وهى الأهم من الناحية التاريخية لمصر، لأنها تسجل وقائع الأحداث، مع إعطاء أخبار كثيرة كانت آنذاك غير معروفة لمعظم الجمهور. وفى هذه السلسلة غالبا ما توجد بيانات الحركة البحرية للإسكندرية وأخبار صحية.

ونظرا لأهمية تجارة ليفورنو مع مصر، فإن الممثل التوسكانى كانت له مع هذه المدينة مراسلات خاصة، تكرر فى جوهر الأمر الرسائل نفسها المرسلة إلى فلورنسا، ولكنها تتضمن أيضا أخبارا مختلفة وأحيانا مهمة جدا.

وتبدأ وثائق أرشيف الدولة فى تورينو فقط من ١٨٢٥، وهى ليست كثيرة جدا، ولكنها تمثل فى المقابل أهمية من الدرجة الأولى. وقد كتب معظمها باولو تشيروتى، القنصل العام من ١٨٣٧ إلى ١٨٥٤، وهو رجل نشط جدا وذكى، وقد أملى تقارير تعد نماذج من نوعها. وخاصة حول أزمة القضية الشرقية الخطيرة

فى (١٨٣٨ ــ ١٨٤١) وتقدم هذه الأوراق كمية من الأخبار الدسمة والدقيقة، وتصور من الواقع الحى صراع النفوذ والمصالح بين مختلف القوى. وهناك رسالة بتاريخ ١٦ نوفمبر ١٨٤٠، حول نوايا ومصالح إنجلترا فى مصر تبدو وكأنها مكتوبة اليوم، لدقة الآراء والتوقعات، وعلاوة على ذلك فإن هذه الوثائق تزداد ثراء بالكثير من الوثائق الرسمية والمصادر الأخرى المهمة، التى تنقل باختصار أو بالكامل، وهناك بصفة خاصة العديد من خطابات إبراهيم باشا المعروفة بشأن الحملة الثانية ضد تركيا. وكذلك فإن هناك وفرة فى الأخبار المفيدة تتميز بها تقارير نائب القنصل القادم من بييمونتى روبرتو فيرنونى، الذى كان يقيم فى القاهرة. وكان القنصل العام يسكن الإسكندرية طبقا للعرف السائد بين ممثلى الدول الأخرى. وهناك تقرير طويل جدا يرجع ليونيو ١٨٤٧ ويمثل أهمية خاصة، فهو يتحدث بتفاصيل كثيرة عن الدراسات التى كانت تجرى لافتتاح قناة السويس والإسهام الضخم الذى شارك به فيها المهندسون الإيطاليون وكانت التقارير مؤثرة فى العامين ١٨٤٩، و١٨٥٠ حول نهاية إبراهيم ومحمد على وحول العلامات الأولى على تدهور عملهما تحت حكم خليفتهما.

وبفحص وثائق أرشيفات فينيسيا، نظل مندهشين من الضآلة وانعدام أى أهمية سياسية تمثلها. وهى تعنى فقط تقريبا بالشئون التجارية. وتتوقف المفاجأة عند دراسة وثائق فيينا التى تتعلق، كما أشرنا بالنسبة للجزء السياسى، ببعض الولايات الإيطالية أيضا، ومن بينها فينيسيا.

وعلى صعيد نشر الوثائق، اخترنا النظام الكرونولوجى البحت. وتظهر الخطة المنظمة، التى اتبعها بعض الباحثين، فى جمع الوثائق على شكل فصول ومجلدات، كل منها يتعلق فقط بموضوع أو قضية واحدة، وهى مشكلة استخلاص حدث وقضية من المجموع المتزامن للأحداث والقضايا الأخرى التى ترتبط بها فى علاقة من الاعتماد المتبادل. وبهذا النظام يمكن أن يحدث أيضا أن وثيقة تكون تاريخيا جزءا متكاملا لا ينفصل، تقسم إلى العديد من الأجزاء بعدد الأحداث أو القضايا التى تتناولها، على حساب الوضوح. ولكن الترتيب الكرونولوجى يعيد

طرح الوثائق كاملة وفى مكانها من الزمن، تاركين إمكانيـــة جمعهـــا وإعـــدادها للمؤرخين طبقا لأفكارهم وأهدافهم. ولتسهيل هذه المهمة سيكون كل جزء ملحق به فهرس وجدول زمنى للوثائق وسجل للأسماء. وبهذه الطريقة سيستطيع من يـــدرس قضية أو حدثا وليست لديه الرغبة أو الوقت لقراءته كله أن يبحث بســـهولة عـــن الوثائق التى تتعلق بموضوعه. وعلاوة على ذلك، سيسبق كل مجلد مقدمة، ستدرج فيها الوثائق وتوضح تاريخيا من خلال أهم الإسهامات التى جاءت بهـــا للمعرفـــة التاريخية. وسوف ترتبط مقدمات مختلف الأجزاء فيما بينها بحيث تشـــكل تاريخـــا كاملا لملك محمد على.

وبالمثل ستكون الفهارس والجداول الزمنية وسجلات الأسماء منصهرة فـــى نهاية العمل فى موضع واحد لتسهيل الرجوع إلى كل العمل، الذى يمكن أن يشـــمل ما يقرب من ثلاثين مجلدا يضم كل منها ثلاثمائة صـــفحة ويســـمح لنـــا الترتيـــب الكرونولوجى بإنهاء المجلد فى أى تاريخ، بحيث لا يبدو أكبر بكثير من أى مجلـــد آخر، ولكننا سنراعى أن نهاية كل مجلد ستتوافق مع تاريخ مهم.

وتبدأ المجموعة باللحظة التى ترك فيها الفرنسيون مصـــر (١٨٠١) علـــى الرغم من أن ملك محمد على بدأ مع ١٨٠٥، ولكننا لا يمكننـــا أن نفهـــم ونبـــرر تأسيس ملك محمد على سوى بمعرفـــة الســـنوات المضـــطربة للغايـــة ١٨٠١ – ١٨٠٥.

وبإلقاء الضوء على كم هائل جدا من وثائق سفارات الدولة لن نـــتمكن مـــن معرفة تاريخ محمد على فحسب، بل إنه سيبدو أيضا جديرا بمزيد من الإعجـــاب. وستبدو مواهبه كغاز وكسياسى أكبر حجما، وستزداد دهشتنا بصحة واتساع أفكاره وروح التسامح عنده. وسنرى أيضا أن كل عمله يسوده شعور نبيـــل مـــن الكـــرم الإنسانى، الذى لا يريد أن يعترف به الجميع الآن. وسيبدو محمد على، علـــى مـــا كان عليه بالفعل، الباعث العبقرى لمصر الحديثة.

وأخيرا يجدر بنا أن نبرز أن هذا النشر الواسع للوثـــائق، إذا كـــان يمثـــل بالنسبة لمصر تقدما فى معرفة الفترة الأساسية من تاريخها الحـــديث وشـــيئا مـــن

الإنصاف لذكرى بطل تلك الفترة، فإنه سيحمل إلينا الإيطاليون أيضا نتيجتين مماثلتين مفيدتين، فالأحداث المعروفة حتى الآن بصورة مبهمة عن تاريخ هجرتنا إلى مصر والتى شهدت فى النصف الأول من القرن الماضى زيادة نتيجة لظروف إيطاليا السياسية، ستعاد روايتها بدقة، وبالتالى سنعرف بصورة أفضل أيضا صفحة من نهضتنا. وعلاوة على ذلك، فإن الإسهام القيم الذى قام به مواطنونا، وهم رجال يتسمون غالبا بالفكر القوى والنشاط المتوهج، فى كل المجالات، تحت حكم محمد على لتجديد مصر، سيتأكد بجدية علمية. وسيتناول مجلد خاص هذا الموضوع، وسيكتبه كاتب هذا المقال بالتعاون مع إرنستو فيروتشى بك، المهندس المعمارى ورئيس القصور الملكية فى مصر.

هــوامش

(١) بول موريبه، Histire de Méhémet Ali، باريس، ١٨٥٨، المجلد١، انظر التالي.

(٢) فيلكيس مينجين

Histoire sommaire de l Egypte sous le gouverenment de Mohammed Aly(1823- 38)

باريس ١٨٣٩، ص ٢٣؛ وهذا العمل يلى الاخر للمؤلف نفسه:

Histoire de lEgypte sous le gouverement de Mohammed Aly

باريس، ١٨٢٣، مجلدان.

(٣) أ. كاد القيمة، أ. بارو,

Histoire de la cuerre de méhémet Ali en syrie et en Asie Mineure, 1832- 1833,

باريس، ١٨٣٦؛ المرجع نفسه

Deux années de lhistoire de lorient, 1839-1840,

باريس ١٨٤٠، مجلدان.

(٤) جورج دوان،

lEgypte de 1802 a 1804: cosrespondance des Consuls de france en Egypt

القاهرة، ١٩٢٥، المرجع نفسه،

Mohamed Aly pacha du Caire (1805-1807):Correspondance des consuls France en Egypt

القاهرة، ١٩٢٦؛ إدوارد دريو،

Mohamed Aly et Napoléon (1807-1814): Correspondance des consuls de France en Egypte

القاهرة، ١٩٢٥؛ المرجع نفسه،

Lormation de lempise de Mohamed aly: de laralere au Soudan (1814-1823)

القاهرة، ١٩٧٢؛ جورج دوران ومدام ا.س. فوتييه- جونز،

Langleterre et lEgypte: campagne de 1807 القاهرة، ١٩٢٨.

إلى جانب هذه المجموعات من الوثائق، نشرت في المجموعة أعمال رواية تاريخية، من بينها عمل كبير جدا ل ف. شارل- روكسى عن انجلترا الفرنسية في مصر.

(٥) ولد في ميلانو في ٢٦ ديسمبر ١٨٧٨، وتوفى في القاهرة في ٣ مايو ١٩٢٥. انظر بشأنه النعى الطويل و المتعقل ل ج. ليفى ديللا فيدا في Riviste degli studi Orientali، في روما،المجلد العاشر، ١٩٢٥، ص ص ٧٢٦-٧٣٠؛ س.ا. نالينو، في Rivrsta، في روما، العام الثانى، ١٩٢٥، ص ص ١٢٤-١٣٢؛ ج. ريكبيرى، في Rendiconti del R.Lstituto lomlasdo في ميلانو، المجلد الثامن والخمسون،١٩٢٥؛ و كتيب السناتور لوفا بلترامى،

Eugenio criffini Bey (MDCCCLXXVIII-MCMXXV)

ميلانو ١٩٢٦ (الذى راجعه، مع بعض التعديلات، س.ا. نالينو. في Oriente Moderns، العدد السادس، ١٩٢٦، ص ص٦٤٤-٦٤٥).

(٦) حول هذا الإيطالى العظيم، الذى كانت له أهمية كبيرة في فترة حاسمة من تاريخ مصر واشتهر بخدمة هذا البلد، لا يوجد أى عمل. ولد هذه الثغرة بصورة ما نقترح رسم صورة لسيرة دى روسيتى، في طبعة قادمة، على أساس الوثائق التى لم ينشر معظمها.

حول ترجمتين عربيتين
لرواية «الأمير» لماكيا فيللى

ماريا ناللينو

استرعى البروفيسور أنجلو سان ماركو، العارف المتعمق فى الوثائق الأرشيفية والمصادر الأوروبية التاريخية الأخرى عن مصر تحت حكم الباشا محمد على، استرعى انتباهى بصورة لطيفة لحقيقة أن هذا الملك (١٨٠٥ - ١٨٤٩)، بعد أن سمع عن رواية الأمير لماكيا فيللى، أراد معرفة هذا الكتاب، كما يتضح مما كتبه فى جريدة ج. ب. بروكى (١٧٧٢ - ١٨٢٦) للرحلات، "الجورنالى" ومن خطاب جوزيبى أتشير بى من مدينة مانتوفا (١٧٧٣ - ١٨٤٦)، والقنصل النمساوى فى مصر.

وقد كتب بروكى فى ١٣ يوليو ١٨٢٣(الجورنالى[1]، الجزء الثانى، ص٣٦٩ - ٣٧٠): "لقد تحدثت فى مواضع أخرى عن المطبعة التى أنشأها فى القاهرة الباشا الحالى، والكتب التى نشرت فيها. وهناك ترجمة إلى العربية لرواية الأمير لماكيا فيللى يقوم بها الآن د. رفائيلى، أستاذ اللغة العربية فى مدرسة بولاق بأمر من الباشا، الذى قيل له إن هذا الكتاب يتضمن "حكما متميزة فى السياسة"، ويعلم الحكام المستبدين فن الحكم. وقد تحول عنوان الكتاب الإيطالى إلى العربية "الأمير" ولكن ماكيا فيللى يعلم أميرا كيف يمكن أن يصبح طاغية بنعومة وفن، ولا أعرف مدى الحاجة لهذه الحيل عندما يحكم بالسيف، دون الاعتناء بالحفاظ على المظهر، والسير بصراحة فى الطريق المستقيم: Stat Pro rotione voluntas

وقد يكتب أتشير بى بدوره، فى خطاب[2] من فيينا بتاريخ ٢٠ ديسمبر

١٨٣٠، (المكتبة الإيطالية، T.LXI، ص ٢٨٩ - ٢٩٠): "سنجد أن من الغريب إلى حد ما أننا تحدثنا أيضا عن الكتب والأدب فى المحادثات العديدة التى سمحت بها إقامتى فى الإسكندرية وفى القاهرة مع الباشا محمد على نائب ملك مصر، ولكنك ستذهل ربما من الاستغراب عندما تعرف أن باشا مصر طلب خصيصا لنفسه ترجمة إلى التركية لرواية ماكيا فيللى "الأمير"، حيث كان يتوق لمعرفة موضوع كتاب تحدث عنه بعض الأوروبيين بإعجاب غير عادى.

"وفى إحدى محادثاتنا العائلية، التى لم تكن تتدخل فيها إطلاقا شئون العمل، تحدث معى تقريبا بالطريقة التالية، كما ترجم لى مترجمه. وقد حدث هذا فى القاهرة فى ١٨٢٨.

"إنكم تحدثون ضجة كبيرة عن كاتبكم ماكيا فيللى. ولقد عملت على ترجمته إلى التركية لأعرف ماذا يقول؛ ولكننى أعترف أننى وجدته دون توقعاتى ودون شهرته. وقد استولت على الدهشة أكثر عند قراءة عمل مكتوب أصلا بالعربية، ولكنه مترجم أيضا إلى التركية؛ وهذا العمل هو قصة ابن خلدون. فهو كاتب أكثر حرية بكثير من كاتبكم ماكيا فيللى، وهو فى رأيى أكثر فائدة منه بكثير. وأنتم تقولون إن ماكيا فيللى محظور فى مختلف دول أوروبا، وربما كان ابن خلدون أكثر منه بكثير"(٣).

وكما نرى، فى حين يتحدث الـ "بروكى" عن ترجمة عربية، يشير بى إلى ترجمة تركية لكتاب "الأمير". ويبدو أن التناقض يجب أن يحل هكذا، أن دون رفائيلى الذى سنتحدث عنه فيما بعد، أعد الترجمة العربية عن الإيطالية، وأن محمد على الذى كانت لغته التركية وكان يفهم العربية الفصحى قليلا جدا، عمل على ترجمة الكتاب من العربية إلى التركية، إما شفاهة، أو كتابة.

ويقدم الـ "بروكى" أخبارا قصيرة عن المترجم العربى فى قطعتين من جريدته "الجورنالى". ففى الجزء الأول، ص٩٥١، كتب يقول: ٥ ديسمبر (١٨٢٢) - مررت ببولاق لزيارة المدرسة التى أسسها الباشا الحالى وهى حاليا فى قصر

إبراهيم باشا ابنه، وتدرس فيها المساحة والرياضيات واللغة الإيطالية واللغة الفرنسية والعربية. والشيء الفريد هو أن من بين الأساتذة هناك ثلاثة من الرهبان المسيحيين: أحدهم هو د. كارلو بيلوتي من كالايريا، الذي يدرس الرياضيات، والآخر هو الراهب سكاليوني من بييمونتي، وهو رجل دون المستوى جدا، وكان مدرسا للغة الإيطالية ولكنه كان بالأحرى مدرسا ومشرفا على المطبخ، والثالث هو د. رفائيلي مارونيتا[٤] الذي كان أمينا للمكتبة في باريس، ويدرس اللغة العربية". وفي الكتاب نفسه، ص ١٧٢ - ١٧٣، كتب الـ "بروكي" يقول: "١١ ديسمبر (١٨٢٢) - ألقيت نظرة على بولاق.. وفي هذا البلد زرت المطبعة التي أسسها الباشا الحالي.. وهم مستعدون لطباعة كتاب عن "الصباغة" مترجم عن الإيطالية[٥]، وقاموسا إيطاليا - عربيا ألفه د. رفائيلي، أستاذ اللغة العربية في بولاق، والذي أقام لسنوات طويلة في باريس بصفته أمينا لمكتبة الإرساليات الشرقية وهو خبير في الإيطالية".

ودون رفائيلي الذي ينقل لنا الـ "بروكي" عنه الأخبار المذكورة عاليه، كان ملحقا كمترجم في بعثة بونابرت في مصر، وكان معروفا بين الفرنسيين، باسم دون رفائيل، وكذلك ببساطة كـ (رفائل) المترجم"، المذكور ثلاث مرات في الوقائع العربية للجبرتي[٦]. ولكن اسمه الكامل كان رفائيل أنطون زخور، كما يتضح ليس فقط من ترجمته العربية لرواية "الأمير" التي سنتحدث عنها، ولكن أيضا من مقدمة القاموس الإيطالي والعربي، الذي نشر بدون اسم المؤلف ("بولاكو") في ١٨٢٢ - ١٢٣٨ هجرية[٧].

وهناك أخبار أخرى موجودة في مقال حديث للغاية لـ "باشاملي"[٦]، الذي استخلصها من مخطوط مختلط لم يسبق له النشر لدون رفائيلي، وقد ولد في القاهرة في أسرة سورية من حلب، ودرس في روما حتى أصبحت الإيطالية بالنسبة له لغة ثانية تقريبا[٧]. وأثناء الاحتلال الفرنسي لمصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) كان - كما يؤكد في مخطوطه - "سكرتيرا ومترجما في الإدارة العامة للمالية في مصر،

وعضوا فى المعهد القومى لمصر(٨) ولجنة العلوم، والمترجم الأول فى ديوان(٩) القاهرة".

وبعد رحيل القوات الفرنسية، بقى عامين فى القاهرة، ولكنه سافر بالسفينة فى ١٨٠٣ إلى فرنسا حيث عمل "أستاذا للغة العربية فى باريس فى المدرسة الملحقة بالمكتبة القومية"(١٠) ولا نعرف السنة التى عاد فيها إلى مصر، ولكننا يجب أن نضع عودته بين ١٨١٣ (فى المخطوط المختلط نتيجة لعام ٨١٣ كتبت فى باريس) و١٨٢١ (وهو العام الذى تؤرخ فيه مذكرة لدون رفائيلى عن حالة الماليات المصرية أيام الفرنسيين وبداية حكم محمد على).

وكان دون رفائيلى أيضا طبيبا، ويظهر اسمه فى تقارير مدرسة الطب فى أبو زعبل كملحق فيها فى السنوات ١٨٢٨ و١٨٣٢(١١).

ويوجد مخطوط الترجمة العربية لرواية "الأمير" الآن فى المكتبة القومية فى القاهرة(١٢)، بعد أن مر بأحداث عديدة؛ فقد وصل بالفعل إلى المكتبة فى ١٨٧٦ من مسجد سيدنا الحسين، حيث كان موضوعا كوقف(١٣)، ولم يعرف أحد كيف وصل إلى هناك. وتبلغ أبعاده ٥ر١٢ ×٦١؛ وهو مكتوب بخط النسخ، بكتابة جميلة فى الظاهر ولكن قراءته صعبة إلى حد ما، لأن حرفى النون والتاء وغيرهما من الأحرف فى بداية الكلمات مكتوبة بتضخيم من أعلى يجعلهما يبدوان تقريبا كحرفى ف وق على الترتيب فى بداية الكلمات.

وهو مؤلف من ٨٢ ورقة، بكل منها ٢٠ سطرا فى كل صفحة، وتتضمن الأوراق 2r١ - r مقدمة قصير للمترجم(١٤) والورقة من بينها العنوان (مجموعة على أساس الورقة الأصلية فى المخطوط فى الورقة r٣)، المجلد الرابع فى مصنفات(١٥) فى التواريخ وفى علم حسن التدبير فى الأحكام "المجلد الرابع من أعمال نيكولو حول تواريخ وعلم حسن التنظيم للحكومات"(١٦). ومع الورقة r٣ تبدأ ترجمة "الأمير"، ولكن ضاعت ورقتان (ص ٤٤١ – ٧٤١) من المقرر أن تكون وسط الأوراق من ٧٠ إلى ٧١ التى تتضمن تقريبا كل لفصل الـ٢٣ وجزءا

كبيرا من الفصل ٤٢، وهكذا لا توجد أيضا الصفحات الأخيرة، حتى إن الترجمة تنتهى فجأة بالورقة r٧٤ (ص ١٥٥ من الترقيم الأصلى)، وبالتحديد بالكلمات: فإنهم لسعيدون إذا توفقوا مع الأوقات والأحوال ولتعيسون إذا وقع ومع الكلمة الأخيرة، وهو ما يقابل فى النص الإيطالى المقطع "فى الختام، إذن مع تغير الخط ومع بقاء الناس فى أساليبهم العنيدة، يكونون سعداء عندما يتفقون معا وتعساء عندما يختلفون" (الفصل ٥٢، الفقرة الرابعة من النهاية). وبالتالى فإنه لا توجد نهاية الفصل ٥٢ وكل الفصل الـ ٢٦(١٦).

والأوراق التالية (r - 82r٧٥) من نفس حكم الأوراق السابقة، ولها نفس عدد السطور فى كل صفحة، وهى مكتوبة باليد نفسها ولكن بحبر أغمق قليلا، لكن ليست لها أية علاقة بكتاب "الأمير" لأننا نرى من الترقيم الأصلى أنها الصفحات ٤١ – ٨٢ من كتاب عنوانه "مقدمات فى حق الأمم" مكتوب فى أعلى كل منها: مقدمات (فى الصفحات الفردية) وفى حق الأمم (فى الزوجية)؛ وما يبقى يتضمن نهاية الفصل (القسم) الـ ١١ والفصول التالية بما فى ذلك الفصل الـ ٢٨(١٧) الذى ينتهى معه العمل.

لم تكن ترجمة دون رفائيلى بلغة عربية جيدة، فقد كان عبدا للنص الإيطالى، الذى ترجمه تقريبا كلمة كلمة، دون أن يعنى بالبناء البعيد عن العربية الناتج عن ذلك، حتى إن الترجمة لا يمكن أن تبدو واضحة جدا لمن ليس تحت نظره النص الإيطالى. وأيضا فى مقدمته القصيرة، التى لم يكن فيها دون رفائيلى مرتبطا بأى نص إيطالى، لم تكن الصياغة أنيقة جدا وتتضمن علاوة على ذلك بعض الأخطاء فى الأسلوب وهى ترجع بالطبع لتأثير الإيطالية المألوفة جدا بالنسبة له، ونلاحظ على الفور، عندما نقرأها، أن دون رفائيلى لم يكن خبيرا جدا باللغة العربية الفصحى. فنجد على سبيل المثال، تركيب المبنى للمجهول المتبوع بكلمة "من" الخاصة بالفاعل (وهو غير عربى ومصاغ على غرار اللغات الأوروبية) مستخدما مرتين(١٨) وهو تركيب معتاد عند دون رفائيلى، الذى يستخدمه أيضا فى مقدمة القاموس الإيطالى – العربى.

وفى ترجمة "الأمير" نجد جملا أبعد ما تكون عن العربية، كما هو الحال، على سبيل المثال، فى الإهداء الموجه إلى لورنتسو دى ميديتشى: إنه لقد يعتاد فى غالب الأوقات أولئك الذين يرغبون نعمة (فى المخطوط كلمة "نعمة" مشكلة بالفتح نعمة) عند الأمير أن يتقدموا له بتلك الأشياء التى فيما بين ما يمتلكونه أعز مما عندهم والذى يروى النبأ تسره أفكار من غيرها. (وفى الأصل: "غالبا ما يعتاد أولئك الذين يرغبون كسب النعمة لدى الأمير، أن يتقدموا بتلك الأشياء التى يعتزون بها فيما بينهم، أو التى يرون أنه يفرح بها").

وفى الفصل الأول: إن كل الأحكام وكل السيادات تلك التى قد ملكت وتملكت سلطانا على الناس كانت لا تزال إما مشيخة وإما أميرية. (وفى الأصل: "كل الدول، وكل الممالك التى كان لها ولا يزال سلطان على الناس، كانت ولا تزال إما جمهوريات وإما إمارات"). وفى كلتا الفقرتين يتضح التقليد الحرفى للإيطالية، وهو ما يجعل العربية مشوشة جدا وبتراكيب غير عربية.

ولم يكن هناك مؤيدون لمشروع الطباعة، ويمكن أن نفترض أن هذا راجع إما لرأى محمد على المذكور أعلاه وغير المشجع جدا لمحتوى كتاب ماكيا فيللى، وإما لأن ترجمة دون رفائيلى رخور كانت لابد أن تبدو لمصححى الطباعة فى بولاق، بربرية من الناحية اللغوية وغامضة جدا فيما يتعلق بالمضمون. وقد حفظت لنا بالتالى هذه الرواية الأولى للأمير فى المخطوط الوحيد الذى تحدثنا عنه والذى وصل إلى مكتبة القاهرة عن طريق أحداث غريبة ذكرناها.

وبعد ما يقرب من قرن من عمل دون رفائيلى رخور، الذى بقى طى النسيان، ظهر فجأة الحماس لماكيا فيللى فى روح محام وكاتب شهير فى القاهرة لا يزال حيا: محمد لطفى جمعة. ودون أن يعلم اهتمام محمد على بالكتاب ودون حتى أن يشك فى أن مصريا آخر سبقه، نشر فى ١٩١٢ الترجمة العربية للأمير(١٩) التى انجذب إليها بإعجاب لعمل الإيطالى العظيم، وهو ما لم يكن من الممكن أن نتوقعه من كاتب شرقى.

وقد ألف محمد لطفى جمعة بعض الأعمال الأدبية (من بينهـا مسـرحيتان حصلتا على جوائز فى ١٩٢٦)، وكتابات فى تـاريخ الفلسـفة وعلـم الاجتمـاع؛ وبعض هذه الأعمال ترجمات من الفرنسية ومن الإنجليزية، ومن بين الترجمـات سنلاحظ الـ convito لأفلاطون، الذى نشر فى ١٩٢٠. وتوجد قائمة الأعمال التى نشرها حتى ١٩٢٦ فى ص ٣١٧ من كتابه "الشباب الرشيد" (نقد لكتاب عن الشعر الجاهلى لطه حسين)، القاهرة ١٣٤٤ من الهجرة، ١٩٢٦ ميلادية، وبهذا الكتـاب وحذف المسرحيتين (اللتين مثلتا ولكنهما لم تطبعا) قد تصل كتبه المطبوعـة إلـى ١٥(٢٠). ويضاف إليها بعد ذلك "تاريخ فلسفة الإسلام فى المشـرق والمغـرب"، القاهرة ١٩٢٧، وهو مأخوذ فى معظمه من مقالات "مونك" الشهيرة.

وتسبق ترجمة الأمير سيرة لماكيا فيللى (ص ٣ – ٢٠)، وبعـض الأخبـار عن أعماله (ص ٢١ – ٢٩)، و"ذكريات ماكيا فيللـى" (ص٣٠ – ٣٩)، و"الليلـة الأخيرة" (ص ٤٠ – ٥٠)، ووصف خيالى لموت الكاتب العظيم الذى عاش فـى فلورنسا.

وأعتقد أن من المناسب تقديم الترجمة الكاملة لـ "ذكريـات ماكيـا فيللـى المهمة جدا لأنها تبين لنا الحماس الكبير الذى حرك المترجم:

"إن معرفتى بنيقولا ماكيا فيللى وبأعماله، التى قلما نجد نظيرا لها، حـدثت بهذه الطريقة: أنه بينما كنت أجرى محادثة مع شخص يشغل منصبا سياسيا دوليـا فى مصر، قال لى: "إن الخير يجب أن يوزع على الشعوب مثل المطر الخفيـف، وليس كالمطر العنيف، وعندئذ سيلقى تقديرا أكبر وسيكون العرفان أكبـر بالفائـدة وهذا هو رأى ماكيا فيللى". وبعد أن تناقشت معه سألته: "ومن هو ماكيـا فيللـى؟" يرد بأنه سكرتير جمهورية فلورنسا فى بداية القرن السادس عشر، وأنـه مؤلـف كتاب الأمير(٢١)، لم يضف شيئا آخر. ولكن فى محادثات أخرى كان يذكر أقوالا حافلة بالحكم وفقرات كانت تدهشنى لاختصارها وتفردها وكان ينسـبها لسـكرتير جمهورية فلورنسا. وقد حدث هذا منذ سبع سنوات، أى فـى نهايـة ١٩٠٥. وقـد

سألته بعد ذلك ذات يوم عن كتاب الأمير الذى كان يذكره وقال لى إنه كان قد قرأه بالإيطالية ولم يكن يعرف ما إذا كانت توجد له ترجمة بالإنجليزية. ولكنه كان يعلم أنه ترجم إلى الفرنسية والألمانية. وعندئذ قمت بأبحاث فى المكتبات الأجنبية فى العاصمة باحثا ومستكشفا وأنا أسأل بإلحاح عن كتاب ماكيا فيللى، ولكننى لم أجد لا الأصل ولا الترجمة العربية. وكنت أتوق لدخول فكر هذا الرجل الذى يحمل اسما سحريا يجذب الروح لمجرد سماعه، ولكننى لم أكن على الطريق القويم، حيث إننى لجأت إلى صديق، وسألته عن الأمر؛ وقد قال لى إن الكتاب محفوظ بعناية ولا شك فى أننى سأحصل عليه فى اللحظة المناسبة. ولكن هذا الرد لم يشف شغفى وحاولت أن أعثر على بعض الأخبار حول ماكيا فيللى فى المكتبات، وكل ما كنت أقرأه فيها كان يزيد من رغبتى فى الكتاب، لاتفاق المؤرخين على تمجيد "الأمير"، ومدح مؤلفه، وللاعتقاد بأن هذا الكتاب، على الرغم من قصره، كان مصدر العلم السياسى الحديث، حتى إن أبطال التاريخ مثل ريشليو وفدريكو الكبير ونابليون بونابرت ومترنيخ نهلوا من مصدره.

"إلا أن المؤرخين يتفقون تقريبا (على التأكيد) على أن اسم ماكيا فيللى أصبح دلالة محددة(٢٢) لكل سياسى قوى الذكاء والفؤاد لا يثنيه النبل والتحفظ وخشية الله عن ارتكاب أسوأ الجرائم للوصول إلى الهدف وخاصة عندما يجتهد الأمير بهذا من أجل مصلحة الدولة التى يمسك بدفتها. قد أصبحت كلمة الماكيا فيللية الآن صفة لكل عمل يقوم على الشر والدهاء المرتبطين بالأنانية وتقديم الهدف على جودة الوسائل.

"وقد قضيت بضعة شهور وأنا مليء بالشوق لماكيا فيللى وكتابه باحثا عنه فى كل مكان وسائلا عنه كل إنسان، حتى وقع ما لم أكن أتوقعه. فقد كنت أتنزه ذات يوم فى ربيع ١٩٠٦، عندما لمحت رجلا يعرض كتبا بائسة على سور بوابة الإسكندرية. وقد نظرت إليها ورأيت أنها مجموعة من الروايات باليونانية والإيطالية والفرنسية، وكلها لغات كنت أجهلها. ولكن كم كانت فرحتى ودهشتى

وانتصاری كبيرا عندما سقطت عينى على كلمة الأمير (مكتوبة) على كتاب صغير مطبوع على ورق من نوعية دون المستوى؛ ثم سقط نظرى إلى أعلى الصفحة على اسم نيقولا ماكيا فيللى، ولم يتبق لدى أى شك فى أننى كنت أمام الشىء الذى كنت أهفو إليه. وأمسكت بالكتاب بسرعة وسألت البائع عن الثمن، فقال لى: قرش واحد. ولا أعلم كم دفعت، وأخذت الكتاب بين يدى وسرت دون أن ألتفت إلى أى شىء، إلا أننى لم أكن قد سرت ميلا واحدا، محمولا بالحمية والحماس، عندما أدركت خطأى: أننى حصلت على ما لم يكن بوسعى فهمه، لأن الكتاب كان بالإيطالية. وعلى الفور خطر ببالى ألف مشروع للخروج من هذه الهوة، مثل: طلب المساعدة من بعض الإيطاليين للتمكن شيئا فشيئا من فهم تعبيراته، والبدء فى دراسة اللغة الإيطالية للوصول إلى هدفى بشأن الكتاب. ولكن حيرتى لم تطل لأن المصير الطيب قادنى نحو نسخة بالإنجليزية فى مكتبة الإسكندرية، وقرأت الكتاب فى أقل وقت يلزم للانتهاء منه. ولكن القراءة الأولى تركتنى فى حيرة لصعوبة فهم الأفكار وأهمية الكتاب؛ وهكذا كنت مضطرا لإعادة قراءته مرات عديدة. وفى النهاية رضيت بدراسته بعمق وفهم معناه، وبعد قراءة كل فصل كنت كمن ينجح فى اكتشاف سر غرفة مفزعة فى قلعة مسحورة. وكنت أتوقف مشدوها ومضطربا بعد قراءة كل جملة؛ بل إننى فى بعض الأحيان كنت أجول بعينى على السطور بخشية وخوف وكنت أسأل نفسى: "هل يقول الحق فعلا هذا الرجل الرائع؟" ثم كنت أعود بنظرى إلى الصفحة وكنت أصطدم بشخصيات معروفة، وأسماء شهيرة، وأخبار معروفة، وأسماء أعلام لأماكن، ومن قبل كنت قد عرفت بالاسم تلك الأشخاص وزرت بعض الأماكن التى يتحدث عنها. ولكن كتاب "الأمير" كان يمثل لى أولئك الأبطال فى ساحة الحياة الإنسانية؛ إنهم إرادات قوية ومتنوعة، دفعتهم إلى ساحة الحياة قوى مختلفة، وكل إرادة تجتهد للوصول إلى هدف خاص بها، وفى حياة النشاط الذى رسمته لنفسها أحيانا ما تقودها قوة خفية، وأحيانا ما تكون لها حرية الاختيار، وبين الحالتين تنهض وتخبو، وترتفع وتسقط، وهى سعيدة وتعيسة وتأمل وتيأس. ويمكن القول بأن الأشخاص المذكورين فى "الأمير" هم من

جنس آخر من البشر، وهم مجموعة من المزايا والمصالح الخاصة والعامة، يوجد بينهم خلاف أبدى، مستمر من أجل الهيمنة والنفوذ والمجد. وهكذا فإننى تجردت من المشاعر الضعيفة والمسكينة، ونظرت إلى الأمور كما ينظر إليها شخص ذكى ودارس يقيم الأمور تبعا لقيمتها المادية والعملية.

"وفى حين ترى أولئك الزعماء الكبار يقودون الأمور بقلب غير رحيم، ترى أمما وممالك ومدنا – وهى ساحات هذه الأعمال الكبرى – تارة قوية وتارة أخرى ذليلة؛ وهكذا يبدو لك أنك فى معرض رائع، أقامته على ساحة الحياة الفانية آمال البشر؛ لأنك عندما تقتفى آثار بطل يسير أمام الجميع ويشكل مملكة أو يقود دولة، وهو واثق وآمن، يرفع بناء مجده، كما لو كان عليه أن يعيش إلى الأبد، يحدث حدث غير متوقع كالتيار المتدفق ويزيح من طريقه ذلك البطل ويدمر قلاع آماله، بل إنه يدمر تلك التى حشدها. وإذا لم يكن هناك هذا الحدث المفزع، فإن الموت إذن هو المدمر الذى يمحو كل شيء.

"أى مراقب حاد الذهن أنت يا ماكيا فيللى ويا من تراقب من بعيد ومن قريب، بعين جافة، وبقلب بارد وروح جف فيها نبع الدموع، لعبة الشطرنج الأبدية، التى تتكون رقعتها من الليالى والأيام، والقطع من أبطال التاريخ القديم والحديث والبيادق من جيوش ألمانيا وإسبانيا وفرنسا وإيطاليا، وأبراج قلاع روما وقلاع بيزا وفلورنسا وحملة الرايات فى أساطيل جنوا وفينيسيا، فى حين أن الملك هو تشيزارى بورجا.

وعندما قرأت "الأمير" شغفت به وكنت أحمله إلى جانب رباعيات الخيام(٢٣)، وأنا أقرأ الخيام فى لحظات حزن النفس وضيق الروح لكى أنتشى بخمره المقدس والمصفى، وأنا أقرأ "الأمير" لكى أفيق من سكر خمر الخيال والعودة إلى ساحة الواقع المؤلم، الذى تصطدم فيه جيوش القوى والرغبات وتتداخل سيوف الأحداث ورماح المصائب.

"ثم ذهبت للمرة الأولى إلى الأقاليم الشمالية لكى أتنفس رياح الطموح الأعلى

فى معابد الرومان وللبحث عن معجزة الجمال فى التماثيل الرائعة واللوحات المؤثرة. وبينما كنت أتجول عصرا فى قاعات متحف الفن القديم والحديث فى روما، ها أنا قد وجدت نفسى وجها لوجه مع صورة رجل جالس أمام هيكل سرير مغطى بسجادة مطرزة بالذهب، كانت فوقها كتب وأوراق ملقاة ومبعثرة. وكان ينظر نحوى بعينين مليئتين بالحكمة والدهاء والحزن، وعندئذ حدثت لى حالة عجيبة وقلت (بينى وبين نفسى: "هاهو) ماكيا فيللى مع موضع رغباته".

وأسرعت بالنظر إلى رقم الصورة فى كتالوج المتحف وكان هو بالضبط نيقولا ماكيا فيللى! وكانت هذه هى المرة الأولى التى تقع فيها عينى على صورته. وقد بقيت ثابتا أمامه مندهشا وأنا أفكر، وأتساءل كما لو كنت أرغب فى كسر تلك الجمجمة لكى أرى ما هى الأفكار الواضحة وما هى الأفكار الغامضة التى تضمها. ثم تذكرت أن ذلك الوجه لم يكن سوى لوحة مرسومة بالزيت وتركت المتحف، ولكن مظهر ماكيا فيللى بقى فى ذاكرتى.

"على الرغم من كل هذا لم توح إلى نفسى بترجمة "الأمير" إلى العربية حتى كان ربيع ١٩١٠ عندما نقلتنى الرحلات إلى مدينة تارارى(٢٤) فى الأرض الفرنسية، حيث دعيت مع مجموعة من الأساتذة الفرنسيين كان على رأسهم المثقف إدوارد لامبير، لحضور احتفال علمى وإلقاء محاضرة عن مصر. وكانت اللجنة العلمية التى أعدت لهذا الحفل مكونة من الرئيس والسكرتير وأمين الصندوق والأعضاء. هل تعلم أنت من كان السكرتير ولا يزال حتى اليوم؟ كان حفيد حفيد ماكيا فيللى، الذى لا يزال يحمل حتى اليوم اسم عائلته. وعندما سمعت لقبه طرت نحوه وحاولت أن أخفى مشاعرى، وأخذت فى سؤاله بلطف عن أعماله، وحالته والطابع الأجنبى فى لقبه، ورد على بقوله: "إن لقبى إيطالى، ولا شك أنك يا سيدى، تعرف اسم نيقولا ماكيا فيللى الشهير". فقلت له: "لقد قرأت عنه فى بعض الكتب". ورد هو قائلا: "إنه جدى الأكبر". وعندئذ قلت فى نفسى: "يا لك من بائس، بل يا لها من عائلة بائسة الحظ! لأنه فى حين أن سلالة آل ميديتشى وسفورنسا

وفيسكونتي وجويتشارديني يتمتعون اليوم بلذة الثراء الوفير، فإن عليك، وأنت سليل من يحمل أعظم اسم سياسي في العالم، أن تتحمل مصاعب التدريس، وتستمر مثل جدك في أن تكون سكرتيرا للجنة، لأنه كان سكرتيرا لدولة ولم يكن له وضع أفضل من وضعك!" ثم عند لحظة الرحيل شددت على يد ماكيا فيللي الفرنسي، واحتفظت بيده طويلا في يدي، بينما كان لسانه يفيض بالشكر والثناء، على الرغم من أنه لم يكن يعلم أنني كنت أرى فيه جده العبقري، وبصرف النظر عن جماجم سبعة أجيال مضت فإنني كنت أمد يدي لنيقولا العظيم.

"في تلك السنة نفسها بدأت في دراسة الإيطالية لميلي الطبيعي للغات اللاتينية (الحديثة)، وقد تعلمتها من الأستاذ مينيون، مدرس الأدب الإيطالي في كلية الآداب في جامعة ليون، وقرأت الـ Cortigiano لكاستيليوني بالنثر القديم، وGerusolemme لـ "تاسو" وفقرات مختارة من باسكولي، الذي كان أستاذا للأدب في جامعة بولونيا وخليفة كاردوتشي. ومن بين المواقف الجميلة أنني توجهت آنذاك للآنسة ماريا ألبرتيني وهي من بولونيا، وتعلمت منها قواعد الإيطالية، على الرغم من أنني لم أنشغل بها كثيرا لعدائي الطبيعي للقواعد والقيود. وعندما جاء الصيف اتجهت نحو إيطاليا وأمضيت بعض الوقت في جنوا ورابااللو ونيرفي وبيلي وكلها (أماكن) على الرفييرا الغربية. ثم سافرت إلى فلورنسا، مدينة الذكاء والجمال، وبقيت فيها لبضعة أشهر مترددا على جماعة من أدبائها الذين كانوا يملأون صفحات الـ Margorco بالمنتجات الجميلة لذهنهم الفني. وزرت بعض الآثار، وقد فرحت نفسي بجمال تلك الجنة الأرضية، ولكن هذا ليس مجال الإطالة في هذا الشأن. سأذكر فقط أنني وجهت اهتمامي لترجمة "الأمير" من الإيطالية إلى العربية في فلورنسا هذه، حيث كنت أسكن في شارع ليوناردو دافنتشي رقم ٦، وفي تلك الفترة زرت كنيسة سانتا كروتشي، حيث يرقد قبر ماكيا فيللي. ولكنني غير قادر على وصف المشاعر التي كانت تضطرب في نفسي في تلك الوقفة (أمام القبر). وكان تأثري من اليوم الذي زرت فيه منزل ماكيا فيللي، الذي يقع الآن في الرقم ٧١ من شارع جويتشارديني. وهناك وصف له (في الفصل الذي يحمل

عنوان): "الليلة الأخيرة". وقد حدث هذا فى نهاية شهر أغسطس. وكان جيران ماكيا فيللى يتجمهرون حولى عندما كنت أنسخ الكلمات المكتوبة على أجزاء الرخام المعلقة على الحائط لكى توضح للناس فى ذلك الزمن أن ذلك المسكن المتواضع كان مسكن الرجل الذى يتمتع بأقوى ذكاء سياسى إيطالى.

"وفى جنيف أنهيت جزءا مما بقى (من ترجمة) "الأمير". كما لو كان قد جاب معى منذ ما يقرب من ست سنوات كل الأقاليم. تارة ككتاب مقروء، وتارة كترجمة متفرقة، وقد تم الجزء الأكبر من هذه الترجمة فى فلورنسا، وطن ماكيا فيللى، بينما تمت الأجزاء الأخرى فى جنيف وليون وباريس والقاهرة وقد انتهت فى ٢٧ يونيو ١٩١١ فى جنيف، حفظها (الله) فى رقم ٧٩ من شارع بولفار كارلو فوجت، فى الجانب الشرقى من المدينة.

"والآن، أخرج للجمهور هذا الكتاب، الذى كان حليفا لوحدتى فى رحلاتى وصديق عزلتى فى البقاء وفى الترحال، وأنا أنفصل عنه بألم مختلط بالغيرة، لأنه بالأمس كان ملكى وغدا سيصبح ملكا لآلاف من أولئك الذين يقرأون اللغة العربية النبيلة".

ويجب ألا نقول إن ترجمة محمد لطفى جمعة، من الناحية اللغوية، أفضل بكثير من ترجمة رفائيلى، زاخور، فهى عمل شخصى يستخدم العربية جيدا جدا ومن دراساته كان مهيأ لفهم الفكر السياسى للكاتب الإيطالى. ولكننا لا نستطيع أن نغفل أن لطفى جمعة أحيانا يترجم بحرية زائدة وغير مفيدة، ولهذا فإن بعض الفروق الطفيفة فى الإيطالية تضيع. لنأخذ مثلا الفصل الأول، الذى سننقل فيما بعد روايتيه:

ترجمة رواية لطفى جمعة	نص ماكيافيللى

نرى على الفور أن فكر ماكيا فيللى غير مترجم هنا بالدقة المطلقة، سواء لإدراج بعض الكلمات (على سبيل المثال "giuste" و"moderate" فى البداية) أو لحذف كلمات أخرى، أو لخلط الفعل "acquistare" مع الفعل "comquistare"

لننتقل إلى الجزء الأخير من الفصل الأخير، ذى الإيقاع البطولى لحدث الأمير حتى يحرر إيطاليا من البرابرة، ونضع فى مقارنة نص ماكيا فيللى مع إعـادة ترجمـة لطفى جمعة العربية:

ترجمة رواية لطفى جمعة نص ماكيافيللى

وقد لا نحتاج للإلحاح على إبراز العيوب التى يمكن أن يكتشفها كل منا من مقارنة العمودين، ولكن يحق لنا أن نلاحظ أن العيوب تفسر غيـر الهينـة بالنسـة لعربى، فى فهم لغة ماكيا فيللى القديمة إلى حد ما، إذا لم تكن أيضا راجعة جزئيـا لبعض الأخطاء فى الرواية الإنجليزية، التى ربما كانت مرشدا رئيسـيا للمحـامى محمد لطفى جمعة الذى نشعر تجاهه على أى حال بعرفان كبير للنشاط الذى قام به فى دراسته الأمور الإيطالية وفى محاولة تعريفها للشعوب الناطقة بالعربية.

ونختتم هذا العرض بإعادة الفصل الأول من "الأميـر" فـى روايتـى دون رفائيلى زاخور ولطفى جمعة، وسيبدو من الواضح هكذا، دون حاجة لملاحظـات خاصة، التفاوت الهائل بين الاثنين، سواء فى نوعية العربية أو فى الطريقة المتبعة فى الترجمة:

ترجمة دون رفائيلى زاخور

Traduzione di don Rattaele Zahur.

الرأس الأول

فى كم هى أنواع الاميريات (٢٥) وبايتما طرايق حـازاى يحصـل عليهـا (٢٦) إن كل الأحكام وكل السيادات تلك التى قد ملكت وتملك سلطة علـى النـاس كانت ولم تزل اما مشيخات وأما اميريات، فالاميريات إما انها مستورثة وهـذه دم من سادها يكون قد استمر مدة مستطيلة اميرا. واما انها مستجدة. ثم ان المسـتجدة اما انها كلها جديدة كما كانت اميرية مديولان على الامير فرنسيس سفورزا. وامـا أنها كأعضاء مضافة لحكم الوارث ما للامير الذى يجوزها. كمملكة نابولس لملـك اسبانيا. فان هذه سيادات هكذا محافرة او معتادة ان تعيش تحت احكام امير. او انها

اميريات اعتادت ان تكون محررة وتحاز اما بقوة اسلحة اخرين او باسلحة ناسها خاصة او بواسطة السعد او بواسطة الفضل.

ترجمة جمعة(٢٧)

(ah (1صTraduzione di Muh. Lutft Gum

الفصل الأول

فى أنواع السلطة وطرق الحصول عليها

كانت الحكومات التى حكمت الأمم فى الأزمان الغابرة إحدى اثنتين، إما جمهوريات عادلة، وإما ملكيات معتدلة. وللمكية نوعان: نوع تحكمه أسرة واحدة عريقة فى القدم يرث أفرادها الملك الواحد بعد الآخر، ونوع حديث التأسيس وملوكه حديثو العهد بالسلطان. ولذلك النوع الأخير صنفان صنف تكون الممالك فيه حديثة بالكلية كما كانت إمارة (ميلانو) فى عهد (فرنسيسكو سفورزا) وصنف يضمه الأمير إلى ما ورثه عن آبائه وأجداده بحق الفتح مثل إمارة (نابولى) التى ضمها ملك (إسبانيا) إلى أملاكه.

على أن بعض الممالك التى تقهر ويغلب أهلها على أمرهم يكون قبل الفتح متعودا حكم أمير من الأمراء. ويكون بعضها حرا مستقلا ووقوع تلك الإمارات فى أيدى الفاتح يحدث إما بقوة الحرب وإما عفوا صفوا.

هــوامش

(١) جريدة الملاحظات التى دونها خلال رحلاته فى مصر وسوريا والنوبة ج. ب بروكى، وهو مؤلف لم ينشر بعد موت مؤلفه، باسانوما أ. روبرتى، ١٨٤١ – ١٨٤٣، فى – ٨، ٥ مجلدات – على صفحات هذا الـ Giornale

انظر مقال البروفسيير أ. سان ماركو في Oriente Moderno المجلد الثامن، ١٩٢٨، ص ص ٣٧١ – ٣٨٢ و ٤٢٤ – ٤٢٩.

(٢) خطاب للسيد القنصل أتشيربى، القنصل العام لـ .S.M.I.R.A فى مصر للسيد القنصل جيرونى، أمين مكتبة بريرا الإمبراطورية فى ميلانو، حول بعض المخطوطات العربية المنقولة من مصر والمرسلة كهدية إلى المكتبة سالفة الذكر وللمكتبة الإمبراطورية فى ڤيينا (فى Biblioteca Italiana)، الكتاب ٦١، ميلانو ١٨٣١، ص ٢٨٩ – ٢٩٨)

(٣) فى الخطاب نفسه يكتب أتشيربى، Biblioteca Italiana، العدد ٦١، ص ٢٩٥، السطر ١٩ والسطور التالية: "يجب أن أذكر أيضا لمسة لطف منه (محمد على) الذى حدثنى عنه المسابيكى مدير مطبعة بولاق؛ الذى عندما تذكر محادثتنا والوعد بإعطائى نسخة من ابن خلدون، أمر بأن يطبع لكى يقدم لى منه أكثر من نسخة بسهولة؛ وكان المسابيكى يعنى بهذا العمل وبطباعة بعض المخطوطات الكلاسيكية الأخرى، مثل المقريزى لعبد اللطيف، ومخطوطات أخرى شرفنى باختيار بعضها، حيث أننى لم أكن غافلا تماما عن هذه المادة. وأخشى جدا فى نفس الوقت أن يكون موت المسابيكى قد أوقف كل شئ، حيث أنه لم يكن هناك من يخلفه".

وبالفعل فإن النص العربى (وليس الترجمة التركية التى رقيت دائما دون نشر) لمقدمة ابن خلدون طبع فى بولاق فقط بعد ٢٩ عاما من هذا الخطاب (١٢٧٤ هـ – ١٨٥٧م)؛ وقد نشر وصف المقريزى فى ١٢٧٠ هـ (١٨٥٣ م) فى بولاق ووصف عبد اللطيف البغدادى) فى ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ – ١٨٧٠ م) فى القاهرة.

وفى الخطاب يتحدث أتشيربى بعد ذلك طويلا عن أبحاثه فى كتاب ابن خلدون، وهى أبحاث سمحت له بأن يرسل إلى مكتبة بريرا فى ميلانو بأول مجلد من المؤلف وإلى المكتبة الإمبراطورية فى ڤيينا بمخطوط يتضمن الفصول الـ ١٤ الأولى من الفصول الـ ٢٥ من العقد الفريد لبن عبد الربيحى مع مخطوطات أخرى.

(٤) هذا خطأ من الـ "بروكى". فدون رفائيلى لم يكن مارونيا، ولكنـه كـان قسـا يونانيـا – كاثوليكيا، وراهبا فى جماعة الـ Basiliani التابعين لسان سلفاتورى. انظـر مقـال س. باشامكى الذى نشير إليه فيما بعد.

(٥) الباشامكى يذكر بين أعمال دون رفائيلى ترجمة كتاب لـ "ماكير" عن صباغة الحرير؛ ولكن لا يمكن أن نعرف ما إذا كانت كلمات الـ "بروكى" تشير إلى ذلك.

(٦) عبد الرحمن الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والآثار. وذكر دون رفائيلى يوجـد تحـت تواريخ ٢٥ شعبان ١٢١٥ (١٨٠٠) و٢٠ شـوال (١٨٠١) و١٤ محـرم ١٢١٦ (١٨٠١): وفى هامش "الكامل" لابن أثير، القاهرة مطبعة ١٣٠١ هـ (نهاية ١٣٠٢) المجلد السابع، ص ١٣٦ و١٥٢، المجلد الثـامن ص ٢٣ – Merveilles biographiques et historiques ou chroniques du Cheikh Abd-el-Rahman EL-DJABARTI traduites de l'arabe القاهرة، ١٨٨٨ – ١٨٩٦، المجلد السادس، ص ٢٦٩، ٢٧٩؛ المجلد السابع، ص ٢٦.

(٧) "Dizionario Italiano e Arabo" يتضمن باختصار كل الكلمات المسـتخدمة والضـرورية لتعلم اللغتين بصورة صحيحة – وهو مقسم إلى جزأين – الجزء الأول من القاموس مرتـب كما هو معتاد حسب الترتيب الأبجدى – والجزء الثانى يشتمل على مجموعة صـغيرة مـن السماء الضرورية والمفيدة لدراسة اللغتين – بولاق، من المطبعة الملكية، ١٨٢٢، فـى ٨، ٢٦٦ + ٦ غير مرقمة من "تصويب الأخطاء".

وفى المقدمة المكتوبة باللغة العربية، يقول دون رفائيلى، أنه كان مكلفا من قبل محمـد علـى، "نائب السلطان على مصر" بتعليم الإيطالية، ولكنه لم يقل ما إذا كان ذلك فى مدرسة بولاق أو فى أماكن أخرى وبالطبع فى ١٨١٢، عندما كان الـ "بروكى" يكتـب فـى جريدتـه الــ Giornale كان مدرس اللغة الإيطالية فى المدرسة من بيميونتى، هو القس سكاليوتى (بروكى، المرجع المذكور، المجلد الأول، ١٥٩، راجع المذكور عاليه هنا). ويضيف دون رفائيلى، أنـه ألف القاموس لخدمة الطلبة والذين مكلفين بترجمة الكتب". ومن الواضـح أنـه كـان معـدا لاستخدام العرب الذين كانوا يريدون الترجمة عن الإيطالية، ولـيس لاسـتخدام الإيطـاليين. وبالفعل لم تكن الكلمات العربية مشكلة ملم تكن هنـاك إشـارة لمعنـى الكلمـات العربيـة الموضوعة أمام كلمة إيطالية معينة.

(٨) Un manuscript autographe de Don (sic) Raphaël de l'Institut d'Égypte (1798) بقلم س. بشامكى فى Bulletin de l'Institut d'Égypte ، الكتاب الثـامن، دورة ١٩٣٠ – ١٩٣١، القاهرة، ١٩٣١، ص ص ٢٧ ٣٥.

(٩) فى هذا المزيج تظهر أربعة خطابات كتبها دون رفائيلى بالإيطالية: ثلاثـة منهـا موجهـة لنابليون بونابرت وواحد موجه لتاليران – بيريجورد وزير "العلاقات الخارجية" فى باريس.

(١٠)فى قسم "litterature et beaux arts"، باشامكى، المرجع المـذكور، ص ٢٧. وقـد أسـس

نابليون بونابرت l'Institut d'Égypte الشهير فى القاهرة بمرسوم فى ٢١ أغسطس ١٧٩٨ وكان يضم ٤٨ عضوا موزعين على أربعة فصول أو أقسام وكلهم من الفرنسيين، باستثناء "دون رفائيلى" الذى كان يوصف بـ "القسم اليونانى فى أميديه ريم" moderne: période de Égypte la domination française باريس، فيرمين ديدو، ١٨٤٨، فى مجموعة l'Univers، ص ٦٦، المجموعة ١

(١١)"الديوان" الذى أصلحه نابليون بونابرت فى ٢٥ ديسمبر ١٧٩٨، كان مؤلفا من عشرة شيوخ وكان يؤلف مجلسا يناقش ويقر التعليمات الإدارية والمالية للفرنسيين فيما يتعلق بالسكان المحليين.

(١٢)هكذا يقول دون رفائيلى فى مقدمة تاريخ مصر وجبل الدروز، الذى ظل غير مكتمل، باشامكى، المرجع المذكور، ص ٣١. وبالتالى فإن رأى باروكى (١ - ١٧٣) بأن دون رفائيلى كان فى باريس "أمين مكتبة المخطوطات الشرقية" غير صحيح.

(١٣)انظر باشامكى، المرجع المذكور، ص ٢٨.

(١٤)"تأريخ" ٤٣٥. فى الكتالوج القديم المطبوع فى ١٣٠٨ هـ (والمرتب مثل الكتالوجات اللاحقة، تبعا للترتيب الأبجدى للكلمة الأولى للعناوين ودون فهرس للمؤلفين) يظهر المخطوط فقط تحت كلمة مصنفات؛ وفى الكتالوج الجديد (المجلد الخامس، تأريخ، ١٩٣٠ م، ١٣٤٨ هـ) وضع تحت كلمة "الأمير، ولكن الوصف، على الرغم من أنه أدق بكثير من السابق، إلا أنه يحتوى على الإشارات لأرقام الفصول حتى أنه قال أن المخطوط مكتوب بالزنكوغراف!.

(١٥)هكذا يتضح من التعليق فى الورقة 3V من المخطوط بالخط الثلث: "وقف لله تعالى"، الذى وضع تحته الموظفون فى المكتبة الخديوية آنذاك: محضر من سيدنا الحسين فى مارس سنة ١٨٧٦.

(١٦)المقدمة تبدأ بالثناء على الله؛ "نبتدئ بعون الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. الحمد لله الذى على مشيئته وتدبيره تنعقد سلاسل الأحاديث والأخبار، ومن فيض أحكامه ونجد (؟) تقديره يجرى مجرى ما وقع فى الدهور والأثمار". الخ. ثم يستطرد قائلا: "ثم يقول وهو يطلب عون القوى الرحمن الرحيم والكريم الوهاب، عبد (الله) القس رفائيلى أنطونيو زخور الراهب: عندما أضطرنى واجب وظيفتى، نزولا على أوامر من أعمل عنده، أى صاحب الفخامة الحاج الخير محمد على، صاحب القوة والنصر والوزير المكرم وولى الحكم فى مصر، وفريد زمانه وعصره، والمتفرد بين أقربائه وزملائه - أطال الله فى عمره وأطال سلطانه ورفعته - تلقيت الأمر بترجمة الكتاب الشهير (الذى يحمل عنوان) "كتاب الأمير" الذى ألفه المعلم ماكيافيللى، حول علم السياسة والحكم، ترجمته إلى اللغة العربية لفائدة أولئك الذين يشغلون مناصب إدارية، مع ترجمته بدقة وصحة حتى يكون واضحا وميسرا على من يقرأه: وفى هذا بذلت قصارى الجهد والنشاط وكل عناية وتعب، لأن (الكتاب) قديم فى تراكيبه وصعب

في مفاهيمه، لأنه ألف في عام ١٦٠٠ (هكذا). وندعو الله أن يعيننا في البدايـــة ولله المجيــد الحمد في النهاية".

(١٧)حرف الـــ f بدلا من الـــ n يتوقف على عيب الكتابة المشار إليه عاليا.

(١٨)عنوان ترجمة دون رفائيلي يبدو هكذا: "هذه هي مؤلفات عن تاريخ وعلـــم التنظـــيم الســـليم للحكومات، من تأليف نيقولو ماكيافيللي، السكرتير والمواطن الفيورنتيني. المجلـــد الرابـــع، حول صفات الأمير وواجباته". يلي ذلك الإهداء إلى لورنتو دي بييرو دي ميديتشـــي وبعـــد ذلك في الورقة ٥ الوجه الأمامي، العنوان من جديد: "حول أمير نيقولو أو حـــول صـــفات "الأمير" التي يبحث عن وجودها نيقولو ماكيافيللي، السكرتير والمواطن الفيورنتيني.

(١٩)فصول "الأمير" تسمى "رأس" حتى السابع "وفصل" حتى الثاني عشر ثم "رأس" من جديد.

(٢٠)ليس ٢٧، كما قيل خطأ في الكتالوج المطبوع (المجلد الخامس، تأريخ، ١٩٣٠، ص ٣٩).

(٢١)أمرت ممن أوجب على حق الوظيفة الإذعان لأوامره؛ وفيما بعد، بكتاب الأمير المؤلف من المعلم ماكيافيللي.

(٢٢)كتاب الأمير وهو تأريخ الإمارة الغربية في القرون الوسطى تأليف نيقولا ماكيافيللي، تعريب محمد لطفي جمعة، القاهرة، مطبعة المعـــارف، ١٩٢٢، المجلـــد الأول – فـــي ١٦، ١٩٨ صفحة + ٢ فهرس وصورتان خارج النص: صورة ماكيافيللي وصورة المترجم.

(٢٣)في Dictionaire encyclopédique de Bibliographie Arabe ، ج. أ. سركس، القـــاهرة، ١٩٢٨ – ١٩٣٠، المجموعة ١٦٩٢ – ١٦٩٣، قائمة الأعمال التي نشرها حتى ١٩٢٥ غير مكتملة.

(٢٤)في النص، كلمة؛ Principe مترجمة بالعربية "الأمير"، ولكنها متنوعة بنسخ عربي تقريبـــي للكلمة الإيطالية Principe

(٢٥)أصبح عالمان على ....، راجع ر. دوزي، Supplément aux dictionnaires arabes، ليـــد ١٨٨١، المجلد الثاني، ١٦٤، المجموعة ا.

(٢٦)أي الشاعر الفارسي الشهير عمر الخيام، الذي عاش في بداية القرن السادس مـــن الهجـــرة، الثاني عشر الميلادي.

(٢٧)مدينة في قطاع رودانو.

(٢٨)المترجم كما نرى وقع في بعض اللبس في تفسير أبيات بترارك: فقد أخـــذ "virtù" بمعناهـــا الأخلاقي الضيق، وبالتالي ترجمها "فضيلة" بينما كان بترارك يعطي الكلمة معنى الـــ virtus اللاتينية، أي الشجاعة العسكرية المرتبطة بأفضل الصفات النفسية، ولـــم يـــدرك أن تعبيـــر "contro a" يتوقف على الفعل prenderà l'armi (الذي يعني هنا "سيثور") ولهذا فقد المنفـــذ

أن هذا يعنى "contraria a." ، "nemica a"، لبخ. وفى الواقع، كان يجب أن تكون الترجمة هكذا: ستقوم المروءة على الحميا الجاهلة ويكون القتال قصيرا إذ الشجاعة القديمة لم تمت بعد فى قلوب الإيطاليين.

(٢٩)إعادة الترجمة الإيطالية كتبت هنا عاليه، ص ٦١٤ وأمامها نص ماكيافيللى الأصلى.

(٣٠)فى المخطوط، هذه الكلمة صاغها رفائيلى زخور لترجمة الكلمة الإيطالية "principato" وهو مكتوب باستمرار بدون النقاط تحت الـ ... الأولى.

(٣١)البداية الإيطالية، طبقا للطبعات القديمة، مثل الطبعة التى استخدمها دون رفائيلى، هى:

"Quante siano le specie de' principati, e con quali modi si acquistino"

القضية المصرية
من عام ١٧٩٨ إلى عام ١٨٤١

كارلو جيليو

١ ــ اهتمت إنجلترا بمصر متأخرا نسبيا. ولكن فرنسا كانت أكثر نشاطا بكثير، فبعد سلام باريس فى عام ١٧٦٣، الذى فقدت فيه جانبا كبيرا من إمبراطوريتها، بدأت فرنسا فى النظر إلى مصر كمستعمرة محتملة لها وكقاعدة للهجوم على الهند، وأيضا على خطوط الاتصال الإنجليزية عبر رأس الرجاء الصالح. وفى عام ١٧٨٥ أبرمت معاهدة للصداقة والتجارة مع الحاكم المملوكى فى القاهرة[١]، وبعد أن اندلعت الحرب ضد النمسا (١٧٩٣)، أعادت القنصلية الفرنسية إلى القاهرة، التى أغلقت فى عام ١٧٧٧. وفى عام ١٩٧٨ بدأت مفاوضات مع إيران من أجل معاهدة معادية للهند، وفى عام ١٧٩٦ أرسلت بعثة ذات طابع علمى ــ دبلوماسى إلى طهران. ولم تكن لفرنسا علاقات وثيقة فقط مع مصر وإيران ضد إنجلترا، ولكن أيضا مع شريف مكة ومع إمام مسقط (شبه الجزيرة العربية) الذى أسست عنده فى عام ١٧٩٥ قنصلية، نظرا أيضا للتبادلات التجارية النشطة مع جزيرة ماوريشيوس، ومع سلطنة ميسورى فى الهند.

وبالتالى فإنه يمكن القول بأنه فى عام ١٧٩٣ كانت قد تبلورت فكرة القيام بعملية مصر كخطوة أولى نحو احتلال الهند[٢].

ويقابل النشاط الفرنسى المكثف ذلك النشاط البريطانى المحدود[٣]. فقد وصل أوائل التجار الإنجليز إلى مصر فى القرن السابع عشر، ولكن على خلاف زملائهم الفرنسيين، لم تكن لهم قنصليات إلا على فترات متقطعة: فى ١٦٣٠ و١٦٤٥

و١٦٥٨. وحدث فقط بين عامى ١٦٩٦ و١٧٥٦ أن كان لهم قنصل بصورة متواصلة وحاولوا منافسة التجار الفرنسيين، ولكن فى عام ١٧٥٦ أغلقت القنصلية نظرا للأنشطة الهزيلة التى قام بها العدد الضئيل من الإنجليز المقيمين فى مصر. ومع ذلك فإن إنجلترا، بعد ذلك ببضع سنين، حاولت استخدام طريق السويس للتجارة مع الهند وأبرمت اتفاقيتان بهذا المعنى فى عام ١٧٧٣ و١٧٧٥ مع حاكم مصر والرحالة ج. بروس وحاكم البنغال البريطانى وارين هاستينجز[٤]. ولكن سلطان القسطنطينية احتج على الاتفاقيتين مذكرا بالخطر القديم المفروض على الأوروبيين بالنسبة للملاحة فى البحر الأحمر وشمال جدة. وقد اضطرت لندن للتنازل والاقتصار على استخدام طريق السويس لإرسال المراسلات بشرط أن ينقلها السكان المحليون بين جدة والسويس[٥].

ولكن حكومة وشركة الهند استخدمتا طريق السويس قليلا جدا بين عامى ١٧٧٧ و١٧٨٠ للمراسلة بين الهند وإنجلترا. وفى أعقاب طلب من الـ India Board بشأن إمكانية تنظيم اتصال مع الهند عبر مصر، قررت الحكومة الإنجليزية إعادة فتح قنصلية القاهرة فى عام ١٧٨٦[٦]. ولكن النفقات المتعلقة بذلك وجد أنها غير مجدية، ولذا فقد ألغيت القنصلية فى عام ١٧٩٣، فى الوقت الذى كانت فرنسا تفتح فيه قنصليتها. وقد بقى القنصل بالدوين بمبادرة منه فى القاهرة معتقدا أن وجوده هناك أثناء الحرب مع فرنسا كان يمكن أن يكون مفيدا لإنجلترا. بل إنه أبرم فى ٢٠ مايو ١٧٩٤ معاهدة مع حاكمى مصر فى السلطة آنذاك[٧].

وقد استشفت إنجلترا من عملية مصر جسامة الخطر فى أن تنتقل تلك الدولة ودول عربية أخرى إلى أيد معادية. ومنذ ذلك الحين زاد الاهتمام الإنجليزى بمصر وبشبه الجزيرة العربية بصورة ملموسة؛ ومنذ ذلك الحين، وبعد تردد وصعوبة، بدأت سياسة السيطرة الإنجليزية فى البحر المتوسط مع معاقلها الثلاثة فى جبل طارق ومالطة والإسكندرية[٨]، التى ستضاف إليها بعد ذلك قبرص وحيفا.

٢ ــ بعد أن عاد نابليون منتصرا من حملة إيطاليا، تلقى من الحكومة التكليف بتنفيذ المرحلة الثانية من الخطة الفرنسية: فبعد الانتصار على الخصم

الأضعف وهو النمسا، كان لابد من محاربة الخصم الأقوى وهو إنجلترا والقضـــاء عليه.

وفى البداية عاد نابليون لبحث إمكانية تنظيم غزو لإنجلترا، ولكن اعتبارات عديدة جعلته يتخلى عن المشروع مثل الفترة الزمنية الطويلـــة اللازمـــة للإعـــداد ونقص السيطرة البحرية واستحالة المفاجأة. ولكنه اقترح تنظيم حملة إلى الشرق[٩]، بهدف ضرب إنجلترا فى خطوط التجارة التى لا غنى عنها لحياتها.

والميل للشرق لم يكن جديدا فى نابليون، حتى إن بعض المؤرخين اعتقـــدوا أن هذا يفسر بوجود آثار من دماء شرقية نتيجة انحدار نسله من بعض الأجداد من أصل شرقى[١٠] حتى إنه، فى أثناء حملة إيطاليا، وعند وصوله إلـــى أنكونـــا فـــى فبراير ١٧٩٧، قال: "فى ٤٢ ساعة من هنا نصل إلى مقدونيا". ولكن فكرة القيـــام بحملة فى الشرق، سواء لإسقاط إنجلترا أو لتكوين إمبراطورية استعمارية لفرنسا، بدأت تشق طريقها بوضوح فى عقل نابليون فى الفترة التى انقضت بين مقـــدمات سلام ليبون (١٨ أبريل١٧٩٧) ومعاهدة كامبوفورميو (١٧ أكتوبر١٧٩٧). وبعـــد الحصول على خطابات للقيصر باولو لفرسان مالطة، يطلب فيها القيصر الســـيطرة على الجزيرة، كتب نابليون فى ٦٢ مايو ١٧٩٧ إلى الحكومـــة حـــول ضـــرورة احتلال الجزيرة. وبعد ذلك بقليل، ومع وعود كثيرة بالحريـــة والاســـتقلال نجـــح نابليون فى الحصول على أسطول من جمهورية فينيسيا لاحتلال الجزر الأيونيـــة. وهكذا كتب فى ١٣ سبتمبر ١٧٩٧ لوزير الخارجية تاليراند: "إننى أعتقد أن المبدأ الرئيسى للجمهورية الفرنسية من الآن فصاعدا يجب أن يكون عدم التخلى أبدا عن كورفو وزانتى... إلخ، بل إننا على العكس من ذلك، يجب أن نتمركز هناك بقـــوة؛ وسوف نجد هناك موارد هائلة للتجارة وستكون على جانب كبيـــر مـــن الأهميـــة بالنسبة لنا فى التحركات القادمة لأوروبا. ولماذا لا يتعين علينـــا الاســـتيلاء علـــى مالطة؟". "وإذا حدث عند إبرام السلام مع إنجلترا أن اضطررنا للتنازل عـــن رأس الرجاء الصالح، فإننا يجب أن نستولى علـــى مصـــر فمصـــر يجـــب ألا تنتمـــى للسلطان".

وفى نوفمبر ١٧٩٧، أرسل مبعوثه إلى مالطة لدعوة الفرسان لبيع الجزيرة لفرنسا. ولكى يحتفظ بجزر إيونية التى كانت قاعدة، فى ذهنه، لخطته القادمة للسيطرة على الشرق والبحر المتوسط، سمح نابليون بالتنازل عن فينيسيا للنمسا بمعاهدة كامبو فورميو مخلا بوعوده المتكررة.

بمعرفة هذه الأحداث السابقة، يصبح من السهل فهم اقتراح نابليون بإرسال بعثة إلى مصر. وفى الوقت نفسه، كانت تتجمع فى ذهنه ذكريات روما القديمة.

الصراع بين روما وقرطاجة للهيمنة على البحر المتوسط، والصراعات بين أنطونيو وبومبيو، والفرق الرومانية المنتصرة فى مصر. وتحت تأثير هذه الذكريات، كان حماس نابليون يشتعل فى رؤية مصر مجددة. وهكذا اصطحب معه مجموعة مختارة من العلماء[١١].

وكانت هناك مشروعات وخطط لمثل هذه البعثة قدمها فى عام ١٦٧٢ لايبنتس إلى لويس الرابع عشر، وسان بريست، السفير الفرنسى فى القسطنطينية، فى عام ١٧٨١؛ ولكن نابليون لم يكن على علم بها[١٢] وأيضا تاليران، الذى كان قد عقد مؤتمرا فى ٣ يوليو من عام ١٧٩٧ فى معهد فرنسا حول ضرورة إنشاء إمبراطورية استعمارية فرنسية، قدم فى فبراير من عام ١٧٩٨، باتفاق مع نابليون، على ما يبدو، مشروعا لاحتلال مصر.

وعلى أساس هذا المشروع والمشروع التالى لنابليون فى ٢٣ فبراير من عام ١٧٩٨، قررت الحكومة فى ٢٥ فبراير إرسال البعثة[١٣]. كانت الذرائع متوافرة، وأولها المظالم التى يتعرض لها الرعايا الفرنسيون على أيدى الحكام الذين أصبحوا مستقلين عن السلطان[١٤].

وقد أفلت الأسطول الفرنسى من مراقبة فريق من سفن الأسطول الإنجليزى، بقيادة نلسون، وأبحر من طولون فى ١٩ مايو لوجهة غير معلومة، وهو يضم ثلاث عشرة سفينة ملاحية، وثلاث عشرة فرقاطة وغيرها من السفن الأصغر، مع ٣٣٦٢٩ رجلا فى البعثة[١٥]. وقد احتل نابليون الجزيرة فى ١٠ يونيو، محققا بذلك

مطمحا قديما لفرنسا، وساعدت على ذلك جماعة الفرسان الفرنسيين فى جمعية سان جوفانى بالقدس، والتى كانت قد حصلت على مالطة كإقطاعية من كارلو الخامس، مع التزامات محددة نحو مملكة صقلية[١٦]. وقد احتل نـــابليون الجزيـــرة فـــى ١٠ يونيو. وعندئذ أعلن الهدف لبحارته. واحتلت الإسكندرية فى ٢ يوليـــو. وفـــى ١٢ يوليو وقعت معركة الأهرام، التى دمر فيها نابليون الجيش المصرى.

وبعد أن علم نلسون برحيل الأسطول الفرنسى دعم أسطوله بوحدات أخرى (بلغت فى مجموعها ثلاث عشرة) انطلق لمطاردة نابليون، ووصل إلى مالطة بعـــد أن كان هذا الأخير قد رحل عنها، وواصل طريقه بعد ذلك إلى الإسكندرية، حيـــث وصل إلى هناك قبل نابليون بيوم واحد. ولكن عندما لم يجده هناك، عاد نلسون إلى الوراء حتى سيراكوزا، ولكنه انقض على الأسطول الفرنسى الذى انتقل إلى خلـــيج فير ودمره بالكامل تقريبا (١ ــ ٢ أغسطس ١٧٩٨). وكان الانتصـــار البحـــرى الكبير، المعروف بمعركة النيل عملا استثنائيا لمهارة وشجاعة وقوة نلسون، الـــذى وجد الإنجليز فيه بطلا قوميا يمكن أن يقوى على مواجهة نابليون[١٧].

وفى تلك الفترة الزمنية نفســـها (يونيـــو١٧٩٨) انفجـــر تمـــرد الأســـطول الإنجليزى، الذى كان يحاصر قادش، وقمع بسرعة[١٨].

وقد رفع انتصار نلسون من مكانة إنجلترا، التى كانت أحداث عامى ١٧٩٦ ــ ١٧٩٧ قد هبطت بها، وشجع النمسا وروسيا على قبول عروض إنجلترا لتكوين تحالف ثان، وأعاد التأكيد على السيطرة الإنجليزية فى البحر المتوســـط. وبإبعـــاده لتهديد نابليون، أسهم فى التخفيف من الموقف الهندى الخطير. وأصـــبحت مالطـــة وصقلية، التى لجأ إليها ملك نابولى، صـــديق نلســـون، القاعـــدتين الإنجليـــزيتين الكبيرتين فى البحر المتوسط[١٩].

وقد غضب السلطان من احتلال نابليون للعديد من الأراضى فأعلن الحـــرب على فرنسا (١١ سبتمبر ١٧٩٨) وعقد تحالفا دفاعيا مع بولس الأول قيصر روسيا (٢٣ ديسمبر ١٧٩٨)[٢٠]. ونتيجة لهذه المعاهدة، كانت روسيا تلتزم بتقـــديم اثنتـــى

عشرة سفينة حربية إلى تركيا، وتحصل فى مقابل ذلك على حق مرور سفنها عبر الدرنيل. وكانت روسيا آنذاك معادية جدا لفرنسا بسبب احتلال مالطة (١٠ يونيو ١٧٩٨)، التى كانت جمعيتها قد اقترحت وعينت القيصر بولس الأول "معلما كبيرا" (١٠ أكتوبر ١٧٩٨)، على الرغم من الاحتلال الفرنسى[٢١]. وقام أسطول روسى – تركى باحتلال جزر إيونية (أكتوبر ١٧٩٨) فى الوقت الذى قام فيه أسطول بريطانى آخر باحتلال مينوركا (٥ نوفمبر)[٢٢]. وقد انضمت إنجلترا عمليا للتحالف التركى – الروسى بالاتفاق الأنجلو – تركى فى ٢ يونيو من عام ١٧٩٩[٢٣].

وباتفاقية أخرى فى ٥ يناير ١٧٩٩، ضمنت إنجلترا وتركيا، كل منهما للأخرى، ممتلكاتهما لفترة ثمانى سنوات. وكان "بيت" قد أعطى مثل هذا الضمان لتركيا لاقتناعه بالعواقب الضارة لتفكيك أوصالها وأبقى على سرية المعاهدة بسبب العداء الشديد لتركيا فى البرلمان (فوكس، بيرك)[٢٤]. وفى الوقت نفسه كانت إنجلترا قد سمعت لوضع حد لعمل نابليون بالدبلوماسية أيضا، بأن أرسلت وفدا إلى بغداد فى عام ١٧٩٧ برئاسة هـ. جونز، بهدف خلق توازن لتأثير العناصر الفرنسية، وفى الوقت نفسه كان الحاكم العام للهند ويلزلى يستعين بعميل إيرانى فى "شركة الهند الشرقية" لإبرام معاهدة مع إمام مسقط (١٢ أكتوبر ١٧٩٨)، وكان هذا هو الفصل الأول فى السياسة الإنجليزية فى شبه الجزيرة العربية. وفى يناير من عام ١٨٠٠ قام بتجديده القبطان جون مالكولم. فقد أبرم هذا الأخير معاهدة أيضا مع شاه إيران مؤكدا على المساعدة الفرنسية ضد أى هجوم فرنسى. وفى عام ١٧٩٩، قام أسطول رحل من بومباى باحتلال جزيرة "بريم" وبعد ذلك، عندما وجد أنها غير صحية، احتل عدن، التى أبرم قائد الأسطول مع سلطانها معاهدة صداقة وتجارة (٢٠٨١)[٢٥].

ومع بعثة مصر، ارتكبت فرنسا خطأ من ناحية، لأنها علاوة على تشجيع تكوين التحالف الثانى وجذب الاهتمام الشره لإنجلترا تجاه مصر، خسرت السلطان، الذى اعتمدت عليه دائما لوقف القوات النمساوية والروسية على الحدود مع الإمبراطورية العثمانية، فى الوقت الذى كانت تخوض فيه حربها؛ ولكنها من

الناحية الأخرى، أرست القواعد الصلبة لنفوذها القادم فى مصر[٢٦].

وكان انتصار أبو قير قد عزل عن الوطن جيش نابليون الذى قرر مع ذلـك البقاء فى موقعه، استعدادا لمواجهة الجيشين اللذين كان السلطان قد أرسلهما ضـده عن طريق البر والبحر، بالقوة نفسها. وفى هذا الظرف كتب نابليون فى خطاب ٧ أكتوبر ١٧٩٨ إلى الحكومة: "إن القوة التى تحكم مصر، هى التى تحكم الهند، على المدى الطويل"[٢٧].

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا، كما يقول الـ"روز"، أنه إذا كان نـابليون يهـدف لوضع الأسس لعمل قادم محتمل ضـد القسـطنطينية والهنـد، بـاحتلال مصـر وبالاتفاقات مع إمام مسقط، وكما حدث فيما بعد فى محاولة احتلال سوريا، فإن كل مراسلاته مع الحكومة تبين مع ذلك أنه لم يكن يفكر فى تحقيق مثل هذه الخطة فى تلك اللحظة، سواء لضآلة الإمكانات المتاحة، أو بسبب الموقف السياسى الدولى، أو لعدم وجود أسطول. وبعد هزيمة الجيش التركى فى العريش (٢٠ فبرايـر ١٧٩٩) واحتلال يافا (٧ مارس ١٧٩٩)، فرض نابليون الحصار على سان جوفانى داكرى التى قاومت بعناد، بعد أن قام الإنجليز بتزويدها بالإمدادات. وقد اضـطر نـابليون فى النهاية للتخلى عن مشروعه والعودة إلى مصر (٢١ مايو ١٧٩٩)[٢٨]، حيـث حقق نصرا كبيرا فى أبو قير على الجيش الآخر الذى أرسله السلطان (٢١ يوليـو ١٧٩٩)[٢٩]. وفى المقابل، قامت إنجلترا، من خلال فرقة بحرية تابعة لها، باحتلال بريم (١٧٩٩) التى تخلت عنها بعد ذلك للاستيلاء على عدن. وفى أعقـاب ذلـك تخلت أيضا عن عدن لكى تستعيدها نهائيا فى عام ١٨٣٩.

وقد ترك نابليون مصر، وركب السفينة متجها إلى فرنسا فى ٩ أكتوبر بعـد أن استدعته الحكومة للعودة إلى الوطن، بسبب الأحداث الجديدة التى كانت تتطـور فى أوروبا.

وقد عقد الجنرال كليبر، الذى تركه نابليون لقيادة القوات الفرنسية، اتفاقا مع تركيا (معاهدة العريش، ٢٤ يناير ١٨٠٠)[٣٠] للجلاء عن مصر، ولكن أمام فرض

إنجلترا منح السلام بشرط اعتبار كل أفراد الحملة أسرى حرب، استأنف الحـــرب وأوقع هزيمة بالأتراك فى هليوبوليس (٢٠ مارس ١٨٠٠). وبعد ذلك بقليل اغتيل كليبر، وفى مارس من عام ١٨٠١ هبطت قوات بريطانية بقيادة السير أبركرومبى فى أبو قير وأسرت حاميات الإسكندرية والقاهرة فى حين قامت قــوات أخــرى، قادمة من الهند ومن مدينة رأس الرجاء الصالح بالهبوط فى القصير. وقد استسلمت القوات الفرنسية نهائيا فى أغسطس من عام ١٨٠١. ومــن ناحيــة أخــرى، أدى اغتيال القيصر بولس الأول (٢٤ مارس ١٨٠١) إلى غروب خطة غــزو الهنــد، المتفق عليها بين القيصر ونابليون والتى كانت بالفعل فى طريقها للتنفيذ[٣١].

وبعد الجلاء عن مصر، عقدت فرنسا السلام أيضا مع تركيا، وتــم التوقيــع على المقدمات فى ٩ أكتوبر من عام ١٨٠١. وقد أعاد الســلام مصــر للســلطان وضمن سلامة أراضى الإمبراطورية العثمانية، بينما وضعت جزر إيونيــة تحــت حماية تركيا وروسيا. وبعد ذلك بيومين أرسل نابليون فــى مهمــة خاصــة إلــى القسطنطينية الكولونيل سيباستيانى، حاملا رسالة منه إلى السلطان[٣٢]. وقــد وقــع السلام النهائى فى ٦٢ يونيو من عام ١٨٠٢.

وهكذا غرب حلم نابليون فى إمبراطورية فرنسية كبيرة فى الشرق. وإلــى الآن، لأنه حتى إذا كانت الفكرة قد داعبته من جديد فى ١٨٠٣ و١٨٠٧ و١٨١٠، فإنه لم يكن بوسعه تحقيقها[٣٣].

٣ ـــ كانت انتصارات أبركرومبى والقضاء على العامل الفرنسى قد فرضت على الحكومة الإنجليزية مشكلة التوجيهات الواجب اتخاذها إزاء مصر. وقد أبلــغ وزير الخارجية، اللورد هوكسبرى (١٩ مايو ١٨٠١) السفير فــى القســطنطينية، اللورد إلجين، بأن إنجلترا قد عقدت "العزم الراسخ والأكيد على إعادة كــل مصــر للباب العالى"، باستثناء الحق فى إقامة حامية إنجليزية بطول الساحل طــوال مــدة الحرب أو لفترة أقل "بهدف حماية مصر ضد أى مخطط للغزو فى المستقبل"، وهو ما ستنفذه الحكومة الفرنسية بالتأكيد إذا سنحت لها الفرصة المواتية[٣٤]. ولكن هــذه

التوجيهات لم يكن لها أن تستمر طويلا أمام سير الأحداث فى مصـر والتـدخلات التركية. وبالفعل، فى الوقت الذى كانت فيه حكومة لندن واللورد إلجين والجنـرال هتشنسون، الذى خلف السير أبركرومبى فى قيادة القوات فـى مصر يؤيدون حكام مصر المماليك ــ الذين ساعدوا الإنجليز على نطاق واسع، والذين كان يبدو أنهـم القوة الوحيدة المنظمة تنظيما جيدا والقادرة على التعاون لصد أى غزوات محتملـة أخرى. وكانوا ينوون تثبيتهم فى امتيازاتهم وممتلكاتهم المكتسبة، كانـت الحكومـة العثمانية تنوى طردهم من مصر لأنها كانت تعتبرهم مغتصبين للسلطة التركية فى البلاد، وكانت تخشاهم بصفة خاصة لأنهم كانوا موضع إعجاب من السكان الـذين كانوا، على العكس من ذلك، يكرهون الموظفين الأتراك(٣٥). وفى مبادرة خاصـة من الجنرال هتشنسون، أكد رسميا لزعماء المماليك، الذين كانوا منقسمين إلى ثلاث مجموعات (إبراهيم، عثمان البرديسى ومحمد الألفى) على حماية إنجلترا (٥ مـايو ١٨٠١)(٣٦)، وأعطى بيانا بذلك لوزير الخارجية التركى (١٧يوليـو)(٣٧)، ودعـاه لإعطاء تعليمات للوزير الكبير، الذى كان آنذاك فى القاهرة، حتى يعيـد لزعمـاء المماليك ممتلكاتهم وقراهم. وقد اقترحت حكومة لندن، بدورها، الاعتراف بحقـوق الزعماء المماليك (٢٨ يوليو١٨٠١)(٣٨)، عندما طلب منها الباب العـالى النصـح بشأن شكل الحكومة المصرية. ولكن تركيـا كانـت محجمـة عـن قبـول هـذه النصائح(٣٩). بل إن الوزير الكبير يوسف باشا، قائد القـوات البريـة والأدميـرال الكبير أو الكابتن الباشا، حسين، بأمر من السلطان، وأوقعا زعماء المماليـك فـى كمينين، فقتل بعضهم وأسر البعض الآخر (أكتوبر). وبتدخل قوى مـن الجنـرال هتشنسون، الذى وصف الواقعة بأنها إهانة لإنجلترا، التى كان الحكـام المماليـك تحت حمايتها، أعاد الأدميرال الكبير الأسرى ودفن القتلى مع تكريمهم(٤٠). ووافقت الحكومة الإنجليزية تماما على عمل الجنرال هتشنسـون (٢٧ ينـاير١٨٠٢)(٤١)، فتدخلت هكذا صراحة فى الصراع بين الإمبراطورية العثمانية وحكـام المماليـك لصالح هذا الفريق الأخير.

وهناك محاولة تمت عن طريق ستراتون، سكرتير السفير البريطـانى فـى

القسطنطينية واللورد كافان؛ القائد الجديد للقوات الإنجليزية، لدفع الحكام المماليك للتخلى عن مصر بالذهاب إلى القسطنطينية أو إلى أرض بريطانية، وباءت بالفشل (يناير – مارس ١٨٠٢)(٤٢) وعندئذ بدأ صراع عنيف بين العناصر التركية والمملوكية، خاصة بعد أن عين محمد خوسريف باشا على مصر (يناير ١٨٠٢).

وفى أعقاب معاهدة أمينز فى ٢٥ مارس ١٨٠٢، التى كانت تفرض فى الوقت نفسه على فرنسا وعلى إنجلترا الجلاء من النقاط المحتلة فى البحر المتوسط بالقوات المسلحة للبلدين، كان على إنجلترا الجلاء عن مصر. وقد فكرت فى الحفاظ على مصالحها فى البلاد بتدعيم قوة الحكام المماليك، الذين كان عليهم أن يتولوا من جديد زمام الأمور بدفع جزية كبيرة فى مقابل ذلك للباب العالى. وبهذه الطريقة ستكون لها فى مصر حكومة وفية وفى الوقت نفسه قادرة على مواجهة أى عمليات فرنسية محتملة. وقد عهد بتنفيذ هذا المشروع للعميد ستيوارت، الذى كان قد نصح به فى الوقت نفسه(٤٣). وقد أعطيت أيضا لستيوارت التعليمات بالمرور بالقسطنطينية، للحصول على موافقة الباب العالى على المشروع المذكور أو ما يتبع ذلك من موافقة على مشروع إبعاد الحكام المماليك إلى أقاليم صعيد مصر (١٠ أغسطس ١٨٠٢)(٤٤). وعند وصوله إلى القسطنطينية، قابل ستيوارت المعارضة الحاسمة للباب العالى لأى مشروع لا يتضمن إبعاد المماليك عن مصر (يوليو – أغسطس ١٨٠٢)(٤٥). وبعد انتقاله إلى مصر، حيث تولى بعد ذلك بقليل قيادة القوات البريطانية (١٠ أكتوبر)، حاول ستيوارت الوصول إلى اتفاق بشأن المماليك مع خوسريف باشا، ونصح الحكومة البريطانية في الوقت نفسه بإطالة أمد الاحتلال لتسهيل مباحثاته واحتلال بعض حصون الإسكندرية(٤٦).

وفى ١٦ أكتوبر وصل الإسكندرية الكولونيل سيباستيانى، الذى بعثه نابليون فى مهمة، تجارية على ما يبدو، فى البحر المتوسط، والذى أعرب عن احتجاجه للجنرال ستيوارت لأن القوات الإنجليزية كانت لا تزال فى مصر على الرغم من الالتزام بمعاهدة أمينز؛ وعندئذ واصل طريقة إلى القاهرة حيث أبلغ خوسريف باشا

بنية القنصل الأول إعادة العلاقات التجارية بين فرنسا ومصر وقدم مساعيه الحميدة للوصول إلى اتفاق بينه وبين المماليك، وهى خدمات رفضها الباشا(٤٧). واستجابة لاحتجاج سيباستيانى وإلحاح الباب العالى، على الرغم من المخاوف من عمل العميل الفرنسى، أصدرت الحكومة البريطانية الأمر فى ٢٦ نوفمبر للجنرال ستيوارت بالسعى للجلاء عن مصر(٤٨). وفى الوقت نفسه، كانت قد حدثت هناك فى شهر نوفمبر مصادمات شديدة بين قوات الحاكم المملوكى الألفى وقوات خوسريف التركية، وهى مصادمات انتهت لصالح الفريق الأول.

وقد بقى ستيوارت محايدا بين الجماعتين، وبعث مساعده فى الميدان، اللورد بلانتير إلى القسطنطينية لدفع اللورد إلجين للتدخل لدى الباب العالى للحصول على تسوية للموقف المصرى لصالح الحكام المماليك (٢١ نوفمبر ١٨٠٢)(٤٩).

وقد دفعت الأخبار المرسلة من خوسريف حول النشاط الذى قام به سيباستيانى فى القاهرة وتلك التى نقلها من باريس دبلوماسى تركى حول نوايا نابليون فى الاهتمام بإعادة سلطة المماليك، بالإضافة إلى الأخبار التى قدمها عند عودته اللورد بلانتير حول الهزائم التى تعرضت لها القوات التركية فى مصر(٥٠)، كل هذه الأخبار دفعت الباب العالى (٣ ــ ٥ يناير ١٨٠٣) لإعطاء الحكام المماليك إقليم أسوان، فى صعيد مصر، ومعاشات ضعف تلك التى كانوا يتقاضونها فى السابق، بشرط عدم التدخل فى حكم البلاد(٥١).

وفى الوقت نفسه كان الجنرال ستيوارت قد استمر فى إجراء المفاوضات بين المماليك وخوسريف؛ ولكن بعد تلقيه الأمر فى ١٩ يناير ١٨٠٣ بالجلاء بتاريخ ٢٦ نوفمبر، نصح المماليك بانتظار قرارات القسطنطينية(٥٢) إلا أنه عندما وصل اللورد بلانتير إلى القسطنطينية، لم يشعر بضرورة إبلاغ المماليك بالقرارات المتخذة حيث إن إقليم أسوان كان صغيرا وبائسا، وغير كاف لإعاشة القوات والزعماء المماليك(٥٣)؛ ولذا فإنه رحل من الإسكندرية مع القوات فى ١١ مارس ١٨٠٣، مصطحبا معه الحاكم المملوكى الألفى ليستخدمه فى اللحظة المناسبة.

وهكذا فشلت السياسة الإنجليزية، التى كانت تهدف للوصول إلى اتفاق بين الباب العالى والمماليك وتدعيم قوة هذا الفريق الأخير.

٤ ــ وعند رحيله، ترك الجنرال ستيوارت فى القاهرة "وزيرا بريطانيا مقيما لدى باشا مصر"، وهو الميجور ميسير، مع الأمر بمراقبة نشاط نابليون فى مصر ومنع استخدام الباشا أو السلطان لعناصر فرنسية، مع البقاء بعيدا عن قضية المماليك(٥٤). وقد تلقى ضابط مدفعية بقى مع ميسير، من الجنرال تعليمات تفصيلية للدفاع عن ميناء الإسكندرية، التى كان من المقرر أن تكون النقطة الحصينة الرئيسية ضد أى هجوم محتمل لنابليون(٥٥).

كان نشر التقرير الشهير لسيباستيانى (٣ يناير ٣٠٨١) الذى كشف المخططات الطموحة لنابليون بشأن الشرق الأدنى وخاصة بشأن مصر، قد دفع إنجلترا للاحتفاظ بمالطة (التى كان يتعين عليها بموجب معاهدة أمينز، إعادتها لجمعية الفرسان)، وبالتالى لبدء الحرب من جديد مع نابليون (مايو ١٨٠٣). وكان من المقرر أن تنطلق من مالطة القوات البحرية وقوات الإنزال لحماية مصر أو أى نقطة أخرى فى البحر المتوسط يحاول نابليون التمركز فيها.

وفى الوقت نفسه كان الجنود الألبان (الأرناءوط) الغاضبون فى مصر لعدم تقاضيهم أجرهم منذ زمن طويل، قد تمردوا وطردوا خوسريف، وكونوا بالتالى تحالفا مع الحكام المماليك لمواجهة الانكشاريين، القادمين لمساعدة خوسريف. وباتحادهم على هذا النحو، احتل الألبان، بقيادة محمد على والمماليك كل مصر باستثناء الإسكندرية (أبريل ــ يوليو ١٨٠٣)، واقتسموا السلطة فى البلاد(٥٦). كان الباب العالى قد قبل بالأمر الواقع، وعين الباشا الجديد، محمد على، معترفا بسلطة المماليك(٥٧)، ولكن المماليك لم يقبلوا ذلك ولا حتى الباشا الجديد، الذى بقى فى منصبه حتى ديسمبر ١٨٠٣(٥٨). وقد قام حاكم مالطة، عن طريق المبعوث الإيطالى (الكابتن فينتشنتسو تابيرنا)، وحكومة لندن، عن طريق الألفى المملوكى، المبعوث من جديد إلى القاهرة، والميجور ميست والقنصل العام الجديد

"لوك"، قاموا بالاتصال من جديد بالحكام المماليك ووعدوهم بالتدخل لـدى البـاب العالى للاعتراف بحقوقهم(٥٩). بعد أن انزعجوا من أن المماليك قد لقوا مسـاندة القنصل الفرنسى ديليسبس، ولذا فإنهم يمكن أن يشجعوا إنزالا بحريا فرنسـيا فـى مصر.

وقد توجه ديليسبس بدوره نحو الألبان(٦٠) إلا أن الخصومة فيمـا بيـنهم، والتوتر مع القوات الألبانية، بقيادة الماهر محمد على، والاستياء الذى تولـد بـين السكان بسبب إدارتهم السيئة أدى بالمماليك إلى الدمار. وفـى ١١ مـارس ١٨٠٤ هاجمت القوات الألبانية المماليك الذين نجحوا بصعوبة فى الهروب مـن القـاهرة. وقد أصدر محمد على فرمانا زائفا يعين خورشيد باشا حاكما لمصر، بعد أن أعيـد وضع خوسريف مكانه لمدة ٤٠ ساعة فقط(٦١). وفى أثناء عام ١٨٠٤ احتـدمت الحرب الأهلية فى مصر؛ فى البداية، محمد على وخورشيد ضد المماليـك، وبعـد ذلك محمد على ضد خورشيد والقوات المبعوثة من تركيا. وكانـت نتيجـة هـذه الحرب أن محمد على عمل على تعيين نفسه باشا للقاهرة (أى لمصـر) بمسـاعدة علماء الدين والقضاء فى ١٣ مايو ١٨٠٥، بعد أن اتضح أنه الأقـوى والأقـدر، حيث وعد بإصلاحات واسعة فى الوقت نفسه. وقد قـام منـدوب مـن السـلطان بالتصديق على هذا المنصب فى ٢٤ يوليو التالى(٦٢). وقد اعتبـر الـ"ميسـت" انتصار محمد على نجاحا للنفوذ الفرنسى، ولذا فقد توجه من جديد نحـو الحكـام المماليك وهاجم "الإجراءات الإجرامية" التى استولى بهـا محمـد علـى، علـى السلطة(٦٣). وهناك موقف مماثل اتخذه الباب العالى الذى أجرى مفاوضات مـع الألفى، الحاكم المملوكى، الذى كان قد حقق فى الشهور الأولى مـن عـام ١٨٠٦ نجاحات ضد القوات الألبانية. وفى ٢ يونيو ١٨٠٦ تم التوصل إلى اتفاق بين ممثل الألفى المملوكى والباب العالى: كان من المقرر أن يعين محمد على باشا لسـوريا، وكان سيأخذ مكانه موسى باشا وهو من مدينة سالونيك، فى حين أن المماليك كانوا سيحصلون على بعض الامتيازات (٢ يوليو ١٨٠٦)(٦٤)، ولكـن عنـدما أبلـغ الأدميرال الكبير محمد على بقرارات الباب العالى(٦٥)، فإن هذا الأخير، بمسـاندة

ونصح من القنصل الفرنسى دورفيتى، اعترض بشدة(٦٦). وبعد أن خلق خلافات بين الزعماء المماليك، وتصرف بمهارة بين علماء الدين والقضاء، أقنع محمد على الأدميرال الكبير باستحالة تحقيق مشروعه. وفى ٢٩ سبتمبر صدق الباب العالى من جديد على تعيينه باشا لمصر(٦٧).

وخرجت السياسة الإنجليزية مهزومة مرة أخرى، فقد فشلت تماما محاولة خلق حكومة مملوكية قوية، موالية لإنجلترا ومعادية لفرنسا، وقادرة على مواجهة أية مشروعات نابليونية محتملة للإنزال فى مصر.

ولكن الحقيقة هى أن وزير الخارجية هاروبى منذ الـ ١٩ من أكتوبر ١٨٠٤، على الرغم من عدم موافقته على الاقتراح المقدم للباب العالى بإرسال حامية إنجليزية إلى الإسكندرية، فإنه أعطى تعليماته لستراتون حتى يحذر الباب العالى من أنه فى حالة حدوث تهديد من جانب فرنسا بالقيام بإنزال فى مصر، فإن إنجلترا ستتدخل على الفور، دون انتظار موافقة الباب العالى(٦٨).

٥ ـ وفى الوقت نفسه أبرمت روسيا فى القسطنطينية معاهدة تحالف مع تركيا (٢٣ سبتمبر ١٨٠٥) بفضل التدخل الفعال للسفير الإنجليزى أربوثنوت، وبعد أن قضى على نفوذ السفير الفرنسى برون فى عام ١٨٠٤، وبموجب هذه المعاهدة دخلت روسيا عمليا لتكون جزءا من التحالف الثالث المناوئ لنابليون، والذى كان يقوم "بيت" بتكوينه شيئا فشيئا. وقد صدقت المعاهدة من جديد علاوة على ذلك على حق السفن الحربية الروسية فى المرور فى الدردنيل(٦٩). إلا أن خبر انتصار نابليون على الجيوش النمساوية الروسية فى أوسترليتس (٢ ديسمبر ١٨٠٥)، وما أعقب ذلك من إبرام للسلام فى برسبورج (٢٦ ديسمبر) مع التنازل عن دالماتسيا لفرنسا، مما جعلها على اتصال بالأراضى العثمانية، كل هذا قدم مبررات ممتازة لرجال الدبلوماسية الفرنسيين فى القسطنطينية لإبعاد السلطان عن التحالف مع روسيا وإنجلترا وتوجيهه من جديد نحو فرنسا. وهكذا رفض السلطان تجديد المعاهدة مع إنجلترا واتخذ موقفا معاديا تجاه روسيا، واضعا بعض

المصاعب عند مرور السفن الحربية الروسية فى الدردنيل، وهو ما تـنص عليـه معاهدة ٢٣ سبتمبر المذكورة، وألغى فى الوقت نفسه امتيازات الرعايا الروس فـى تركيا(٧٠). وقد تدخل السفير الفرنسى الجديد سيباستيانى ليحسـم نهائيـا موقـف السلطان المناوئ لروسيا، فقـد أعطـاه نـابليون توجيهـات محـددة (٩ يونيـو ١٨٠٦)(٧١): إبرام تحالف بين فرنسا والباب العالى وإيران، ونـزع الثقـة عـن روسيا وإغلاق البوسفور أمام سفنها؛ واستعادة السيطرة على فالاكيا ومولدافيا.

كان سيباستيانى قد وصل منذ عدة أيام إلـى القسـطنطينية (١٠ أغسـطس ١٨٠٦) عندما وصل الخبر بأن سلاما منفصلا قد تم التوقيع عليه فى باريس بـين روسيا وفرنسا (وهو ما يسمى بمعاهدة أوبريل فى ٢٠ يوليـو ١٨٠٦). وقبـل أن تبلغ بطرسبرج الباب العالى أن السفير الروسى دوبريل لم يكن مفوضا لإبرام هـذا السلام، كان سيباستيانى قد استغل الخبر للإيعاز للسلطان بـأن روسـيا أصـبحت خارج القتال ولدفعه لإقالة الـ gospodar فى مولـدافيا وفالاكيـا، فـى انتهـاك للاتفاقيات القائمة مع روسيا. وقد حاول السفيران الروسى والإنجليزى بكل السـبل العمل على تراجع السلطان عن موقفه. وكانا على وشك النجاح فى ذلـك، ولكـن الحضور اليقظ لسيباستيانى، الذى مجد انتصار وقوة نابليون، أحبط كل جهودهمـا. وعندما لم ترض روسيا بما حدث قامت بغزو مولدافيا وفـى ٢٣ ديسـمبر ١٨٠٦ أعلن السلطان الحرب على روسيا(٧٢).

وفى الوقت الذى كانت تحدث فيه هذه الأحداث فـى القسـطنطينية، كـان نابليون قد أجرى مفاوضات مع إنجلترا وروسيا لإبرام السلام (مارس ـ سـبتمبر ١٨٠٦)، وهى مفاوضات لم تسفر عن شىء بالنسبة لمحاولة نابليون الفصل بـين القوتين. وفى تزامن مع هذه المفاوضات، كانت روسيا قد اقترحت علـى إنجلتـرا اعتبار اليونان والإمارات السلافية دولا مستقلة مع وضعها تحت سيطرتها. وكانت قد تقدمت بمثل هذا الاقتراح ضد الإمبراطورية العثمانية لتعويض الخسـائر التـى تعرضت لها فى أعقاب معركة أوستيرليتس ومعاهدة بريسبرج. وكان فوكس الذى أصبح وزير للخارجية قد غير موقفه المناوئ لتركيا، ورد بصورة غيـر مباشـرة

على روسيا بأن المصلحة الإنجليزية تقتضى الحفاظ على سلامة الأراضى العثمانية، حيث إن كل استيلاء روسى سيؤدى إلى استيلاء فرنسى آخر فى الجنوب وهو الاستيلاء على مصر، وهو أمر لا يمكن قبوله بالنسبة لإنجلترا لأنها سترى فيه تهديدا لطريق الهند. ومع ذلك فإنه فى حالة تقسيم تركيا، فى رأى فوكس، ستقوم إنجلترا باحتلال الإسكندرية فى مصر وكريت(٧٣).

وبعد اندلاع الحرب بين روسيا وتركيا وإغلاق المضايق (١٦ يناير) أصبحت العلاقات بين السفير الإنجليزى والباب العالى متوترة، حتى إن السير أربوثنوت اضطر للهروب على متن سفينة حربية إنجليزية والخروج من الدردنيل (٢٩ يناير ١٨٠٧)(٧٤) ولمساندة الحليفة روسيا، ودون إعلان الحرب، كانت لندن فى الوقت نفسه قد أرسلت فرقة بحرية إلى الدردنيل، بقيادة السير دكوورت لإجبار تركيا بالقوة على إبرام السلام مع روسيا واستعادة الوضع السابق. وبعد اقتحام ممر الدردنيل وتدمير الأسطول التركى (١٩ فبراير ١٨٠٧) أجرى دكوورت وأربوثنوت مفاوضات مع وزير الخارجية التركى، ولكن دون أى نتيجة. ونظرا لأن تركيا، فى الوقت نفسه، وبالتعاون مع الفنيين وضباط سلاح المهندسين الذين استدعاهم سيباستيانى من دالماتسيا، كانت قد حصنت الساحلين بقوة، فإن السير دكوورت اعتبر أن من الممكن القيام بعملية قوة ضد القسطنطينية، على الرغم من إلحاح الأدميرال الروسى الذى وصل بفرقة أخرى؛ ولهذا فقد أصدر الأمر بعبور الدردنيل من جديد والتوجه نحو الإسكندرية فى مصر (١٣ مارس ١٨٠٧)(٧٥).

وهناك كان يجرى (١٦ ــ ١٩ مارس) إنزال قوة من ٦٠٠٠ رجل، بقيادة الجنرال فريزر، التابع للقيادة البريطانية فى صقلية. وبعد احتلال الإسكندرية فى ٢٠ مارس، تعرض الإنجليز لهزيمة شديدة فى رشيد (٣١ مارس). وقد تعرضوا لهزيمة أكبر فى المنطقة نفسها فى ٢١ أبريل عندما وصل محمد على. وعند إنزال الإنجليز كان محمد على مشغولا فى صعيد مصر ضد المماليك، ولكن بعد إبرام السلام معهم، هرع إلى الشمال، بعد أن نصحه أيضا القنصل الفرنسى دروفيتى، القادم من إقليم بيميونتى، والذى كان على اتصال بسيباستيانى فى القسطنطينية. وقد

واجه محمد على الإنجليز، وهزمهم فى رشـيد وأجبـرهم علـى التحصـن فـى الإسكندرية، حيث بقوا حتى سبتمبر، أى حتى تم الوصول إلى اتفاق بينـه وبـين فريزر للجلاء عن المدينة وتبادل الأسرى(٧٦). وقد فرض الجلاء على السـلطات الإنجليزية أيضا لنقص التعزيزات، التى لم يكن من الممكن نقلها مـن سـوريا ولا إرسالها من الوطن الأم. ومع استمرار الحرب مع تركيا، كانت صقلية تبدو أكثـر أهمية من مصر؛ ولهذا كان يبدو من الأنسب التخلى عن مصر. وكان الناس فـى إنجلترا تشعر بمرارة بهزائم القسطنطينية والإسكندرية.

٦ ــ بعد تكوين حكومة بورتلاند (مارس ١٨٠٧)، فكر وزيـر الخارجيـة جورج كانينج فى تكرار المحاولة لدى الباب العالى من أجل سـلام مـع روسـيا والقضاء على النفوذ الفرنسى (١٥ مايو ١٨٠٧)(٧٧).

وعندما أبرمت روسيا السلام مع نابليون بوقوفها إلى جانبه وبعد ذلـك مـع تركيا (هدنة سلوبورزى، ٢٤ أغسطس ١٨٠٧)(٧٨)، قرر كانينج الوصـول إلـى سلام منفصل مع تركيا، ومساعدتها على الإبقاء على سـلامة أراضـيها بمسـاندة الأسطول الإنجليزى والإمداد بالأسلحة والذخائر(٧٩).

وفى تيلسيت، كان نابليون والإسكندر الأول قد اتفقا علـى اقتسـام الأقـاليم الأوروبية من تركيا، المطلة على البحر الأسود وبحر إيجه، لأن نابليون أيضا لـم يكن يريد السماح بدخول الأسطول الحربى الروسى فى البحر المتوسـط. وكانـت تركيا قد تصورت وجود هذا الاتفاق الفرنسى ــ الروسى ضـدها، ولكـن نفـوذ سيباستيانى كان هائلا. ولهذا فإن محاولة السلام عن طريق السير باجيه فشلت (٢٠ أكتوبر ١٨٠٧)(٨٠). وفى الوقت نفسه لم تكن تركيا مخطئة فى التشكيك أيضا فى إنجلترا. ففى الواقع، عندما استؤنفت المفاوضات فى عام ١٨٠٨ عن طريق السفير أدير، من أجل المساعدة الواجب تقديمها لتركيا، سبق كانينج فى هـذا ديزرائيلـى، وأعطى تعليمات للسفير للمطالبة (٢٦ يونيو ١٨٠٨) بالامتلاك أو الاحتلال المؤقت بجزيرة أو ميناء فى الأرخبيل، مركزا اهتمامه بعد ذلك على كريت، "أفضل عقبـة أمام تجمع القوات البحرية لفرنسا وروسيا"، سـواء ضـد القسـطنطينية أو ضـد

مصر(٨١). وكان هذا الاختيار فى الحقيقة أفضل من ذلك الذى تقدم به بعد ذلـــك ديزرائيلى فى عام ١٧٧٨ عندما طالب بقبرص وحصل عليها.

وقد استمرت مفاوضات السلام طوال عام ١٨٠٨. وتم التوقيع على الســلام فى ٥ يناير ١٨٠٩(٨٢). وفى حين لم تحصل إنجلترا على الملكيــة أو الاحــتلال المؤقت لأى جزيرة، فإنها قبلــت الاعتــراف "بالقاعــدة القديمــة للإمبراطوريــة العثمانية"(٨٣) بشأن حظر دخول السفن الحربية الأجنبية المضايق، ووعدت، فـــى بند سرى بـــ ٣٠٠٠٠٠ جنيه استرلينى لتركيا إذا دخلت الحرب إلى جانبهــا ضــد نابليون. ومن خلال الإمبراطورية العثمانية اســتطاعت العديــد مــن المنتجــات الاستعمارية الإنجليزية دخول أوروبا، وأفلتت هكذا من الحصار المضاد لنابليون.

وجدير بالذكر أن السلطان سليم الثالث تمت تنحيته فى ٢٩ مايو ١٨٠٧ فى أعقاب ثورة. ولفترة تزيد قليلا عن العام تولى منصبه ابن عمه مصطفى الرابع. ثم أعلن محمود الثانى سلطانا، فى أعقاب ثورة أخرى (٢٨ يوليو ١٨٠٨).

ويجدر بنا أن نوضح، علاوة على ذلك، أن كانينج، فى إعطائــه للتعليمـــات الموجزة للسير أدير، كان أيضا قد صاغ السياسة البريطانية بشأن الحفــاظ علـــى سلامة أراضى الإمبراطورية العثمانية، وهى سياسة ســيتبعها بعــد ذلــك الــذين سيخلفوه، باستثناء انتهاكها لصالح بريطانيا. وفى الوقت نفسه كان كانينج نفسه قــد عنى فى تعليماته بأن قال لأدير أن يتجنب أى التزام فى الاتفاق يمكــن أن يعنـــى "ضمانا رسميا بسلامة الأراضى العثمانية". وقد كان التزام "بيت" فى عـــام ١٧٩٩ الأول والأخير من هذا النوع. ومن كانينج فصاعدا، دافعت السياسة البريطانية عن مبدأ سلامة الأراضى العثمانية ضد كل من يمكن أن يلحق الضرر بأوضاعها، وقد انتهكت هذا المبدأ فى كل مرة كان هذا مناسبا لها. ففى عام ١٨٠٨، تجنب كـــانينج إعطاء ضمان إنجليزى لأنه "كان قد شعر بأنه لم يكن بوسعه ضمان مصـــر"(٨٤)، أى من الاحتلال البريطانى، لو كان هذا ضروريا فى حالة حدوث غزوات روسية أو فرنسية للأراضى العثمانية.

٧ ــ فى السنوات التالية مباشرة لجلاء القوات الإنجليزية عن الإسكندرية (١٨٠٨ ــ ١٨١٢) كانت لمصر أهمية من أربع وجهات نظر(٨٥):

أولا ــ الموقف الداخلى، أى العلاقات بين محمد على والمماليك.

ثانيا ــ خطة نابليون لغزو مصر من جديد.

ثالثا ــ العلاقات بين محمد على وإنجلترا.

رابعا ــ العلاقات بين محمد على وتركيا.

وقد قيل من قبل أنه لحظة الإنزال الإنجليزى فى الإسكندرية (مارس ١٨٠٧) كان الباشا فى حرب مع المماليك فى صعيد مصر. ولو أن الإنجليز نسقوا عملهم مع هؤلاء، لوجد محمد على نفسه فى موقف سيئ، وربما مميت. وخوفا من احتمال تكرار هذا الخطر، قرر الباشا التخلص نهائيا من خصومه، بعد أن حاول التوصل إلى اتفاقيات أو الفصل بين مختلف الزعماء عن طريق الهدايا والوعود. وهكذا هاجم زعماء المماليك فى الفيوم بقوات هائلة فى أغسطس ١٨١٠، وهزمهم هزيمة منكرة. ونظرا لأن بعض الباقين على قيد الحياة استأنفوا التآمر ضده، فقد استدرجهم محمد على إلى كمينين فى القاهرة (١ مارس ١٨١١) وإسنا (مايو ١٨١٢) وقتلهم جميعا. وقد انتهت القضية المملوكية نهائيا بهذة الأساليب السريعة(٨٦).

وفى الشهور الأولى من عام ١٨٠٨ فكر نابليون فى خطة لإعادة غزو مصر.

وقد نصح قيصر روسيا نفسه نابليون باحتلال سوريا ومصر، حيث كان يريد تنفيذ خطة تقسيم الإمبراطورية العثمانية التى ناقشها الزعيمان فى تيلسيت(٨٧). وقد كان نابليون، بدوره، بالخطاب الشهير فى ٢ فبراير ١٨٠٨، يحاول أن يدفع القيصر نحو الهند(٨٨). ويبدو أن إنجلترا كانت على علم بهذه المشروعات، إذا كانت فى فبراير ١٨٠٨ قد أبلغت محمد على مسبقا، عن طريق قنصلها، بالإنزال الفرنسى على سواحل مصر(٨٩).

وفى مايو ١٨٠٨ فكر نابليون فى حملة متزامنة ومزدوجة ضد الهند وضد مصر وأعطى أوامره فى هذا الشأن لوزير البحرية (١٣ و٢٦ مايو)(٩٠). ولكن شئون إسبانيا والحرب الجديدة ضد النمسا أثنته عن مثل هذا المشروع. وقد عاد إليه فى ١٨١٠، حتى إنه أعطى تعليماته (١٥ يوليو) لبناء أسطول صغير للنقل فى البحر المتوسط ومطالبة القناصل الفرنسيين (٣١ أكتوبر و٦ ديسمبر) بأخبار عن الوضع السياسى والاقتصادى والعسكرى لسوريا ومصر. وفى اللحظة المناسبة، أرسل إلى هذه الأقاليم أيضا ضابطين، ألنيرسيا وألبوتان. وكان نابليون يخطط لتنفيذ الحملة ضد مصر (١٧ سبتمبر ١٨١٠ و٨ مارس ١٨١١)(٩١). ومن القاهرة، كان القنصل دروفيتى والكولونيل بونتان يخبرانه (٥ يونيو ١٨١١)، ولكن ربما دون دقة كبيرة، بأن محمد على لن يستطيع الوقوف فى وجه غزو فرنسى؛ بل إنه، فى رأيهم كان يقوم بدراسة خطط للانسحاب، مع اعتماده على مساندة إنجلترا فى مثل هذا الاحتمال(٩٢).

إلا أن الأمور سارت بصورة مختلفة ولم يستطع نابليون تحقيق مشروعه؛ وهذا بصفة خاصة لأن التحالف الفرنسى ــ الروسى لم يدم طويلا. وفى أبريل ١٨٠٩، وبعد فشل المفاوضات لإبرام السلام بعد هدنة سلوبودزى، كانت تركيا قد شنت الحرب من جديد على روسيا(٩٣). وقد أعادت الخلافات مع نابليون، وخاصة فى تطبيق الحصار القارى، أعادت روسيا إلى إنجلترا. وبفضل التدخل الماهر للسفير البريطانى فى القسطنطينية، ستراتفورد كانينج البالغ من العمر أربعة وعشرين عاما، والذى أحبط محاولة للسفير الفرنسى، الذى سانده السفير البابوى للنمسا، التى أصبحت حليفة الآن لنابليون، لجذب تركيا لصفها، قبل الإسكندر الأول مطالب السلطان (إعادة مولدافيا وفالاكيا وصربيا) وأبرم السلام معه (معاهدة بوخارست، ٢٨ مايو ١٨١٢)(٩٤).

وفى ١٨ يوليو ١٨١٢، أبرمت روسيا أيضا معاهدة سلام وتحالف(٩٥) مع إنجلترا، بعد أن كانت بعض الأعمال العدائية قد بدأت فى يونيو. وفى اليوم نفسه أبرمت أيضا معاهدة سلام وتحالف بين إنجلترا والسويد(٩٦)، اللتين كانتا فى حالة حرب من نوفمبر ١٨١٠. وهكذا تكون التحالف السادس ضد نابليون.

وأصبحت العلاقات بين محمد على وإنجلترا، بعد عام ١٨٠٧، وثيقة جدا لسببين:

أولا: لأن إنجلترا جعلت من مصر المركز الرئيسى للإمداد لمالطة (وخاصة من القمح)، مع ميزة كبيرة لمحمد على، الذى طلب دفع ثمن باهظ لمنتجاته، التى لم يكن من الممكن فى الوقت نفسه تصديرها إلى فرنسا(٩٧)، نتيجة لفاعلية الحصار الإنجليزى؛ ثانيا: لأنه كان يعتمد على مساندة إنجلترا للحصول على استقلال مصر عن تركيا وتنازل تركيا عن ولاية سوريا(٩٨)، وبعد ذلك أيضا ولاية درنة فى أعقاب زواجه من ابنة حاكم درنة(٩٩). والحقيقة هى أنه فى أثناء عام ١٨١٠ وبالذات عندما كان يلوح فى الأفق تهديد الغزو الفرنسى، أعرب محمد على عن عدائه تجاه إنجلترا وبحث عن المساعدة الفرنسية لتحقيق استقلاله(١٠٠)، ولكنها كانت ظواهر عابرة. وفى عام ١٨١١ استند صراحة إلى إنجلترا، وفى هذا العام عين قنصلا عاما إنجليزيا الكولونيل ميست، الذى كان قد شارك من قبل فى الحملة ضد نابليون(١٠١). وفى يوليو من عام ١٨١٦ وقع الإنجليز على معاهدة تجارية مفيدة مع مصر عن طريق القنصل الجديد سولت(١٠٢).

ويجب أن نذكر هنا الحملات المصرية فى الجزيرة العربية فى السنوات ١٨١١ ـــ ١٨١٨، فى إطار تاريخ مصر وعلاقاتها مع حكومة القسطنطينية والعالم الإسلامى المحيط بها.

وبعد أن حصل من الباب العالى فى عام ١٨٠٩ على تكليف بقمع الثورة الوهابية فى الجزيرة العربية(١٠٣)، نظم محمد على حملة(١٠٤) وعهد بقيادتها لطوسون باشا، الذى احتل ينبع، وميناء المدينة، فى سبتمبر ١٨١١ ولكنه تعرض لهزيمة منكرة فى ممرات بدر الضيقة، فى كمين وهروب بعض القادة. وقد تصرف محمد على آنذاك بمنتهى القوة؛ فاستدعى إلى القاهرة مختلف القادة ،عهد بقواتهم للقيادة المباشرة لطوسون. وعند استئناف الهجوم، احتل طوسون المدينة فى نوفمبر ١٨١٢، ومكة فى يناير ١٨١٣، ولكنه تعرض لهزيمة جسيمة على أيدى

الوهابيين فى القنفذة (مارس ١٨١٤). فى يناير من عام ١٨١٥ تولى محمد على بنفسه قيادة القوات، فاحتل الطائف والترابة والقنفذة. وفى عام ١٨١٦، أعدت حملة أخرى بقيادة إبراهيم، ابن محمد على. فهاجم الوهابيين بقوة، وتغلغل فى النجد وفى ٩ سبتمبر ١٨١٨ احتل الدرعية عاصمة الوهابيين. ونقل ملكهم، عبد الله إلى القسطنطينية وقطعت رأسه. وقد رفعت النجاحات التى تحققت فى سبع سنوات من الحرب فى الجزيرة العربية من مكانة محمد على بصورة هائلة وشجعت خططه وطموحاته. ويبدو أنه فكر أيضا فى غزو اليمن، ولكن إنجلترا أثنته عن ذلك(١٠٥).

وبعد إخضاع الجزيرة العربية الوهابية، وجه محمد على اهتمامه إلى السودان (١٨٢٠ ــ ١٨٢٣)، ولكننا سنتحدث عن هذه العملية فى دراسة مستقلة.

٨ ــ بعد عمليات الجزيرة العربية والسودان، كرس محمد على نفسه للتنظيم الإدارى والعسكرى والتنمية الاقتصادية لمصر. وبالتعاون مع ضباط فرنسيين ماهرين ــ مثل الكولونيل سيف (المعروف باسم سليمان باشا) والجنرال بوير(١٠٦) ــ وإيطاليين(١٠٧)، نجح الباشا فى خلق كوادر وقوات من الطراز الأول، فأصلح تنظيم الجيش، مما أدى إلى ثورة فى الإسكندرية فى مارس ١٨٢٤(١٠٨). وقد امتد نشاطه الإصلاحى إلى كل المجالات تقريبا، من المجال الإدارى (بإنشاء الإدارات الإقليمية واستبدال الموظفين) إلى المجال الاقتصادى وخاصة فى مجال إنتاج وتصدير القطن(١٠٩).

وكمكافأة قدم السلطان لمحمد على ولاية دمشق، ولكنه رفضها بعد ذلك، ويبدو تحت ضغط من خصمه القديم خوسريف، الذى كان قد طرده من القاهرة(١١٠). وكانت طموحات الباشا تتجاوز ذلك بكثير، فقد كانت تتعلق بولايات سوريا وموريا. وقد سنحت الفرصة المواتية فى يناير ١٨٢٤ عندما منحه السلطان ولاية موريا بشرط محاربة المتمردين اليونانيين(١١١). وقد قبل محمد على التكليف عن طيب خاطر لأنه رأى فيه "فرصة جميلة لكى يظهر للعالم أجمع قوة

دولته الشابة، وأن يظهر للقاصى والدانى تفوقه على الباب العالى، ويحاول الإفلات من سيطرته بالخدمات المقدمة، وتنظيم ولاية موريا، ووضع نشاط اليونانيين في خدمة مصر، بالسيطرة على جنوب أوروبا وتحويل البحر المتوسط الشرقى إلى بحيرة مصرية"(١١٢).

وأعد محمد على حملة لغزو موريا، بقيادة ابنه إبراهيم(١١٣). وبعد رحيلها من الإسكندرية فى ١٩يوليو ١٨٢٤، عملت هذه الحملة فى البداية تحت الأوامر المباشرة للأدميرال الكبير التركى، وهو خوسريف نفسه الذى سبق ذكره، الذى تعرض لخسائر جسيمة على أيدى البحرية اليونانية بالقرب من رودس وسامو (أكتوبر)، وعندئذ توقف فى كانديا لكى ينزل بعد ذلك فى مودون بالقرب من نافارينو فى موريا (فبراير ١٨٢٥)(١١٤). وفى تلك الأثناء كان أسطول خوسريف يتعرض لخسائر جسيمة (يوليو ١٨٢٥)(٧)، وقام إبراهيم خلال عام ١٨٢٥ ــ ١٨٢٦ بغزو كل موريا تقريبا بما فى ذلك قلعة نافارينو (٨١ مايو ١٨٢٥) وميسولونجى (٤٢ أبريل ١٨٢٦)(١١٥).

وقد حدثت هجمات من سفن حربية يونانية لميناء الإسكندرية فى أغسطس ١٨٢٥ وفى يونيو ١٨٢٧، ولكن دون نجاح، كما كانت هناك لم يكتب لها النجاح أيضا للإنزال فى سوريا فى أبريل ١٨٢٦(١١٦).

وفى الوقت نفسه كانت هناك مصالحة بين محمد على وخوسريف فى أغسطس ١٨٢٥. وفى أكتوبر تلقى الباشا من السلطان فرمانا بالتعيين رئيسا للوزراء فى الإمبراطورية مع الوعد بالتعيين مرة أخرى كوال لدمشق(١١٧).

وقد كان محمد على مسرورا من ذلك ومرت فى ذهنه مشروعات كبيرة: حتى المشروع النابليونى بمهاجمة إنجلترا فى الهند بوضع قاعدته فى دمشق(١١٨). ولكن الخصومة بين محمد على وخوسريف، وتدخل الدبلوماسية الأوروبية (البروتوكول الإنجليزى ــ الروسى فى ٤ أبريل ١٨٢٤، والمعاهدة الروسية ــ التركية فى فبراير ١٨٢٦) والأسطول الإنجليزى (الأدميرال كوشرين)

لصالح اليونان والسلوك المتردد لفرنسا، كل هذا منع إبراهيم ومحمد على من تحقيق كل مزايا انتصار ميسولونجى. وفى الحقيقة، كانت إنجلترا قد حاولت أيضا إبعاد محمد على عن موريا، وبالتالى عن أوروبا، بتشجيعه لتنفيذ مطامحه بشأن سوريا. حتى إن فرنسا نصحته بإعلان استقلال مصر عن الباب العالى. ولكن إعلان الاستقلال كان سيشعل الحرب مع تركيا، علاوة على عداء إنجلترا. ولهذا عاد محمد على لفكرته المفضلة فى تحالف إنجليزى – مصرى، مفيد لكلا الطرفين. وكان على إنجلترا أن تساند وتضمن الاستقلال المصرى. وكانت مصر ستصبح حليفا جيدا لإنجلترا المهتمة بخطوط الاتصال مع الهند(١١٩). وبسبب هذه المباحثات ترك محمد على إبراهيم دون نشاط وأخر إرسال حملة جديدة(١٢٠). ولكن المهمة الخاصة لبروكسن أوستن (أكتوبر ١٨٢٦) باءت بالفشل(١٢١).

وفى يناير ١٨٢٧، قرر السلطان استبدال خوسريف كأدميرال كبير وتعيين محمد على قائدا عاما لكل القوات فى البحر والبر فى الإمبراطورية العثمانية ضد اليونان. وقد سلم الفرمان الخاص بذلك فى ٢٤ مارس ١٨٢٧(١٢٢). وبعد أن تحمس محمد على للمنصب، فكر على الفور فى مشروعات كبيرة؛ الأمر بتجنيد ١٥ ألف رجل آخرين، وقيادة فرقة بحرية لنقل الحرب للأرخبيل والمساعدات لابنه فى موريا(١٢٣). وفى شهرى أبريل ومايو وصلت إلى الإسكندرية الفرقاطات والسفن الحربية، والمصنوعة فى مرسيليا وليفورنو علاوة على الأسطول التركى المصرى الخاص بالإمداد من نافارينو بناء على أمر منه(١٢٤). إلا أن التعيين المفاجئ لخوسريف كوزير للحربية (يونيو ١٨٢٧) كان له انعكاس قوى على روح محمد على، حتى إنه لم يعد يعبأ إطلاقا بمشروعاته(١٢٥)، حتى إنه بدا ميالا لتنفيذ المقترحات الإنجليزية – الفرنسية فى التمرد على الباب العالى، بإعلان استقلاله وسحب قواته من اليونان. وقد أحبط رفض القوتين إعطاء ضمانهما للدولة المصرية الجديدة نوايا محمد على(١٢٦) الذى سارع بالاستعداد للحملة.

وقد كان مدفوعا أيضا من القنصل النمساوى، الراغب فى هزيمة

اليونانيين(١٢٧). وفى أغسطس ١٨٢٧ رحل الأسطول المصرى، الذى كان يضم تسعا وثمانين وحدة، من الإسكندرية ووصل إلى نافارينو فى سبتمبر.

وبمعاهدة لندن فى ٦ يوليو ١٨٢٧، كانت روسيا وفرنسا وإنجلترا قد قررت فى الوقت نفسه الاعتراف بالحكم الذاتى لليونان تحت حكم السلطان، وبالتالى ضرورة السلام بين تركيا والمتمردين وإرسال فرقها إلى مياه موريا لفرض الحصار. وقد أقرت المعاهدة التوجه المناوئ لتركيا. والمناوئ لمصر من جانب القوى الثلاث. وقد أظهر مترنيخ عداءه لمصر أيضا(١٢٨). وعلى الرغم من هذا فقد أرسلت إنجلترا الكولونيل كرادوك إلى محمد على لحثه مرة أخرى على أن يستقل بنفسه عن الباب العالى، ولكنها امتنعت عن إعطائه أى ضمان بالمساندة (أغسطس ١٨٢٧)(١٢٩).

وفى ٢٥ سبتمبر، فرض الأدميرال كودرينجتون، باسم الأميرالين الفرنسى والروسى أيضا، وقف تقديم السلاح لإبراهيم. وقد قبل هذا الأخير لمدة شهر انتظارا للحصول على أوامر من السلطان ومن والده(١٣٠). إلا أن الأدميرالات الثلاثة، بذريعة أن القوات المصرية استمرت فى القيام بأعمال عنف ضد اليونانيين، قرروا نقل أساطيلهم إلى داخل خليج نافارينو ومراقبة تحركات إبراهيم عن كثب، وكان جانبا من أسطوله قد خرج من الخليج لعرقلة تحركات السفن اليونانية بقيادة الإنجليزى كوشرين.

وفى هذه الأثناء دخلت الفرق الخليج، وأطلقت بعض طلقات البنادق ضد مركب إنجليزى. وقد أشعل هذا معركة نافارينو، التى هاجمت فيها أساطيل الأمم الأوروبية الثلاث، بقيادة الأدميرال كودرينجتون الأسطول التركى المصرى ودمرته (٢٠ أكتوبر ١٨٢٧)(١٣١).

كانت الضربة قاسية بالنسبة لمحمد على؛ حتى إنه فى النهاية نصح الباب العالى بقبول شروط القوى الكبرى(١٣٢)، ولكنه سرعان ما استعاد قوته وواجه الموقف بواقعية. وبقبوله نصائح فرنسا، بعد أن أبدى بعض المقاومة(١٣٣)، وقع

على اتفاق مع الأدميرال الإنجليزى كودرينجتون (١٠ أغسطس ١٨٢٨)(١٣٤)، الذى التزم معه بسحب قوات إبراهيم من موريا لنصف أسطوله، الذى سيرسله إلى نافارينو. ولم يكن التهديد بالحصار ضد إبراهيم وضده بواسطة الأسطول الإنجليزى غريبا عن قرار الباشا. وفى سبتمبر ـ أكتوبر ١٨٢٨ عادت بقايا القوات المصرية إلى الإسكندرية مع قائدها. ولكن تركيا لم ترغب فى قبول نصائح محمد على والقوى الأخرى فى الاعتراف بالاستقلال وإبرام السلام. وقد عمدت روسيا عندئذ إلى فرض هذه النصائح بقوة السلاح وأعلنت الحرب على تركيا (٦ مايو ١٨٢٨). ولم تفتأ هذه الحرب أن خلقت مصاعب ومخاوف جديدة لمحمد على، الذى طالبه السلطان بتقديم المساعدات من الرجال والعتاد والمال(١٣٥). وفى مقابل المساعدة المقدمة، رأى الباشا التصديق على سلطاته فى مصر (يونيو ١٨٣٠) وحصل على حكم جزيرة كريت (١٧ أغسطس ١٨٣٠)(٢). ولكن مطامحه، التى ضربت فى موريا، كانت تتجه الآن بصورة حاسمة إلى سوريا(١٣٦).

٩ ـ كان سلام أدريانوبولى (٤١ سبتمبر ١٨٢٩) قد وضع نهاية للحرب الروسية التركية بقبول الطلبات الروسية (إمارات مستقلة، وتنازلات عن الأراضى على البحر الأسود)(١٣٧). وكان بروتوكول لندن فى ٣ فبراير ١٨٣٠ قد اعترف بوجود يونان مستقلة.

ولكن هذه الاتفاقيات لم تكن قد حلت قضية الشرق، التى استمرت فى البقاء على خطورتها، لأن سلام أدريانوبولى كانت تعتبره إنجلترا، التى كانت مشغولة جدا بسياسة الحفاظ على سلامة أراضى الإمبراطورية العثمانية، بمثابة ضربة قوية لهذه السلامة وبالتالى لأمن طريق الهند. ومن ناحية أخرى كانت المكائد الروسية فى اليونان وبلاد ما وراء النهرين(١٣٨)، بتهديدها هذا الطريق مباشرة، كانت تؤثر بقوة على إنجلترا.

إلا أن القيصر نيقولا الأول، بعد يومين من التوقيع على معاهدة أدريانوبولى، مقتفيا آثار بولس الأول(١٣٩) قبل المقترحات التى صاغتها لجنة

خاصة من سبعة أعضاء، ولذا فقد كان من المناسب تغيير السياسة التقليدية لروسيا تجاه الإمبراطورية العثمانية، التى كان يدعمها بنشاط ويتبعها بطرس الأكبر وكاترين، مع تشكيلها طبقا لمعيار جديد مخالف تماما: الحفاظ على سلامة تلك الإمبراطورية(١٤٠). وطبقا لتلك اللجنة، كان يمكن لطرد الأتراك من أوروبا أن يؤدى قبل كل شيء إلى تعزيز للقوة التركية فى آسيا وبالتالى خلق اضطرابات للعمل الروسى فى القوقاز؛ ثانيا، كان أى تفكيك للإمبراطورية العثمانية سيسير فى صالح النمسا (البوسنة وألبانيا والجبل الأسود)، وفرنسا (مصر) وإنجلترا (كريت وجزر بحر إيجه). وهكذا كانت روسيا ستصبح محاطة بثلاثة جيران أقوياء بدلا من واحد ضعيف، بينما سيصبح بوسع إنجلترا وفرنسا المطالبة بالوصول إلى البحر الأسود. ولذا فقد كان على السياسة الروسية أن تتجه من الآن فصاعدا لتغلغل تدريجى وسلمى للإمارات، فى اليونان وفى آسيا.

ونظرا للتباعد الذى نشأ بين إنجلترا وروسيا، لم يبلغ القيصر هذه التوجيهات الجديدة لإنجلترا، التى استمرت فى مخاوفها وشكوكها نحو الخطط الروسية المزعومة للتقدم فى البحر المتوسط وفى آسيا الوسطى.

ولكن المناسبة لم تتأخر فى المجيء لتكشف السياسة الجديدة لروسيا وكانت هذه هى حرب محمد على ضد السلطان. وربما أدى نجاح باشا مصر، وربما تنصيبه نفسه فى القسطنطينية إلى بداية تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية، ولذا كان سيلحق الضرر بالمصالح الروسية. ولم يكن بوسع روسيا، فى الوقت نفسه عدم مساعدة تركيا ضد الباشا المتمرد(١٤١).

وكان الرأى نفسه، بعد بعض التردد، عند الحكومة الإنجليزية الجديدة بزعامة جرى ــ بالمرستون (١٨٣٠ ــ ١٨٣٤)، التى خلفت الحكومة المحافظة بزعامة ويلينجتون ــ أبردين (١٨٢٨ ــ ١٨٣٠)، التى لم تستطع بسياستها المتأرجحة والضعيفة منع الحرب التركية الروسية (١٨٢٨ ــ ١٨٢٩) ولم يكن لها خط ثابت بشأن قضية الاستقلال اليونانى وتوسيع الدولة اليونانية الجديدة لأنه كان

يسيطر عليها التعلق بمبدأ سلامة الإمبراطورية العثمانية تارة والرغبة فـــى خلــق عقبة أمام روسيا بتكوين يونان كبيرة وقوية تـــارة أخـــرى. ولـــم ينتقــد جـــرى وبالمرستون حتى بعنف ويلينجتون وأبردين لأنهما لم يحصلا مـــن فرنســـا علـــى الالتزام بعدم احتلال الجزائر، الإقليم العثمانى. وخوفا من أن تتمكن فرنســـا مـــن احتلالها للمغرب وتونس بالتعاون مع محمد على، الذى كان سيحتل ليبيا فى مقابل ذلك، أسرع بالمرستون بالإعلان عن أن إنجلترا لن تسمح بمزيد من الاستقطاعات من أراضى الإمبراطورية العثمانية، وأنها مستعدة لخوض حرب من أجل ســـلامة هذه الأراضى. ولم تكن إنجلترا ستسمح أبدا بوجود تفوق فرنسى ــ مصرى فـــى البحر المتوسط، على طول طريق الهند(١٤٢).

وعلى الرغم من هذه الهجمات على أسلافه لأنهم سمحوا بأن تنتـــزع أراض فى أوروبا وآسيا وإفريقيا من سيادة السلطان فإن بالمرستون لم يبرهن علـــى أنـــه مدافع جيد عن سلامة الإمبراطورية العثمانية، حيث كانت تحركه فقــط المصـــالح الإنجليزية، وليست مصالح الإمبراطورية العثمانية، عندما فكر محمد علـــى فـــى خطة لغزو سوريا والاستقلال عن السلطان. ولم يفت محمد على التمهيد دبلوماسيا أيضا لعمليته الطموحة هذه. ومع قلقه من نتائج الحملة الفرنســـية فـــى الجزائـــر، واعتقاده بأن فرنسا، التى أصبحت مشغولة بالكامل فى هذه الحملة، لـــن تســـتطيع تقديم أى مساعدة، توجه الباشا إلى إنجلترا، محاولا الاعتماد على العداء التقليـــدى لإنجلترا ضد المشروعات الفرنسية والروسية فى البحر المتوسط. وقد اقترح فـــى الوقت نفسه على القنصل الإنجليزى بيكر أن يقيم "تحالفا حميما وصداقة وثيقة بـــين مصر وإنجلترا"، ولكن دون أى نجاح، كما لم يحالف النجاح المحاولات التالية (٢٢ يونيو و٨ يوليو)(١٤٣). وهذا لأن إنجلترا كانت معادية لظهور قوة مصـــرية فـــى البحر المتوسط، وكذلك لظهور قوة فرنسية ــ روسية. ولهذا السبب الأساسى، بقى بالمرستون بعيدا عن الصراع التركى ــ المصرى فى ١٨٣١ ـــ ١٨٣٣. وقـــد رفض باشا سان جوفانى داكرى، الذى يسانده السلطان، منع الهجرة السرية لرعايا

وبضائع مصر إلى إقليمه(١٤٤). وأعطى هذا الذريعة لمحمد على لتنفيذ مخططاته (مايو ١٨٣١).

ودون أن يتلقى أى تصريح أو استشارة من الباب العالى(١٤٥) ولكن معلنـــا عن رغبته فى الولاء للسلطان بشرط ألا يعرقل هذا الأخير مشروعاته، وفى هـــذه الحالة سيسير أيضا ضده(١٤٦)، أرسل محمد على إلـــى ســـوريا حملـــة قوامهـــا ٦٢٠٠٠ رجل، بقيادة ابنه إبراهيم. وبعد احتلال يافا (٨ نوفمبر ١٨٣١)، فـــرض إبراهيم الحصار على قلعة سان جوفانى داكرى، التى لم يكن نابليون قد نجح فـــى اقتحامها (ولكن الحقيقة هى أن الأسطول الإنجليـــزى كـــان قـــد تـــدخل آنـــذاك). وبالتعاون مع الأمير بشير فى جبل لبنان ومهندسين إيطاليين مهرة، نجح إبـــراهيم فى اقتحام القلعة، بعد هجمات متكررة وبعد ستة أشهر من الحصار (٢٦ نـــوفمبر ١٨٣١ ـــ ٢٧ مايو ١٨٣٢).

وفى الوقت نفسه، كان السلطان قد حاول التوصل إلى اتفـــاق مـــع محمـــد على(١٤٧). ولكن تهديد هذا الأخير بمهاجمة السلطان لم يقبل طلبه بالولاية علـــى سان جوفانى داكرى واحتلال طرابلس واللاذقية (مارس ـــ أبريل ١٨٣٢) أغضب السلطان الذى أعلن الباشا متمردا فى ١١ مايو وشن عليه الحـــرب(١٤٨). وبعـــد انتصار سان جوفانى داكرى، طلب محمد على من السلطان إبرام الســـلام بشـــرط الحصول على ولايتى داكرى وطرابلس(١٤٩)؛ ولكن هذه المحاولة للتسوية فشلت أيضا سواء للاختلاف الكبير فى وجهات نظر المتخاصـــمين أو بســـبب الموقـــف المختلف لفرنسا، المؤيد لمحمد على بصفة عامة وإنجلترا المؤيدة للسلطان(١٥٠).

وبينما كانت تجرى هذه المباحثات، واصل إبراهيم تقدمه المظفـــر فاحتـــل حمص وحلب وبيلان فى شهر يوليو ١٨٣٢. ولم تقبل تركيا اقتراحا جديدا للاتفاق تقدم به محمد على فى ٢١ أغسطس ١٨٣٢(١٥١)، وخاصة لأن الباشا كان قد هدد بتنحية السلطان والاستيلاء على القسطنطينية(١٥٢).

ولكن أمام نجاحات إبراهيم ومخططاته ومخططات والده الطموحة، بدأ القلق

يساور إنجلترا وفرنسا ونصحتا محمد على بالعمل بحذر، مما أوقع الباشا فى حيرة شديدة(١٥٣). ولكن هذا الأخير استسلم لضغوط الابن فى مواصلة الحرب. وفى ٢١ ديسمبر ١٨٣٢ حدث صدام شديد فى قونيه بين القوات المصرية والتركية، انتهى لصالح الفريق الأول. وقد أسر رئيس الوزراء نفسه(١٥٤).

وربما تذكر السلطان وعود المساعدة التى قطعها ستراتفورد كانينج على نفسه صراحة تقريبا، بعد أن كان فى مهمة خاصة فى القسطنطينية من نوفمبر ١٨٣١ إلى أغسطس ١٨٣٢(١٥٥)، وعندما طلب من لندن (٣ نوفمبر ١٨٣٢) المساعدة البحرية الإنجليزية ضد الباشا المتمرد، تأخر بالمرستون فى الرد، على الرغم من أن الهزيمة الجسيمة التى تعرضت لها القوات التركية فى قونيه مكنت إبراهيم من الاستيلاء على أضنه وتشيليتشا وقدمت له إمكانية التقدم نحو القسطنطينية. وعلى الرغم من أنه كان يميل فى البداية للتدخل، عندما رد فى ٧ مارس ١٨٣٣، فإنه أنكر على السلطان طلب المساعدة واعدا إياه فقط بمساندة دبلوماسية(١٥٦) ولكن بعد فوات الأوان.

وفى ٢٢ ديسمبر ١٨٣٢ كان قد وصل إلى القسطنطينية فى مهمة خاصة الجنرال مورافييف المكلف من حكومته بتقديم مساندة الأسطول الروسى فى البحر الأسود للسلطان ضد محمد على(١٥٧). وتحت ضغط هزيمة قونيه، قبل السلطان على عجل الدعوة الروسية وسمح لمورافييف بالذهاب إلى الإسكندرية، ولكنه بعد ذلك، وتحت ضغط وزرائه المتذكرين للعداوة التقليدية التركية الروسية والخائفين من المخاطر التى يمكن أن تنجم عن المساعدة الروسية، قرر التخلى عن هذا والتباحث مباشرة مع محمد على. وهكذا أرسل إلى الإسكندرية خليل باشا وقد كلف بأن يقدم لمحمد على ولايتى أكرى ودمشق (٨ يناير ١٨٣٣)(٣). وفى اليوم نفسه، كتب المكلف بالأعمال الفرنسى فارين لمحمد على ولإبراهيم ودعاهما لمساندة التعليمات الجيدة للسلطان(١٥٨). وفى الوقت نفسه ركزت حكومتا لندن وباريس على الإجراءات الواجب اتخاذها(١٥٩). وكان يبدو أن الأمور تتحسن وحل الصراع بين الباب العالى والباشا كان يلوح فى الأفق، إلا أن إبراهيم، عند تلقيه

ثلاث رسائل (تركية وفرنسية وروسية) تخبره بقرارات الباب العالى بإبرام الســلام مع والده، فسر هذا على أنه الدليل على أن الإمبراطورية العثمانية قد أصبحت فى حالة اندثار نتيجة للانتصارات المصرية. وفى ٢٠ يناير، تصرف من تلقاء نفســه وواصل المسيرة إلى الأمام. وفى لحظة من الكبرياء غير المحــدود ودون التنبــؤ بردود أفعال القوى الأوروبية، فكر فى أن يضم لمصر الأناضول وقبرص وتونس وليبيا(١٦٠). وكانت نتيجة الحركة المندفعة لإبراهيم أن أعادت الســلطان لفكــرة قبول العرض الروسى (٢ فبراير ١٨٣٣)، حتى قبل عودة مورافييف، وخاصة أن إنجلترا لم تكن قد ردت على طلبه للمساعدات وكانت القوات التركية، فى كيوتاهيا بالفعل. وفى ٢٠ فبراير، كانت فرقة بحرية روسية تضم ٢٠ ألــف رجــل عنــد البوسفور، مستعدة للدفاع عن القسطنطينية من أى هجوم لإبــراهيم. وفــى أبريــل وصلت فرقة أخرى أنزلت ٦ آلاف رجل.

وحتى إذا كانت روسيا تعتقد أن ضعف تركيا من حرب على الحــدود مــع محمد على مفيد لأهدافها، فإنها مع ذلك كانت معترضة على تفكيك أوصال تركيا، طبقا للقرارات المتخذة فى ١٦ سبتمبر ١٨٢٩، ولهذا تدخلت لصالح تركيــا ضــد التابع المتمرد(١٦١).

وأمام القرار الروسى، تحركت إنجلترا للتدخل بقوة، فى اتفاق مع فرنسا، مع تهديد محمد على بحصار ميناء الإسكندرية إن لم يبرم السلام مع الســلطان. وقــد أرسل محمد على فورا الأمر لابنه بالتوقف حيث وصل (٢٦ يناير ١٨٣٣). وقــد وصل الأمر فى ١٠ فبراير ونفذ(١٦٢). ولكن إنجلتــرا وفرنســا كانتــا تريــدان الحصول على السلام بأى ثمن وإبعاد القوات الروسية. وبعد مباحثات طويلة وغير سهلة، قام بها فى الإسكندرية السفيران روسان وماندفيل، وفى الإسكندرية القنصل الإنجليزى كامبل والمبعوثان غير العــاديين الفرنســى بوازلكومــت والنمســاوى بروكسن ــ أوستن(١٦٣)، وقع المتحاربان على سلام كيوتاهيا (٥ مــايو ١٨٣٣). وقد ترك السلطان لمحمد على حتى آخر حياته ولايتى سوريا وطرســوس، تحــت السيادة العليا التركية، بينما عهد لإبراهيم بولاية أضنه، طوال حياته الباقية أيضــا.

وقد سحبت روسيا قواتها وسفنها، بعد أن ضعف المبرر الذى كانت قد أرسلتها من أجله. ولم تنجح فرنسا بدورها فى الحصول على الاعتراف باستقلال محمد على. وقد كانت هذه بلا شك، نجاحات لبالمرستون، الذى عطل عمل وأهداف القوتين الأخريين، ولكن لماذا لم يتدخل دفاعا عن سلامة الإمبراطورية العثمانية أو لماذا، على العكس من ذلك، لم يساند محمد على وإبراهيم حتى على غزو القسطنطينية ومواجهة روسيا بقوة أقوى عسكريا بدلا من تركيا الضعيفة؟ هناك أسباب عديدة لذلك. أولا، أن الرأى العام الإنجليزى لم يكن مستعدا لسياسة معادية لروسيا؛ وثانيا، لأن الأسطول الإنجليزى كان مشغولا بالفعل فى بحر الشمال، بطول سواحل هولندا والبرتغال ولم تكن تستطيع استخدامه للدفاع عن القسطنطينية؛ وثالثا، لأن القوة العسكرية المصرية كانت مرتبطة بإبراهيم وكان من الصعب أن تبقى على قيد الحياة بعده؛ وأخيرا، أن محمد على كان يهدد الخليج الفارسى(١٦٤).

وقد كان السبب الحقيقى هو التالى، على حد تعبير المؤرخ الإنجليزى(١٦٥): "إن بالمرستون كان يعلم ما يفعل. وقد وجد تعويضا حتى إذا كان قد سمح بالتنازل عن أراض شاسعة. وكانت دمشق وحلب قد احتلهما محمد على، ولكن العراق والموصل بقيتا تركيتين. وكانت تركيا محتلا جيدا للطريق للهند. وكان الطريق الآخر للهند هو الفرات، الذى كانت تسير بطوله التجارة الإنجليزية. وكان هذا الطريق قد بقى لتركيا. ولو لم يكن هكذا لحارب بالمرستون بالتأكيد. وكانت إنجلترا مستعدة للقتال من أجل طريق الهند، كما فعلت عندما تعرضت مصالحها البحرية للخطر من التهديدات الفرنسية على تونس والمغرب وبلجيكا. وهكذا لم تكن سلامة الإمبراطورية العثمانية مبدأ مجردا ولكن شيئا كان بوسع بالمرستون أن يختار الحرب من أجله أم لا. ولم يكن مستعدا للقتال من أجل جزء من الإمبراطورية العثمانية. إنه كان سيقاتل فقط لو أن فرنسا وروسيا أو محمد على أخذوا جزءا كبيرا من تركيا مما يؤثر على توازن القوى بأسره ويمس مصلحة حيوية لإنجلترا". ولم يكن من الممكن التعبير بكلمات أكثر فاعلية مما قيل

عن برود الحسابات وتقدير كل مشكلة من وجهة نظر إنجلترا الأنانية وهى أمـــور تقليدية فى السياسة الخارجية الإنجليزية.

كانت إنجلترا قد أعلنت مبدأ سلامة الإمبراطورية العثمانية، ولكنهـــا عمليـــا تركت احتلال أراض شاسعة من روسيا، من قبل فرنسا ومحمد على وتكوين الدولة المستقلة فى اليونان، وهذا لأن مصالحها لم تتعرض للخطـــر. وإلا فـــإن ســـلامة الإمبراطورية العثمانية كانت ستصبح ذريعة جيدة لمحاربة القوى المنافسة والتأكيد على مصالحها.

١٠ ــ وقد استطاع بالمرستون بتدخله أن يجعل السلطان والباشـــا يوقعـــان على السلام وأن يدفع روسيا لسحب سفنها وقواتها، ولكن هذا لم يكن بلا ثمن. ففى مقابل النية الطيبة التى ظهرت والمساعدة التى قدمت، أبرمت روسيا بالفعـــل مـــع تركيا معاهدة هونكيار إسكليسى المهمة فى ٨ يوليو ١٨٣٣(١٦٦). وبهذه المعاهدة ضمنت كل من القوتين بالتبادل فيما بينهما المساعدة فى حالة الاعتـــداء مـــن قـــوة ثالثة، وصدقتا على معاهدة أدريانوبولى والاتفاقيات الأخـــرى المتعلقـــة باليونـــان. ووعدت روسيا تركيا باحترام استقلالها فى حالة ما إذا طلبت مساعدتها العســـكرية والبحرية ضد محمد على. وقد التزمت تركيا فى مادة سرية بإغلاق الدردنيل، فـــى حالة الحرب، ضد كل السفن الحربية الأجنبية بناء على طلب من روسيا.

وقد كانت هذه المادة السرية موضع مناقشات كثيـــرة(١٦٧)، حيـــث إنهـــا فسرت فى بعض القطاعات بمعنى أنها تسمح للسفن الحربية الروسية بالدخول ليس فقط فى البوسفور ولكن فى الدردنيل، أى فى البحر المتوســـط، حتـــى إن تركيـــا رفضت الالتزام بإغلاق الدردنيل أو البوسفور على حد سواء أمام المتحاربين، فـــى حالة اندلاع الحرب بين روسيا وإنجلترا.

وأيا كان التفسير المقدم للمادة السرية (والتفسير الأصح يبدو أنه الذى يـــرى أن روسيا كان يمكنها الوصول بحرية فقط للبوسفور)، فإن الأمر الجوهرى هو أن تركيا أصبحت عمليا تابعة لروسيا. وإذا لم تقم النمسا وبروسيا بأى حركـــة، فـــإن

إنجلترا وفرنسا ــ وهذه الأخيرة انضمت طواعية للحصول على الموافقة الإنجليزية على الاحتلال الذى تم فى الجزائر ــ احتجتا فى أغسطس وطلبتا من السلطان عدم التصديق عليها، ولكن دون جدوى. وقد نجح بالمرستون فى الحصول على نسخة من المادة السرية(١٦٨)، ووصل إلى القول بأنه كان يفضل أن يرى فى القسطنطينية باشا مصر بدلا من قيصر روسيا، ولم يكن يهمه شىء من تنصير وتحضر الأتراك، فى سبيل منع النفوذ الروسى فى تركيا(١٦٩). وهكذا بدأ عداء بالمرستون لروسيا، وكان هذا من أسباب حرب القرم. ومع بالمرستون اتجه الرأى العام الإنجليزى بأسره ضد روسيا(١٧٠). ولكن باستثناء الاحتجاج لدى السلطان، لم يقم بالمرستون بأى خطوة إلى بطرسبرج، وهذا لأنه لم يكن يشعر بالأمان من جانب فرنسا، التى كان على خلاف معها بسبب القضية الإسبانية. وبإبرام التحالف الرباعى (٢٢ أبريل ١٨٣٤) استطاع بالمرستون بسهولة التفاوض على قضية العلاقات بين تركيا وروسيا(١٧١).

وكان بالمرستون قد رأى فى الواقع فى معاهدة هونكيار إسكليزى أكثر بكثير مما فيها ونسب إلى روسيا نوايا عدوانية، لم تكن لديها فى الواقع، كما يبين ذلك حدثان: إبرام اتفاقية مونشن جراتس (١٨ سبتمبر ١٨٣٣) والرفض الموجه للسلطان فى ١٨٣٤، عندما طلب مساعدتها على أساس معاهدة هونكيار إسكليزى لمهاجمة محمد على. ومع اتفاقية مونشن جراتس(١٧٢)، المستلهمة من مترنيخ، التزمت روسيا والنمسا حماية تركيا، والإبقاء على العائلة الحاكمة والاعتراض على أى تغيير. وفى مادتين سريتين، أقرت الدولتان، علاوة على ذلك، الاعتراض على أن يتولى محمد على السلطة المباشرة أو غير المباشرة فى تركيا الأوروبية والاتفاق على نظام جديد، فى حالة تفكيك أوصال الإمبراطورية العثمانية. وبما أن الاتفاقية بقيت سرية، فإن بالمرستون شك فى أنها ربما أقرت تقسيم الإمبراطورية العثمانية ولهذا رفض اقتراح مترنيخ (٧ يوليو ١٨٣٤) لإبرام معاهدة رباعية للحفاظ على السلام فى الشرق الأدنى(١٧٣).

١١ ــ كانت اتفاقية كيوتاهيا قد وقعت تحت ضغط إنجليزى ــ فرنسى،

وعلى مضض جدا من السلطان ومن محمد على، ولكن من الأول بصفة خاصـــة. وفى ١٨٣٣ ـــ ١٨٣٤، ١٨٣٥ و١٨٣٦ كان محمود الثانى قد أظهر النية لمهاجمة القوات المصرية المتمركزة فى سوريا، وقد منعته روسيا وفرنسا من ذلك فى المرة الأولى وإنجلترا فى المرة الثانية والثالثة. وكان محمد على يريد من جانبـــه غـــزو أراض أخرى لتدعيم موقفه(١٧٤).

وقد بدا الصدام حتميا خلال عام ١٨٣٨ عندما أعلن محمد على فى ٥٢ مايو عن رغبته فى الاستقلال التام عن الباب العالى(١٧٥). وأمام احتمال نشوب حرب، حدد بالمرستون على الفور مسلك إنجلترا بما يتمشى مع مصالحها. وفى ٧ يوليـــو ١٨٣٨ كتب للكولونيل كامبل، ممثل إنجلترا والقنصل العام فى القاهرة حتى يقـــدم بلاغا بذلك لمحمد على: "إن الحكومة البريطانية تشعر بالتزامها بإعلام الباشا، دون تحفظات وبصراحة، أنه إذا كان ينوى للأسف تنفيذ نواياه ونشبت الحرب بينه وبين السلطان، فإن الباشا يجب أن يتوقع أن يجد بريطانيا إلى جانب الســـلطان لتـــدارك الظلم الفادح الذى لحق به وتجنب تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانيـــة"(١٧٦). وفى ٠٢ يوليو، أرسل بالمرستون نسخة من هذه الرسالة للسفير البريطـــانى فـــى القسطنطينية، بونسنبى، ليخبر بها السلطان. وعلاوة على مواجهة محمد على، كان بالمرستون يهدف لاتفاق إنجليزى ـــ تركى لإلغاء المعاهدة الروسية ـــ التركية لعام ١٨٣٣ واستغلال الخصومة القديمة بين تركيا وإيران فى وقت كانت فيـــه إيـــران، بمساندة من روسيا، تهدد أفغانستان وبالتالى الحدود الهندية(١٧٧).

وقد شعر السلطان بتشجيع كبير لمعرفته بالمساعدة البريطانيـــة فـــى حالـــة نشوب حرب ضد الباشا، حتى إنه عند إبرام المعاهدة التجارية مع إنجلترا فـــى ١٦ أغسطس ١٨٣٨(١٧٨)، منحها شروطا مواتية جدا.

ولم يلق الموقف القوى لإنجلترا نحو محمد على موافقة من فرنسا. فقد كانت تسوية القضية البلجيكية قد قسمت القوتين الغربيتين. وأسهمت القضية المصرية فى تقسيمهما أكثر والتأثير على فرنسا تجاه صداقة وثيقة أو تحالف مع روسيا. وهكـــذا

اقترحت الحكومة الفرنسية، في يونيو، على الحكومة الروسية إثناء السلطان عن مهاجمة الباشا إذا ما أعلن هذا الأخير الحرب، بل قبول الأمر الواقع لاستقلاله(١٧٩). ولم يكن هذا الاقتراح سيغضب روسيا لأن وجود عدو قوى في الجنوب سيدفع السلطان أكثر فأكثر للاستناد إلى حليفه في الشمال. ومن ناحية أخرى، لم يكن دعم المواقف الروسية في تركيا وبالتالي على المضايق يغضب فرنسا كثيرا لأنه بهذه الطريقة ستكون هناك ثلاث قوى في البحر المتوسط في مواجهة الأسطول الإنجليزى(١٨٠).

إلا أن الحكومة الروسية، لم تكن لديها أى نية في إقامة علاقات وثيقة مع فرنسا؛ وكان هدفها هو زيادة حدة الخلاف بين هذه الأخيرة وإنجلترا، ففي ضوء هذا الهدف فقط، كان بوسعها الاقتراب من المقترحات الفرنسية(١٨١). ولهذا، ففي ما يسمى بإعلان توبيليتز(١٨٢)، اقتصرت على التأكيد من جديد على فاعلية معاهدة هونكيار إسكليزى، التي احتجت عليها فرنسا وإنجلترا والإعراب عن نيتها في التدخل لمساعدة تركيا في حالة الاعتداء من جانب محمد على.

وكما نرى، فإن وجهة النظر الروسية هذه تقترب إلى حد كبير من وجهة النظر الإنجليزية، التي عبر عنها بالمرستون في الرسالة ٧ يوليو، سالفة الذكر. إلا أن الحكومتين كانتا منقسمتين آنذاك في قضية مهمة جدا. فقد عاد بالمرستون بفكرة تقدم بها مترنيخ قبل ذلك ببضعة أيام، ومنذ السادس من يوليو ١٨٣٨ كتب(١٨٣) إلى السفير الإنجليزى في باريس، جرانفيل، مقترحا الدعوة لعقد مؤتمر بين إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا لتحديد عمل مشترك إزاء محمد على. وبما أن قبول مثل هذه الفكرة كان سيعني بالنسبة لروسيا فقدان حريتها في العمل والمزايا التي اكتسبتها بالمعاهدة التركية – الروسية في ١٨٣٣، فإنها اعترضت بشدة، وأعربت عن استعدادها، على الأكثر، للمشاركة في ضمان جماعي لتنفيذ اتفاق مباشر محتمل تركى – مصرى. وقد أضيف لهذا الخلاف على المؤتمر والقضية المصرية في الخريف تكثيف النشاط الروسى في إيران، وهو ما كان يشكل تهديدا لأمن الهند(١٨٤).

وعلاوة على ذلك، قام الأسطول التركى برحلة فى البحر المتوسط مع الأسطول الإنجليزى، وفى تلك الأثناء كانت هناك شائعات حول الاستعداد لهجوم إنجليزى – تركى على الإسكندرية(١٨٥). وهناك شائعة أخرى، حول السماح للأسطول الإنجليزى بدخول الدردنيل بحجة التزود بالإمدادات، وقد كذبها السلطان فى حديثه للسفير الروسى، الذى قدم احتجاجات حكومته(١٨٦). وفى الوقت نفسه بدأ يرتسم نحو نهاية العام التهديد بحرب إنجليزية – روسية.

وفى الوقت نفسه، كان السفير التركى فى لندن، رشيد، بعد أن وقع على المعاهدة التجارية فى ١٦ أغسطس، قد بدأ مفاوضات مع بالمرستون لإبرام معاهدة تحالف. ولكن نظرا لأن بالمرستون كان معترضا على أن يأخذ السلطان بزمام المبادرة بالحرب وكان مستعدا لذلك لتقديم التعاون لإنجلترا فقط إذا أعلن محمد على استقلاله أو قام باعتداء، بينما كانت تركيا تبحث عن التحالف والتعاون مع إنجلترا دون شروط فى الحرب التى كانت تريد إعلانها على محمد على(١٨٧) انتهت المفاوضات فى أبريل بدون التوصل لأى نتيجة. وقد أثرت على هذه النتيجة من ناحية، الضغوط الروسية على القسطنطينية، ومن الناحية الأخرى تحسن العلاقات الإنجليزية الروسية، ولذا فإن التحالف المتصور فى يوليو ١٨٣٨ بين إنجلترا وتركيا لم يعد ضروريا لإنجلترا(١٨٨). وفى حين لم يكن بالمرستون يرغب فى أن تكون تركيا مهاجمة، فإنه كان معاديا بصورة حاسمة لمحمد على، حتى إنه منذ عام ١٨٣٥ قام بدراسات حول الموقف الاستراتيجى والعسكرى والسياسى لسوريا وحول سياسة الباشا نحو السكان المحليين(١٨٩). وفى ٢٩ مايو ١٨٣٩، بعد أن بدأت الحرب بين المتنافسين، كتب يقول للسفير جرانفيل فى باريس: "إن الضغط على محمد على من قبل إنجلترا يمكن أن يبدو متحزبا وظالما، ولكننا متحزبون. ولا يمكن لأى فكرة للحياد تجاه محمد على أن تعرقل مصالح كبيرة وعليا إلى هذا الحد (الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية، التى كان تقسيمها سيؤدى إلى نتائج عامة). وتمبرلى نفسه يصف هذا المفهوم بأنه "مستهترط ويعلق قائلا: "إن محمد على كان يجب أن يحارب لتجنب نشوب حرب أوسع سواء أكان هو المعتدى أم السلطان"(١٩٠).

ما هى أسباب عداء إنجلترا لمحمد على؟ قبل كل شـــىء، الخـــوف مـــن أن يصبح محمد على، بمد احتلاله وتزايد قوته، حليفا لروسيا التى كانت بدورها تقـــوم فى تلك السنوات بنشاط سياسى فى إيران وكانت تحرص هذه الأخيرة على غـــزو أفغانستان. وقد قاد ضباط روس الهجوم الإيرانى على قلعة حيرات وقام بالمقاومـــة ضباط إنجلترا (١٨٣٧). وكان أى تحالف مع أو بدون ضم أراض فى العراق، بين القيصر والباشا سيهدد أو يلغى طريق الهند. وكان بالمرستون قلقا بصفة خاصة من أن يقوم محمد بغزو ديار بكيـــر، "مفتـــاح آســـيا الصـــغرى" المقـــدم لـــه مـــن روسيا(١٩١).

وبصرف النظر عن وجود تحالف روسى ــ مصرى، مـــع تهديـــد الهنـــد وطريق الهند، كان بالمرستون معاديا لمحمد على لنشاطه الممتد فى شبه الجزيـــرة العربية. وبعد أن احتل الحجاز مع مدينتى مكة والمدينة واكتسب هكـــذا الســـيطرة على ضفتى البحر الأحمر، كان محمد على يضغط من ناحية على مخـــا وعـــدن، ومن الناحية الأخرى كان يهدف للاستيلاء على جزر البحرين فى الخليج الفارســـى ــ ولذا فإن بالمرستون كان يدعوه «للتخلى عن أى نية للاســـتقرار فـــى الخلـــيج الفارسى، لأن مخططه هذا لم يكن من الممكن أن يمـــر دون اكتـــراث مـــن قبـــل الحكومة البريطانية"(١٩٢). وعلى أى حال، فكرت إنجلتـــرا فـــى احـــتلال عـــدن (١٨٣٩) لمنع محمد على، ناسية رأيها فـــى ســـلامة الإمبراطوريـــة العثمانيـــة. والموضوع الثالث فى الخلاف الشديد بين إنجلترا ومحمـــد علـــى كـــان المنافســـة الاقتصادية التى كانت تهدد بالتطور فى البلاد العربية. وقد أوضـــح تقريـــر مهـــم للقنصل الإنجليزى فى سوريا، فارين، فى ٢٩ مايو ١٨٣٤(١٩٣)، أهمية الســـوق السورية للمنتجات الإنجليزية والأخطار الناتجة عن السياسة التوسعية للباشا. وهكذا عندما قام هذا الأخير فى ١٨٣٤ بإقرار الاحتكار الحكومى لتجـــارة الحريـــر فـــى سوريا، أدى تدخل اللورد بونسنبى، السفير فى القسطنطينية وكامبل، القنصل العـــام فى القاهرة إلى إلغاء هذا الاحتكار مع الأول من سبتمبر عـــام ١٨٣٥. ولتطـــوير

تجارتها وتحسين طرق الاتصال مع الهند، طلبت إنجلترا من الباشا تشييد طريق من أنطاكية إلى الفرات وطلبت من السلطان السماح بتكوين شركة إنجليزية للملاحة على هذا النهر. ولكن الباشا اعترض على تنفيذه، إدراكا منه للمخاطر التى ستنجم عن هذا المشروع.

وكانت الهند وطريق الهند والخليج الفارسى(١٩٤) موضوعات حساسة جدا بالنسبة لبالمرستون حتى إنه اعتقد أن من حقه التدخل فى الخلاف بين السلطان والباشا، وعرقلة هذا الأخير، لمجرد أنه كان يبدو العدو الأخطر على المصالح الإمبراطورية الإنجليزية، بصرف النظر عن أسباب المتخاصمين(١٩٥). ولذا فقد وقف بالمرستون بوضوح ضد محمد على منذ النصف الثانى من عام ١٨٣٨.

١٢ ــ وعلى الرغم من الرأى المعارض للقوى الكبرى، فقد هاجم السلطان القوات المصرية فى سوريا. وفى ٢١ أبريل، قامت قوات تركية، بقيادة حافظ باشا، بعبور الفرات. وقد اتخذ محمد على فى البداية موقفا دفاعيا، لكى يظهر أنه هو المعتدى عليه(١٩٦)، واقتصر على المطالبة بميراث الحكومة المصرية وليس الاستقلال(١٩٧)، وبالتالى فإنه أصدر فى ١٠ يونيو تعليماته(١٩٨) لابنه إبراهيم بطرد الأتراك من سوريا والاندفاع بعد ذلك حتى أوفرا وديار بكر. وفى ٢٤ يونيو ١٨٣٩، نزيب، أوقع إبراهيم هزيمة قاسية بحافظ واحتل أوفرا وامتنع عن تعقب العدو ما وراء تاورو حتى قونية فقط بسبب تدخل الكابتن كوليبه، المبعوث من الحكومة الفرنسية لمحاولة التوصل إلى سلام بين المتحاربين(١٩٩).

وفى الوقت نفسه، انتقل الأسطول التركى، الذى خرج من الدردنيل لمهاجمة الأسطول المصرى، بالكامل إلى جانب محمد على، بالتواطؤ مع الأدميرال الفرنسى لالاند (١٤ يوليو). وقد برر القائد التركى هذا الموقف بالخيانة المزعومة لرئيس الوزراء خوسريف "المباع لروسيا" وضرورة الدفاع عن السلطان الجديد البالغ من العمر ستة عشر عاما، عبد المجيد، الذى خلف والده محمود الثانى، الذى مات فى الأول من يوليو(٢٠٠).

وهكذا كان موقف تركيا يبدو يائسا جدا. وفى ثلاثة أسابيع، كما علق جويزو(٢٠١)، كانت قد فقدت الملك والجيش والأسطول.

وعلى العكس من ذلك، أعلن محمد على، وهو مبتهج بالنصر فى مؤتمر عقد للقناصل الأجانب فى ١٦ يوليو(٢٠٢) عن رغبته فى إحياء الإمبراطورية العثمانية وإعادة الأسطول التركى فقط بعد أن يحصل على الحكم الوراثى لمصر وسوريا وكانديا. وبعد تنحية خوسريف، ربما ذهب لتحية السلطان الجديد فى القسطنطينية(٢٠٣).

وفى هذا الظرف، اتخذ وزير الخارجية الفرنسى سولت موقفا حائرا: فمن ناحية، استمر فى السياسة التقليدية فى مساعدة محمد على، حتى إنه اقترح لصالحة التنازل الوراثى لحكم مصر وسوريا، حتى يمنع أى توسع زائد له، ورفض المقترحات الإنجليزية بالقيام بمظاهر بحرية فى الإسكندرية أو حتى القيام بضغوط على الباشا لإعادة الأسطول إلى السلطان؛ ومن الناحية الأخرى، بقى ثابتا عند سياسة الوفاق مع إنجلترا، وهى سياسة تقليدية أيضا منذ عدة سنوات، وهذا بصفة خاصة لعرقلة عمل روسيا فى القسطنطينية، والتى تمثل فى رأيه تهديدا جسيما على كلتا القوتين. ولهذا السبب، عرقلت الحكومة الفرنسية المحاولة، التى قام بها رئيس الوزراء خوسريف غداة نزيب، للتوصل إلى اتفاق مباشر بين الباشا والسلطان، مع مطالبة إنجلترا وفرنسا، بالتعاون مع النمسا وروسيا بتسوية القضية المصرية. وفى ١٧ يوليو وصلت الحكومة الفرنسية إلى حد إعلان القوى الكبرى رسميا بأن الاتفاقيات الأخيرة قد كشفت عن إجماع كل الحكومات على ضرورة سلامة الإمبراطورية العثمانية. وقد جعل هذا الإعلان، المتعارض جدا مع المصالح الفرنسية فى حماية وتقوية مصر، جعل بالمرستون يصيح قائلا: "إن سولت جوهرة"(٢٠٤).

ولكن إنجلترا كان لها رأى مخالف، أى أنها كانت معادية بصورة حاسمة وصريحة لمحمد على حيث أن توسعاته فى أراضى شبه الجزيرة العربية كانت

تهدد طريق الهند، أى مصلحة حيوية للإمبريالية البريطانية. ولتبرير عـــدائها، لـــم يفت بالمرستون التذكير بالخوف من نية فرنسا الاستفادة من مصر كبيرة وقوية أو حتى غزوها. ولهذا اقترح إعطاء محمد على فقط حكما وراثيا على مصر(٢٠٥).

وقد تدخل مترنيخ(٢٠٦) لمساعدة السياسة الإنجليزية ونجـــح عـــن طريـــق مبعوثة الرسولى فى القسطنطينية، فى التوصل إلى اتفـــاق بـــين ســـفراء إنجلتـــرا والنمسا وبروسيا وفرنسا وروسيا الـــذين كتبـــوا مـــذكرة مشـــتركة (٢٧ يوليـــو ١٨٣٩)(٢٠٧) قدمت بعد ذلك للباب العالى وأبلغت بالتالى لمحمد على(٢٠٨).

وطبقا للمذكرة، فإن القوى الخمس كانت قد توصلت إلى اتفاق على قضـــية الشرق الأوسط ودعت الباب العالى لعدم القيام بأى خطـــوة دون موافقتهـــا. وقـــد كررت فرنسا خطأ ١٧ يوليو، على الرغم من أن مصالحها كانـــت مختلفـــة عـــن إنجلترا وعلى الرغم من أن السفير الروسى وقع دون أن يحصل على تعليمات من حكومته(٢٠٩) حتى كان للمذكرة أثرها. بل إن إنجلتـــرا اقترحـــت علـــى فرنســـا مهاجمة وتدمير الأسطول المصرى(٢١٠) وكان الباب العالى على وشك التنـــازل لمطالب محمد على (إبعاد رئيس الوزراء خوسريف والتنازل عـــن ســـوريا) مـــن خلال اتفاق مباشر(٢١١) فاستطاع النجاة هكذا بنفسه. وبناء علـــى نصـــيحة مـــن الممثلين الخمسة الأجانب، أبلغ الباشا (٢٢ أغسطس) بعدم قبول مطالبه ووضـــعت القضية فى أيدى القوى الكبرى(٢١٢). وعلى الرغم مـــن التهديـــدات الإنجليزيـــة وعلى الرغم من الـــدعوة النمســـاوية لعـــرض القضـــية علـــى تحكـــيم القـــوى الكبرى(٢١٣)، وعلى الرغم من نصيحة فرنسا الرضا بالحكم الـــوراثى لســـوريا ومصر وتسليم كريت لإبراهيم مع التخلى عن أضنه (١٥ أكتـــوبر)(٢١٤)، فـــإن محمد على قاوم خطوة القوى الخمس واستعد لتنفيذ مخططاته فى التوسع فى أقاليم آسيا الصغرى، حيث كان ينوى جلب الأخشاب لأسطوله والرجال لجيشه، عـــلاوة على زيادة علاقاته التجارية(٢١٥).

وعلى الرغم من المذكرة المشتركة فى ٢٧ يوليو، فإن الشقاق بين إنجلتـــرا

وفرنسا لم يتأخر فى الظهور بالكامل لأن إنجلترا كانت تنوى إخضاع محمد علـــى بأى ثمن والتخلى له فقط عن الحكم الوراثى لمصر، مع اللجوء عنـــد الضـــرورة لاستخدام الوسائل القهرية ضده، بينما كانت فرنسا مؤيـــدة للتنـــازل عـــن مصـــر وسوريا(٢١٦). بل إن فرنسا أعطت تكليفا لسفيرها الجديد فـــى القســـطنطينية دو بونتوا بتشجيع الرغبة فى التقارب من جديد وهو ما أظهره السلطان والباشا علـــى حد سواء(٢١٧). إلا أن محمد على كان أكثر تصميما من أى وقت مضـــى علـــى مواجهة إنجلترا ورفض باستياء تهديدات القنصل الإنجليزى الجديد، وقال: "إن مـــا أراه، هو أن البعض يريد إعطاء مصر لإنجلترا. وأنا لن أتـــرك أحـــدا يأخـــذها. وسوف أستسلم ولكن بشرف"(٢١٨). وقال أيضا: "لن أسمح لمصر بـــأن تصـــبح إنجليزية. ولن أتنازل عن شبر من سوريا"(٢١٩). وقد كان يشعر بالتشجيع علـــى هذه المقاومة من الخطب التى ألقيت فى البرلمان الفرنسى فى ٣٢ ديســـمبر ١٨٨٩ وفى ١١ و٣١ يناير ١٩٤٠(٢٢٠).

كان الهدف الإنجليزى واضحا، كما كتب كوشيليه يقول بحدة لحكومته فى ٥ يناير ١٨٤٠: "إذا تم القضاء على سلطة محمد على، فكيف ومن سيحل محلـــه؟... من المحتمل أن تبدأ من جديد الاضطرابات والانتفاضـــات والإســـراف والســـرقة والنهب والسلب كما فى عهد المماليك وحكامهم. ووسط هـــذه الفوضـــى، ســـتجد إنجلترا مزيدا من التسهيلات لتنظيم علاقاتها مع الهند. وستطالب بثمن مســـاعدتها؛ وستحتل بضع نقاط على البحرين وستعمل على تحصينها. وربما ستسىء اســـتخدام سلطتها وعندما تحين الفرصة ستفعل فى مصر ما سيفعله الروس فى تركيا. ونحن لا نريد أن نسمح بذلك، ولكن امتلاك الجزائر والغزوات التى نوشك أن نقوم بهـــا ستكون حجة قوية، تقدمها حكومة لندن، لتلزمنـــا بالتســـاهل إزاء توســـعاتها فـــى مصر"(٢٢١). ولكن بالنسبة لفرنسا، كما كان يؤكد كوشيليه، كان من غير المقبول أن تحتل إنجلترا الإسكندرية فى مصر أو سان جوفانى داكرى. ولهذا كان لابـــد أن تساند الباشا، وخاصة أنه منع من استغلال النصر فى "نزيب" بالكامل بسبب التدخل الفرنسى(٢٢٢).

ولكن سولت كان يتردد فى اتخاذ قرار. بل إنه كان يلوم بونتوا لأنه نصح محمد على بالذهاب إلى القسطنطينية وتولى إدارة الحكم، فى الوقت الذى كان يبتعد فيه عن الاتفاق الأوروبى(٢٢٣).

وفى نهاية الأمر، كان الخلاف يتسم بالطابع الداخلى والذى يمكن حله داخليا دون تدخل من القوى الأوروبية. ولكن إنجلترا لم تكن تريد ذلك؛ فقد كانت تنوى فرض إرادتها وحل الخلاف بصورة تتمشى مع مصالحها، متجاوزة أى قاعدة فى حقوق الناس وأى رغبة للأطراف المعنية(٢٢٤). وقد كانت هناك أدلة كثيرة على رغبة السلطان الجديد ومحمد على فى الاتفاق مباشرة مع وساطة فرنسا وخاصة فى الشهور من أكتوبر حتى ديسمبر ١٨٣٩. وفى القسطنطينية كان علماء الدين أنفسهم مؤيدين لإعطاء محمد على الحكم الوراثى لسوريا وإبرام تحالف معه. وعلى الرغم من طلبات الباشا أيضا بالنسبة لأضنه وكانديا والجزيرة العربية، فإنه لم يكن من الصعب التوصل إلى اتفاق لأن الباشا كان قد انتهى به الأمر بالتنازل، وخاصة بالنسبة لكانديا والجزيرة العربية(٢٢٥)، وربما تنازل أيضا بعد ذلك عن الجزيرة العربية. وعند منتصف ديسمبر بدا أن النمسا أيضا وروسيا تؤيدان الاتفاق المباشر بين تركيا ومصر. ولكن هذا كان لفترة وجيزة. فقد كانت روسيا تتقارب من جديد من إنجلترا، وفى الوقت نفسه كان بونسنبى يعمل بنشاط لدى السلطان والسفراء الأجانب لمنع هذا الاتفاق وإثارة التدخل الجماعى(٢٢٦).

١٣ ــ فى أثناء محادثات مهمة فى سبتمبر وأكتوبر ١٨٣٩ كان بالمرستون قد اقترح على السفير الفرنسى سيباستيانى أن يعطى محمد على الحكم الوراثى لمصر وسوريا الجنوبية، باستثناء مركز أكرى. وكانت تركيا ستحصل من جديد على باقى سوريا، بما فى ذلك الأماكن المقدسة. ولم تقبل فرنسا هذا الاقتراح(٢٢٧). وعلى الرغم من تصريح بالمرستون للسلطان بأنه مستعد لأن يقدم له كل مساندة إنجلترا، حتى بصورة منفردة(٢٢٨)، فإنه اتجه نحو التعاون مع روسيا بدلا من التعاون مع فرنسا. وكانت الفرصة آنذاك مواتية جدا لأن القيصر أيضا كان يرغب فى التقارب مع إنجلترا وفصل تركيا عن فرنسا والنمسا. وكان

قد بعث زاريفيتش، فى زيارة إلى لندن، وكان قد ألغى عمل موظفيه فى إيران واستدعاهم وأظهر استعداده للعمل بقوة ضد الباشا فى مصر(٢٢٩).

وفى أعقاب مهمتين خاصتين للبارون برونو فى سبتمبر ـ أكتوبر ونوفمبر ـ ديسمبر ١٨٣٩، تجاوزت حكومتا لندن وبطرسبرج خلافاتهما وتوصلتا فى ١٢ يناير ١٨٤٠ إلى اتفاق بشأن المسلك الواجب اتباعه لمساعدة تركيا ضد محمد على. وكانت معاهدة هونكيار إسكيليزى، التى تعتبرها روسيا الآن عمليا، إن لم يكن رسميا، مجرد "بقايا تاريخية مهمة ومشرفة"(٢٣٠)، حيث إنه تقرر أنه فى حالة ضرورة الدفاع عن القسطنطينية وبناء على طلب من السلطان، مع التخلى عن المبدأ التقليدى فى إغلاق البوسفور والدردنيل أمام كل السفن الحربية، كان مسموحا بصفة استثنائية للسفن الروسية بدخول البوسفور والسفن الإنجليزية بدخول الدردنيل(٢٣١).

وقد وضع هذا الاتفاق الذى تتضح أهميته نهاية للصداقة الإنجليزية الفرنسية وبداية التحالف الإنجليزى الروسى من عام ١٨٤٠، وبعد ذلك الاتفاق حول المضائق فى عام ١٨٤١.

وفى ديسمبر ١٨٣٩ كان محمد على قد انتهز فرصة زيارة كامل باشا لمحاولة التقارب من جديد مع تركيا، ولكن دون نتيجة(٢٣٢)، كما لم تفلح محاولات يناير ـ فبراير ١٨٤٠(٢٣٣). وقد رحب محمد على(٢٣٤) بتغيير الوزارة فى فرنسا وبالخطاب الذى ألقاه رئيس الوزراء تيير فى مجلس النواب فى ٢٤ مارس. وكان محمد على، فى أبريل، يقوم بالجلاء عن الجزيرة العربية ويجدد محاولات الاتفاق مع الباب العالى(٢٣٥).

وقد زادت حدة الخلاف الإنجليزى الفرنسى، الذى بدأ فى ١٨٣٩ برفض عرض سيباستيانى فى النصف الأول من ١٨٤٠(٢٣٦) وفى ٧ أبريل وجه نورى أفندى، الوزير المفوض فى لندن مذكرة(٢٣٦) للقوى الخمس لتسوية القضية المصرية على أساس الالتزام الذى قطعته على نفسها فى المذكرة المشتركة فى ٢٧

يوليو. وقد اقترح التوقيع على اتفاقية يعترف السلطان بمقتضاها لمحمد على بالحكم الوراثى لمصر إذا أعاد الأسطول التركى. ولم تأخذ الحكومة الفرنسية الجديدة، برئاسة تيير (١ مارس ــ ٢٤ أكتوبر ١٨٤٠)، والتى كانت تهدف لاتفاق تركى ــ مصرى مباشر، لم تأخذ الأمر على محمل الجد وردت من خلال سفيرها جويزو بطريقة مبهمة (٢٨ أبريل)(٢٣٧). وعلى العكس من ذلك، كان بالمرستون قد رد (١١ أبريل) بأنه مستعد للاتفاق على الفور مع القوى الأخرى(٢٣٨). وفى مايو جدد بالمرستون لفرنسا، من خلال السفير النمساوى نويمان، ما يسمى بـ"عرض سيباستيانى"، مضيفا أيضا سان جوفانى داكرى للأراضى التى يجب أن تمنح لمحمد على. وكما حدث من قبل فى أكتوبر ١٨٣٩، رفضت فرنسا الاقتراح(٢٣٩). ولكنها نصحت محمد على بالتراجع إلى أضنه (٦ مايو ١٨٤٠)، ولكن الباشا رد بكبرياء بأن أضنه هى "مفتاح بيته" الذى كان يريد تسليمه لأبنائه. وكان مستعدا لإعادة كريت عند موته(٢٤٠).

وقد أحيا خبر تنحية رئيس الوزراء خوسريف فيه (٢٦ مايو) آمالا جديدة فى أن يرى قبول الباب العالى لمطالبه. وعند الضرورة أرسل سامى بيه إلى القسطنطينية للتفاوض على أساس إعادة الأسطول فى مقابل حكم مصر وسوريا. وكان وزير الخارجية رشيد باشا على وشك التنازل، إلا أنه بعد تدخل بونسبنى، الذى علم بالمفاوضات المباشرة الجارية بين السلطان والباشا(٢٤١)، انتهى برفض أى اقتراح للاتفاق المباشر مع الباشا (يوليو ١٨٤٠)(٢٤٢).

١٤ ــ وأمام رفض فرنسا، قرر بالمرستون العمل بسرعة، وتغلب على معارضة الكثيرين من زملائه فى الحكومة. وبعد أن تبنت الحكومة الإنجليزية بالكامل فى ٨ يوليو(٢٤٣) القرار الذى اتخذ، بناء على اقتراح من بالمرستون، وقعت فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ ما يسمى بمعاهدة القوى الأربع (إنجلترا والنمسا وروسيا وبروسيا)(٢٤٤). وقد كانت تكمن فى اتفاقية ووثيقة منفصلة وبروتوكول وبروتوكول سرى(٢٤٥) كانت الاتفاقية تحدد التزام القوى الأربع بفرض قراراتها على محمد على، طبقا لوسائل العمل الخاصة بكل منها والعمل معا للدفاع عن

القسطنطينية فى حالة الضرورة، وكانت تكرر فى جوهر الأمر اتفاق بالمرستون – برونو بشأن المضائق. وكانت الوثيقة المنفصلة تحدد حدود ولاية أكرى التى يجب أن تقدم لمحمد على طوال حياته الباقية. وإذا لم يقبل محمد على بهذا العرض خلال عشرة أيام، فإنه سيحصل فقط على مصر لنفسه ولمن سيخلفه. وإذا لم يقبل محمد على خلال الأيام العشرين، فإن بوسع السلطان أن يسحب أيضا هذا العرض الثانى. وكان البروتوكول يؤكد من جديد على مبدأ إغلاق المضائق أمام السفن الحربية. وكان البروتوكول السرى يقرر أن الإجراءات القهرية، منعا لتضييع الوقت، يجب أن تطبقها القوى الكبرى ضد محمد على دون انتظار تبادل التصديقات.

وكانت هذه الاتفاقيات تمثل انتصارا لسياسة بالمرستون، الذى استغل على الفور بند البروتوكول السرى للعمل على إصدار أوامر للأدميرال ر. ستوبفورد بقطع الاتصالات البحرية لإبراهيم مع مصر، وحماية المتمردين السوريين والتعاون لإنزال قوات تركية ومتخصصين إنجليز من سلاح المهندسين والمدفعية. وفى الوقت نفسه أصدر الأوامر لبونسبنى لتقديم المال والذخيرة للثورة التى أشعلها السفير نفسه منذ شهر يونيو فى لبنان عن طريق عملائه(٢٤٦). وباتباع نصيحة فرنسا بعدم السماح لإبراهيم بالتقدم بعد تاورو – لتجنب إعطاء ذريعة لروسيا وإنجلترا لاحتلال المضائق وخلق حرب شاملة هكذا – وبمحاولة التوصل إلى اتفاق مباشر مع السلطان(٢٤٧) فكر محمد على، الذى وجد فى نصيحة ومساندة فرنسا، عونا على المقاومة، فكر فى التوجه للباب العالى، ولكن المبعوث التركى رفعت بك قدم الإنذار التركى فى ١٦ أغسطس(٢٤٨): سان جوفانى داكرى وسوريا مدى الحياة ومصر له ولخلفائه؛ وإعادة الأسطول التركى. وعلى الرغم من أن أربعة من القناصل كانوا يساندون رفعت، فإن الباشا رفض، مطالبا بالوساطة الفرنسية(٢٤٩)؛ وبعد مرور عشرة أيام قدم العرض الثانى (٢٦أغسطس): مصر فقط. وقد قبل محمد على، ولكنه عاد إلى الباب العالى للحصول على تنازلات أخرى فى سوريا وفى أماكن أخرى. ولكن القناصل الأجانب لم يقبلوا بهذا القبول المشروط وعاد الباشا إلى فرنسا(٢٥٠). وفى ٦

سبتمبر بدأت العمليات الإنجليزية ـ التركية. وبناء على ضغط بونسنبى، أقال السلطان محمد على (١٤ سبتمبر)(٢٥١).

وفى ٢٣ سبتمبر ترك القناصل القاهرة. وبعد بدء العمليات ضد محمد على(٢٥٢)، قام ستوبفورد فى ٩ و١٠ سبتمبر بقصف بيروت، بعد أن انضمت إليه فرقة نمساوية. وقامت سفن إنجليزية أخرى بنقل ٥٠٠٠ رجل من قبرص بقيادة العميد البحرى كارلو نابييه. وفى أعقاب انتصارات نابييه فى صيدا (٢٧ سبتمبر) وعلى جبال أرالدى (١٠ أكتوبر) والقصف والغزو على أيدى ستوبفورد، لبيروت (١٠ أكتوبر) والقاعدة المحصنة للغاية فى أكرى (٣ نوفمبر)، دمرت قوة إبراهيم عمليا. وكما حدث فى نافارينو، تغلب الأسطول البريطانى هكذا على المحارب الكبير فى أكرى.

كان خبر التوقيع على اتفاقية ١٥ يوليو ١٨٤٠ التى أعطاها بالمرستون رسميا للسفير جويزو فى ١٧ من الشهر التالى(٢٥٣)، قد أغضب فرنسا بشدة، حيث رأينا فيها شبه تجديد لتحالف القوى الأربع الكبرى. ولبضعة أشهر خشى البعض من قرب اندلاع الحرب بين فرنسا والقوى الأخرى(٢٥٤). ورد رئيس الوزراء تيير على الحكومة الإنجليزية (٢٤ يوليو ١٨٤٠) التى أعلنت فض التحالف الإنجليزى الفرنسى(٢٥٥). وبالتالى فإنه أرسل فى أغسطس رجل ثقة، وهو والسكى، إلى الإسكندرية لقيادة محمد على ولمحاولة التوصل إلى اتفاق تركى ـ مصرى(٢٥٦). وقد تحدث البعض عن استعادة الأسلحة لتجديد أمجاد ١٧٩٣ والوصول بالحدود الفرنسية من جديد إلى نهر الراين. ولكن بالمرستون احتفظ مرة أخرى بهدوئه، وهو واثق من أن العقبة الوحيدة لأى حرب هى الأسطول البريطانى(٢٥٧). وبالفعل، دعا لويجى فيليبو تيير وقال له إن مصلحة فرنسا هى فى عدم إشعال الحرب ولكن فى الاقتصار على اتخاذ إجراءات وقائية(٢٥٨).

ويمكن القول بأن التوتر الفرنسى ـ الإنجليزى قد ضعف إلى حد ما فى شهر أغسطس(٢٥٩). وفى ٧١ سبتمبر وقع فى لندن بروتوكول بين القوى الأربع،

تلتزم فيه بعدم البحث عن مزايا تتعلق بالأرض أو مزايا سياسية وتجارية تنفيذا لالتزاماتها التى قطعتها على نفسها باتفاقية ١٥ يوليو(٢٦٠). وقد تحسنت العلاقات أكثر فى الشهور التالية(٢٦١)، على الرغم من دحض الرأى البريطانى المتشدد جدا واحتجاج(٢٦٢) ضد تنحية محمد على (مذكرات ٣ و٨ أكتوبر ١٨٤٠)، التى أعقبها أيضا احتجاج مترنيخ. وقد أسهم موقف لويجى فيليبو وحكومة سولت ــ جويزو الجديدة (٢٩ أكتوبر ١٨٤٠) فى تجاوز الأزمة وإعادة تقارب البلدين(٢٦٣)، وفى الوقت نفسه كانت النمسا وروسيا مشغولتين لأسباب مختلفة بإعادة فرنسا إلى الوفاق مع القوى الكبرى(٢٦٤). وقد كان محمد على يطالب بدوره، بضغط من والسكى، بتدخل ملك فرنسا (٧ نوفمبر ١٨٤٠) فى المفاوضات التى كانت ستجرى بين القوى الكبرى لتنظيم العلاقات بينه وبين السلطان(٢٦٥) وقبل ذلك ببضعة أيام (٣ نوفمبر) كانت سان جوفانى داكرى قد استسلمت لستوبفورد.

وبما أنه كان هناك ولا يزال تفاخر كبير بمذكرة تيير فى ٨ أكتوبر والحماية المطلوبة من محمد على بخطاب ٧ نوفمبر، مع التأكيد على أن "فرنسا أنقذت مصر"، يجدر بنا أن نلاحظ هنا أنه إذا كان تيير قد رفع صوته ضد إنجلترا، فإن المساعدة لم تتحول أبدا من الكلمات إلى الأفعال. وكانت السياسة الفرنسية فى كل القضية غير متمردة لفرنسا ولمصر. ليس هذا فحسب، لأن وزير الخارجية الجديد، جويزو، الذى كانت تحركه الرغبة فى السلام مع إنجلترا سارع بإعطاء التعليمات التالية لكوشيليه (٩ نوفمبر ١٨٤٠)(٢٦٦): "إن محمد على لا يجب أن يوهم نفسه حول ما تريد أو تستطيع فرنسا عمله من أجله... إن فرنسا لا تريد ولن تشن الحرب من أجل سوريا، ولا تريد ولن تشن الحرب لتسمح لمحمد على بتغذية الحرب فى هذا البلد". فهذا أبعد ما يكون عن مساعدة مصر!.

١٥ ــ تحت تأثير مذكرة تيير وموقف مترنيخ، أعطى بالمرستون تعليماته لبونسنبى (١٥ أكتوبر ١٨٤٠) لدعوة السلطان للصفح عن محمد على والاحتفاظ له بالحكم الوراثى فى مصر بشرط أن يعيد له الباشا الأسطول وأضنه وسوريا

والأماكن المقدسة. إلا أن بالمرستون كتب فى ٢ نوفمبر إلى السفير فى باريس، جرانفيل، وبدا أنه تراجع عن موقفه، مما أثار رد فعل شديدا فى فرنسا(٢٦٧). ليس هذا فحسب، فمع دعوته للقيادة البحرية (٤١ نوفمبر) لإعطاء التعليمات للأدميرال ستوبفورد حتى يرسل ضابطا من جانبه للتباحث مع محمد على، تحدث بالمرستون عن الاحتفاظ لهذه الحكومة بمصر، دون تحديد "الحكم الوراثى"(٢٦٨)، ربما تحت تأثير الخبر الذى جاءه آنذاك عن انتصارات نابييه وستوبفورد.

وقد أرسل ستوبفورد إلى الإسكندرية فى مصر نابييه الذى أبرم فى ٢٧ نوفمبر اتفاقية مع محمد على، كان من نتيجتها أن التزم هذا الأخير بالجلاء عن سوريا وإعادة الأسطول بمجرد التصديق على حكمه الوراثى لمصر(٢٦٩). وإذا كان هذا الاتفاق قد نبذه ستوبفورد (٢ ديسمبر) لأنه لا يتمشى مع الأوامر الصادرة عن القيادة البحرية، أى مع تعليمات بالمرستون فى ١٤ نوفمبر(٢٧٠)، فإنه تعرض للهجوم بعنف من بونسنبى، العدو اللدود لمحمد على الذى كان يريد تنحيته ببساطة. ولهذا قام هو وزملاؤه فى القسطنطينية بحث السلطان على رفض الاتفاقية (١٨ ديسمبر) والاستمرار فى العمليات ضد إبراهيم(٢٧١). وقد انسحب هذا الأخير مع الجيش الذى انخفض إلى النصف وفى ظروف سيئة، من دمشق فى ٣٠ ديسمبر وواصل زحفه نحو العريش بعد أن فقد آلافا من الرجال.

وفى الوقت نفسه، كان ستوبفورد قد أرسل إلى الإسكندرية الكابتن فانشو الذى حصل من محمد على، على إعلان بالخضوع غير المشروط (٩ ديسمبر ١٨٤٠)، بعد أن أبلغه بعدم التصديق على اتفاقية ٢٧ نوفمبر. وقد أظهر بونسنبى، الذى كان يريد تنحية محمد على بأى ثمن، عداءه لقبول عرضه بالإذعان، فى تناقض مع أوامر بالمرستون، ليس فقط فى ١٥ أكتوبر ولكن أيضا فى ١٤ نوفمبر ١٨٤٠. ولهذا قبل السلطان الإذعان ولكن دون أن يحدد شيئا حول وراثة حكم مصر (٢٧ ديسمبر)(٢٧٢). وفى ١٥ ديسمبر، قبل تلقى الخبر الخاص بعمل فانشو، لم يكن بالمرستون قد وافق على اتفاقية ٢٧ نوفمبر(٢٧٣) التى أبرمها نابييه. وتمشيا مع هذا، أمر بونسنبى بالانضمام إلى زملائه النمساوى والروسى

والبروسى لمطالبة السلطان بأن يمنع محمد على الحكم الوراثى لمصـــر. وهكـــذا اضطر بونسنبى للتنازل على مضض (١٠ يناير ١٨٤١)(٢٧٤).

وفى ١٢ يناير ١٨٤١ وجه السلطان خطابا لمحمد على، يخبره فيـــه بأنـــه وافق على الحكم الوراثى على مصر بشرط إعادة الأسطول والأراضى التى احتلها هو وابنه(٢٧٥). وفى الوقت نفسه ذهب أدميرال إنجليزى فـــى الخدمـــة لاســـتلام الأسطول التركى لحساب السلطان ليضمه بعد ذلك للأســـطول الإنجليـــزى، وفـــى الوقت نفسه كانت هناك شائعات تقـــول إن إنجلتـــرا ربمـــا أرادت التمركـــز فـــى أكرى(٢٧٦). وفى ٣٠ يناير ١٨٤١، أبلغ المبعوثون المفوضون لبريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا السفير التركى فى لندن بأن حكوماتهم نصـــحت الســـلطان بـــأن يوافق لمحمد على، على الحكم الوراثى لمصر(٢٧٧). وفـــى ١٣ فبرايـــر ١٨٤١ وجه السلطان لمحمد على "خطابا شريفا" (خطابا إمبراطوريـــا) وفرمانـــا. وفـــى الخطاب الشريف(٢٧٨) يعبر السلطان عن رضائه عن إذعانه، ويبلغه بقرار منحه الحكم الوراثى لمصر؛ ولكن اختيار الخليفة من أبنائه الذكور كان من اختصـــاص السلطان. وبالتالى فإن الوثيقة كانت تقر إلزام الحاكم (الوالى) بجمع الضرائب باسم السلطان ودفع ربع المبلغ الإجمالى للباب العالى، وصك العملـــة برمـــز الســـلطان والإبقاء على جيش لا يتجاوز ١٨ ألف رجل وتعيين الضباط حتى رتبة الرائد. وقد سمح الفرمان(٢٧٩) ("دون ميراث") لمحمد على بحكم النوبة ودارفور وكردوفـــان وسنار مع الالتزام بعدم جلب عبيد من هذه المناطق. وبعد عـــدة محادثـــات مـــع مبعوث السلطان، ومع أفراد عائلته ومع القنصل العام الفرنســـى كوشـــيليه، قـــرر محمد على (٦ مارس ١٨٤١) عدم قبول الخطاب الشريف، خاصة لأنه لـــم يكـــن يريد أن يترك اختيار منصب الوالى لتحكم السلطان(٢٨٠).

وقد عقد هذا الوضع الجديد الأمور إلى حد ما، حيث كان ممثلو أربعة مـــن القوى الأربع قد أعلنوا فى ٥ مارس إنهاء القضية المصرية وقرروا إعادة قناصلهم إلى القاهرة(٢٨١) ليس هذا فحسب. فقد كانت فرنسا، التى اقتربت من جديـــد مـــن إنجلترا من نوفمبر ١٨٤٠ فصاعدا، كانت قد انضمت إلى اتفاقيـــة حـــول إغـــلاق

المضائق، وقعت بالأحرف الأولى فى ١٥ مارس ولكنها لم توقع رسميا(٢٨٢). وبعد أن علمت فرنسا برفض محمد على، جعلت التوقيع على الاتفاقية متوقفا على شرط قبول السلطان لمطالب الباشا، وخاصة المطلب المتعلق بالخلافة على أساس قانون الأقدمية(٢٨٣)، وقد أرسل بالمرستون، الذى كان قد أبلغ بونسنبى فى ١٦ مارس بقرارات ٥ مارس، أرسل برقية لهذا الأخير حتى يضع نهاية للقضية. وبعد أن راوغ مرة أخرى(٢٨٤). تنازل السلطان لضغوط ممثلى القوى الأربع الكبرى لدى سفيره فى لندن (١٣ مايو ١٨٤١)(٢٨٥) ولدى الباب العالى مباشرة (٢٢ مايو ١٨٤١)(٢٨٦). وهكذا أصدر فى ٢٥ مايو ١٨٤١ خطابا شريفا جديدا(٢٨٧) قبل فيه مطالب محمد على: الميراث لأبنائه الذكور بترتيب الأقدمية؛ ودفع جزية سنوية، بدلا من دفع ربع الضرائب؛ وتعيين ضباط حتى رتبة كولونيل. وفى ١٠ يونيو قدم الخطاب الشريف لمحمد على الذى قبله فى احتفال مهيب(٢٨٨).

وبعد مزيد من المفاوضات، حددت الجزية بـ٦٠ ألف حافظة سنوية(٢٨٩).

وفى أعقاب التوصل إلى اتفاق، أصبحت العلاقات ودية بين تركيا ومصر. وبعد تجاوز مناقشات أخرى بين فرنسا وإنجلترا حول الإلغاء الرسمى من عدمه لمعاهدة ١٥ يوليو ١٨٤٠، وقعت القوى الخمس فى ١٠ يوليو "بروتوكول إنهاء" الحادثة(٢٩٠)، ووقعت القوى الخمس وتركيا بالتالى على اتفاقية المضائق (١٣ يوليو ١٨٤١)(٢٩١)، ونتيجة لذلك التزمت القوى الأولى باحترام القانون القديم للإمبراطورية العثمانية، الذى ينص على أن مضائق الدردنيل والبوسفور مغلقة أمام السفن الحربية لكل القوى.

وقد انتصرت دبلوماسية بالمرستون انتصارا تاما بتعاون الأسطول. وأخضع محمد على، وألغيت معاهدة هونكيار إسكيليزى، ولم يتم التقارب الفرنسى – الروسى، وأنقذ طريق الهند.

هــوامش

(١) راجع ف. س. رو، L'Angleterre, l'isthme de Suez et l'Egypte au XVIII siécle، باريس، بلون، ١٩٢٢، ص١٧٢

(٢) راجع أ. دريو، La formation de l'Empire de Mohamed Ali de l'Arabè au Soudan (1814-1823)، القاهرة، ر. الجمعية الجغرافية فى مصر، ١٩٢٧، ص LV-LVI فى نفس المرجع، Mohamed Ali فى الجزء الثالث من Précis de l'Histoire d'Égypte، ص ٢٠١

(٣) ويلسون، The Struggle for the Mediterranean، الفصل ٢٠ من الجزء الثامن من Cambridge Modern History [C.M.H.] ص ٤٨٣

(٤) ج. هولاند روز The Egyptian Expedition، الفصل ١٩ من المجلد الثامن من C.M.H.، ص ٥٩٥.

(٥) راجع رو، L'Angleterre, l'isthme ص ٣٥٥، ويعقبه ج. هولاند روز، Bonaparte and the Conquest of Italy، الفصل ١٨ من المجلد الثامن من C.M.H.، ص ٥٩٠-٥٩٢؛ وفى نفس المرجع The Egyptian Expedition، ص ٥٩٦

(٦) دو لا جونكيير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٣٨٩- ٤٣٢. وحول معركة أبو قير، راجع ماهان. أ، ص ٢٥٦-٢٧٣؛ ويلسون The Struggle for the Mediterranean، ص ٦٢٩؛ أ. دوان، La flotte de Bonaparte sur les côtes d'Égypte. Les prodomes d'Aboukir القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٢٢.

(٧) راجع ويلسون، نفس المرجع،ص ٦٣٠

(٨) ج.م. تريفيليان، Storia d'Inghilterre، ميلانو، تريفيز، ١٩٨٣، ص ٦١٧.

(٩) نص دى مارتنز، Recueil، الجزء السادس، ص ٥٢٣-٥٣٦. وحوله راجع س. جوريانو، Le Bosphore et le Dardanelles, étude historique sur la question des Détroits، باريس، بلون، ١٩١٠، ص ٤ح شب European Powers and the Near

Eastern Question، نيويورك، ١٩٣١، ص ١٢٠. أنظر أيضا هـ. تيمبرلى، England and the Near East (The Crimea)، لندن، لونجمانز، ١٩٣٦، ص ٤٤- ٤١٠.

(١٠) ت. أ. ووكر، The Armed Neutrality, 1780-1801 فى C.M.H، المجلد التاسع، ص ٤٠. كامبريدج، مطبعة الجامعة، ١٩٠٦. نص وثيقة ١٠ أكتوبر ١٧٩٨ فى دى مارتنز، Recueil، الجزء السادس، ص ٣٣٥-٣٣٦.

(١١) راجع ماهان، The influence of sea power, the French Revolution and Empire, 1793-1812، لندن، ساميسون لو، ١٨٩٣ فى مجلدين، الأول، ص ٢٨٦-٢٨٧.

(١٢) النص فى دى مارتنز، Recueil، السادس، ص ٥٦٨-٥٧٣.

(١٣) حول المجلة فى سوريا. راجع كل المجلد الرابع من كتاب دو لا كونكيير، Expédition d'Égypte.

(١٤) حول معركة أبو قير، راجع دولا كونكيير، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ٣٢٥-٤٨١

(١٥) النص فى دى مارتنز، Recueil، الجزء السابع (١٨٠٠- ١٨٠٣٩)، جوتينجا، دييتر يتس، ١٨٣١ ص ١-٧.

(١٦) بالنسبة لأحداث مصر، علاوة على المجلدات والدراسات المذكورة، راجع هـ. دهران، L'Expédition du général Bonaparte فى الجزء الخامس، ص ١٩٩- ٥٥٥، من Historia de la Nation Égyptienne إعداد ج. هانوتو، باريس، بلون، ١٩٣٤؛ طبعة دريو، La question d'Orient، الطبعة الثامنة، باريس، ألكان، ١٩٢١، ص ٧٢-٧٩.

(١٧) حول البعثة راجع ب. كوكيل، La mission de Sebastian à Costantinople en 1801، فى Revue d'histoire diplomatique،يوليو ١٩٠٣، طبعة دريو، La politique orientale de Napoléon، باريس، ألكان، ١٩٠٤، ص ٢٣-٢٥

(١٨) هـ. روز، Egyptian Expedition، ص ٦١٨

(١٩) راجع ج. دوان وأ.س فوتيير- چونز، L'Angleterre et l'Égypte, La politique mameluke (1801-1803)، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٢٩، الوثيقة ٦.

(٢٠) راجع دوان- فوتيير، المرجع المذكور، الوثائق٢-٤، ٩، ١٢، ١٧، ٢٥، ٣٦، ٣٩.

(٢١) راجع دوان- فوتيير، المرجع المذكور، الوثيقة ٤؛ أنجلو سان ماركو، Il regno di Mohammed Ali nei documenti diplomatici italiani inediti، المجلد الأول،

L'Egitto nell'anarchia (luglio 1801-luglio 1804)، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٣٠، ص ٣٤-١٥؛ فى نفس المرجع، I documenti diplomatici concernenti il regno di Mohammed Ali e gli archivi di Stato italiani فى Oriente Moderno، العدد التاسع ١٩٢٩، ص ٢٨٧-٢٩٦.

(٢٢) دوان- فوتيير، المرجع المذكور، الوثيقة ١٦.

(٢٣) راجع دواد- فوتيير، المرجع المذكور، الوثائق ٢٠-٢١

(٢٤) نفس المرجع، الوثيقة ٣٣ (الاجتماع فى وزارة الخارجية العثمانية مع مداخلة لورد إلجين، ١٤ سبتمبر ١٩٠١)

(٢٥) حول الواقعة، راجع دوان- فوتيير، المرجع المذكور، الوثائق ٤١، ٤٧، ٦٦، ص ١٦-٢١ (المقدمة)؛ سان ماركو، L'Egitto nell'anarchia، الوثائق ٣-٦

(٢٦) راجع رسالة إلى اللورد إلجين فى دوان- فوتيير، المرجع المذكور، الوثيقة ٧٩. ولكن اللورد إلجين كان قد اقترح عدم الاعتراف بالجنرال هتشنون ومساندة الباب العالى، لمنع فرنسا من تقديم مساعدتها لتركيا ضد المماليك والتدخل فى مصر، حتى أنه فى ٢٥ نوفمبر كان الجنرال سيبا ستيا إلى القسطنطينية للتفاوض على معاهدة سلام على أساس المقدمات المبرمة فى باريس ٩ أكتوبر ١٨٠١ بين نابليون والسفير التركى، راجع نفس المرجع، الوثائق ٥٥، ٥٦. وبالنسبة للاحتجاج التركى، الوثائق ٥٤ و٥٧.

(٢٧) راجع دوان – فوتييه، المرجع المذكور، الوثائق ٦١-٨٨ فى مواضع مختلفة وص ٢٦-٣١؛ سان ماركو، المرجع المذكور، الوثيقة ٧.

(٢٨) راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور، ١، الوثيقة ٩٨

(٢٩) نفس المرجع، نفس الصفحة، الوثيقة ١٠٤

(٣٠) راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور، الوثائق ١١٦-١٢٣ وص ٢١-٣٥.

(٣١) راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور، الوثائق ١٣٠-١٣١، ١٣٢ سان ماركو، المرجع المذكور الوثيقة ١٥. وقد قام رو سيتى، القنصل العام النمساوى بخطوة مماثلة لدى الباشا: سان ماركو، المرجع المذكور الوثيقة ١٥.

(٣٢) حول مهمة سيباستيانى فى مصر راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور، الوثائق ١٣٨-١٤٧، ١٥٠- ١٥٢، ١٥٥، ١٩٣؛ ج. دوان، L'Égypte de 1802 à 1804، الوثائق ٤، ٥، ٧- ٩، ٢٠، ٢٩؛ سان ماركو، المرجع المذكور،الوثائق ١٦، ١٧، ٣٦؛ دريو La politique orientale de Napoléon، ص ٢٥-٢٦.

(٣٣) راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور،الوثيقة ١٧٠

(٣٤) راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور،الوثيقة ١٦٢. وقد كتب ستيوارت أيضا لرئيس الوزراء (الوثيقة ١٧١). أنظر أيضا سان ماركو، المرجع المذكور،الوثيقة ٢٣.

(٣٥) راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور،الوثائق ١٧٩، ١٨١، ١٩٣.

(٣٦) راجع نفس المرجع، نفس الصفحة، الوثائق ١٨٥- ١٨٦، ٢٠٣؛ دوان، L'Égypte de 1802 à 1804، الوثائق ١٤-١٥.

(٣٧) دوان- فوتييه، المرجع المذكور،الوثائق ١٩٤، ١٩٦- ٢٠٢؛ دوان، L'Égypte de 1802 à 1804، الوثائق ١٢-١٣، ١٦- ١٧؛ سان ماركو، المرجع المذكور، الوثيقة ٢٠

(٣٨) دوان- فوتييه، المرجع المذكور، الوثيقة ٢٠٦

(٣٩) راجع ج. دوان- فوتييه چونز، L'Angleterre et l'Égypte, la politique mameluk المجلد الثانى (١٨٠٣-١٨٠٧)، . القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٣٠.

(٤٠) راجع نفس المرجع، الوثائق ٣، ١٠.

(٤١) راجع دوان- فوتييه، المجلد الثانى، الوثائق ١٤، ١٧، ١٨، ٢٠، ٢٤؛ L'Égypte de 1802 à 1804، الوثيقة؛ سان ماركو، الوثائق ٢٤-٣٦.

(٤٢) دوان- فوتييه، المرجع المذكور، ٢ (١٨٠٣-١٨٠٧) والوثيقة ٢١ دوان، L'Égypte de 1802 à 1804، الوثيقة ٣٦.

(٤٣) حول الاضطرابات فى مصر وسلوك محمد على تجاه الأوروبيين راجع سان ماركو، الوثائق ٣٧، ٥٢

(٤٤) دوان، L'Égypte de 1802 à 1804، الوثيقة ٤٢

(٤٥) راجع دوان- فوتييه، المجلد الأول، الوثائق ٤٠، ٤٨، ٥٦-٥٩، ٦٨، ٦٩، ١١٣، ١٤٢، دوان، المرجع المذكور، الوثائق ٥٥-٦١، ٦٥، ٦٩، ٧١، ٧٣، ٧٥-٨٢؛سان ماركو، الوثيقة ٥٣

(٤٦) راجع دوان- فوتييه، الوثيقة ٤٧؛ دوان، المرجع المذكور، الوثائق ١١٠، ١١٤.

(٤٧) راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور، ٩٤؛ دوان، المرجع المذكور، الوثائق ٥٤-٥٥.

(٤٨) راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور، دوان، المرجع المذكور، الوثائق ١٦٢، ١٦٥- ١٦٦؛ سان ماركو، L'Egitto nell'anarebia، الوثائق ٥٧-٦٤، دوان، Mohammed

Ali Pacha du Caire (1805-1807)، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٢٦، الوثيقة ٣٠

(٤٩) راجع دوان- فوتييه، المرجع المذكور، المرجع المذكور، الوثائق ١٧٥، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٦.

(٥٠) نفس المرجع نفس الصفحة، الوثيقة ٢٠٠، دوان، Mohammed Ali Pacha du Caire (1805-1807)، الوثيقة ١٠٢.

(٥١) دوان، Mohammed Ali Pacha du Caire (1805-1807)، الوثيقة ١٠٤

(٥٢) دوان، Mohammed Ali Pacha du Caire (1805-1807)، الوثيقة ٤٠

(٥٣) دوان- فوتييه، المرجع المذكور،الوثيقة ٢٢٦

(٥٤) دوان- فوتييه، المرجع المذكور،الوثيقة ١٤٠

(٥٥) حول المفاوضات الخاصة بهذه المعاهدة، راجع جوريا ينوف، المرجع المذكور، ص٤-٧

(٥٦) راجع ج. دوان، L'Angleterre et la Turquie، ص ص ٥٢ -٥٧، جوريا ينوف، المرجع المذكور، ص ٧-١٠.

(٥٧) النص فى Correspondance de Napoléon، رقم ١٠,٣٣٩.

(٥٨) حول هذه الأحداث ومهمة سيبا ستيانى، راجع ج. دوان L'Angleterre et la Turquie، ص ٥٧-٥٥؛ دريو La politique orientale de Napoléon, 1805-1808، ص ص ٦٠-٧٨؛ جوريانيوف، المرجع المذكور، ص ١١-٢.

(٥٩) راجع حول هذا تيمبرلى، Crimea، ص ٤٥-٤١٠؛ "شب"، المرجع المذكور، ١٢٠. راجع أيضا خطاب اللورد أبردين فى ١٢ فبراير ١٨٣٠ إلى لوردات هانزاردز، السلسلة الجديدة، المجلد الثانى والعشرين، المجموعة ٤٢٨ (ويوجد بها خطاب لفوكس بتاريخ ٨ أبريل ١٨٠٦ إلى تاليران).

(٦٠) ج. دوان، L'Angleterre et la Turquie، ص ٦٥-٧٢؛ دريو، La politique orientale de Napoléon، ص ٨٠-٨٩

(٦١) حول بعثة داكوورث إلى القسطنطينية، راجع ج. دوان، L'expédition de Sir John Duckworth à Costantinople، ص ٧٢-١٧٢ فى مقدمة المجلد المذكور: L'Angleterre et l'Égypte, La politique mameluke، المجلد الثاني (١٨٠٣-١٨٠٧)؛ دريو La politique orientale de Napoléon، ص ٨٩-١١٠

(٦٢) حول البعثة الإنجليزية عام ١٨٠٧ إلى مصر، راجع ج. دوان- أ. س. فوتييه- جونز، L'Angleterre et l'Égypte, La compagne de 1807، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٨٢؛ دوان، Mohammed Ali, Pacha du Caire (1805-1807)، المذكور، الوثائق ١٣٥-١٦٢؛ ف.س. رو، L'Égypte de 1801 à 1882، ص ٣٣-٤١ فى المجلد الأول من العمل المؤلف من ٨ مجلدات Histoire de la nation égyptienne إعداد ج هانوتو، باريس، بلون، ١٩٣٦؛ دريو، La politique orientale de Napoléon، ص ١١١-١٢٢؛ م. صبرى، L'empire égyptien sous Mohamed Ali، باريس، جويثنر، ١٩٣٠، ص ٢٧-٢٩

(٦٣) نفس تعليمات ١٥ مايو فى ج. دوان، La mission de Sir A. Paget فى المجلد المذكور، ص ١٣٠-١٣٢

(٦٤) راجع دريو، La politique orientale de Napoléon، ص ٢١٧-٢١٨، ٢٣٠-٢٣١، جورياينوف، المرجع المذكور، ص ١٥

(٦٥) راجع نص التعليمات لباچيه بتاريخ ١٣ أغسطس ١٨٠٧ فى ج. دوان، المرجع المذكور، ص ١٥١-١٥٢.

(٦٦) حول بعثة باچيه راجع دوان ، المرجع المذكور ص ص ١٣٤-٥٣،

(٦٧) راجع تعليمات (٢٦ يونيو ١٨٠٨) كانينج إلى السير ر. أدير، المبعوث فى مهمة إلى القسطنطينية، فى تيمبرلى، Crimea، ص ٤٧، ٤١٠. حول أدير راجع Negotiations for the peace of the Dardanelles، فى مجلدين، ١٨٤٥.

(٦٨) النص فى أدير، المرجع المذكور، ١، ص ١٢٢-١٢٣؛ إشارات فى تيمبرلى، Crimea، ص ٤٨، ٤١٠. بالنسبة للمفاوضات، علاوة على أدير، راجع س. لين بول، The Life of the right honourable Startford Canning viscount Startford de Redcliffe فى مجلدين، لندن، لونجمانز، ١٨٨٨، المجلد الأول، ص ٣٨، ٤٦. إثارة فى دريو، La politique orientale de Napoléon، ص ٣٦٢-٣٦٣

(٦٩) حول النتائج القانونية لقبول هذا المبدأ، الذى تحول من قاعدة فى القانون الداخلى إلى قاعدة فى القانون الدولى، راجع جورياينوف، المرجع المذكور، ص ص ٢٠-٢١.

(٧٠) راجع تيمبرلى، المرجع المذكور، ص ٤٨

(٧١) فى هذه الفترة، كانت المصادر كلها فرنسية. راجع طبعة دريو، Mohamed Ali et Napoléon (1807-1814)، القاهرة، جمعية الجغرافيا، ١٩٥٢. وقد توقفت المصادر

الإنجليزية عند ١٨٠٧ مع ثلاثة مجلدات بالتعاون بين ج. دوان وفوتييه جونز؛ والإيطالية، التى نشرها سان ماركو، تتوقف عند ١٨٠٤، لكى تستأنف فى السنوات ١٨٣١-١٨٣٣.

(٧٢) حول العلاقات بين محمد على والمماليك راجع دريو، Mohammed Ali, (1807-1814)، الوثائق ٥-٧ (١٨٠٨)؛ ١٥-١٦، ٢٢ (طلب حاكم مملوكى للحصول على الحماية الإنجليزية، أغسطس ١٨٠٩)، ٢٣، ٢٧- ٢٨ (١٨٠٩)؛ ٣٤-٣٦، ٣٩ -٤٠، ٤٢-٤٦، ٤٩ (١٨١٠)؛ ٥٣، ٥٧-٥٩، ٦٣ (١٨١١)؛ ٨٥، ٩٦، ١٠٠ (١٨١٢)

(٧٣) راجع دريو، La politique orientale de Napoléon، ص ٢٠٨-٢١٤

(٧٤) نص الخطاب فى Correspondance de Napoléon، المجلد ١٦، ص ٥٨٦. النص والتعليق فى دريو، La politique orientale de Napoléon، ص ٢٤٥-٢٥٤

(٧٥) راجع دريو، Mohamed Ali et Napoléon (1807-1814)، ١٨٠٧- ١٨١٤، الوثيقة ٣؛ المرجع نفسه، La question d'Orient ص ٩٢-٩٣

(٧٦) راجع دريو، Mohamed Ali، ص ٢٢-٢٣.

(٧٧) حول هذه التعليمات التى أصدرها نابليون راجع دريو، Mohamed Ali، ص ٢٤-٢٦

(٧٨) دريو، Mohamed Ali (1807-1814)، الوثيقة ٦٥

(٧٩) راجع جوربانيوف، المرجع المذكور، ص ١٦-١٨، ٢٣؛ دريو، La politique orientale de Napoléon، ص ٢٣١-٢٤٤، ٢٥٦- ٢٦٧، ٢٨٩، ٣٠٨، ٢٤٨-٣٥٢

(٨٠) النص فى دى مارتنز، Nouveau Recueil de Traités الكتاب الثالث، ص ص ٣٩٧-٤٠٥. حول سير المفاوضات راجع لين بول، المرجع المذكور، المجلد الأول، الفصل الرابع؛ راجع لين بول، المرجع المذكور، المجلد الأول، الفصل الرابع؛ تيمبرلى، Crimea، ص ٥٠- ٥١. المعاهدة لم تكن تتضمن أى إشارة لقضية المضليق: راجع جوريانيوف، المرجع المذكور ص ٢٤.

(٨١) النص فى دى مارتنز، .N.R.T، ٣، ص ٢٢٦- ٢٢٩.

(٨٢) النص فى دى مارتنز، .N.R.T، ١، ص ٤٣١-٤٣٢

(٨٣) راجع دريو، Mohamed Ali (1807-1814)، الوثائق ٥ (١٨٠٨)؛ ٢٩، ٤٩، ٥٠، (١٨١٠)، ٦٠، ٦٣، ٦٨ (١٨١١)ح ١٠٣-١٠٤، ١٠٨، ١١٣ (١٨١٢).

(٨٤) راجع دريو، نفس المرجع، الوثائق ٦١-٦٢ (١٨١١)، ٩٢، ١٠٩، ١١٣ (١٨١٢).

(٨٥) راجع دريو، نفس المرجع، الوثيقة ١٠٠

(٨٦) راجع دريو، نفس المرجع، الوثائق ٣٤ و٥٠

(٨٧) راجع دريو، Mohamed Ali (1807-1814)، الوثائق ٦٧-٦٩

(٨٨) راجع دريو، La formation de l'Empire de Mohamed Ali، الوثائق ١٥، ٢٣- ٦١

(٨٩) راجع دريو، La formation de l'Empire de Mohamed Ali، إلخ، الوثيقة ١

(٩٠) حول الحرب فى الجزيرة العربية (١٨١١- ١٨١٩)، راجع دريو، Mohamed Ali (1807-1814)، الوثائق ٨٠-١٤٣ فى مواضع متفرقة، راجع نفس المرجع، La formation de l'Empire de Mohamed Ali de l'Arabie au Soudan (1814-1823)، الوثائق ١- ٧٨ فى مواضع متفرقة وص ١٣-٣٤، القاهرة الجمعية الملكية للجغرافيا،١٩٢٧؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ٣٨-٥٩. الانجليز لم يؤيدوا بعثة الجزيرة العربية: راجع دريو، La formation de l'Empire de Mohamed Ali، إلخ. الوثائق ٢١، ٥٠. وقد شارك فى البعثة الإيطالى فيناتى، الذى نشرت مؤخرا سيرته الذاتية، التى كانت معروفة حتى ذلك الحين بالإنجليزية فقط، فى ترجمة إيطالية: Vita e avventure di Gianni Finati إعداد ميكيلى فيزانى، ميلانو، وهى الدراسة الأولى بالنسبة لدراسات السياسة الدولية، ١٩٤١.

(٩١) راجع دريو، La formation de l'Empire de Mohamed Ali، إلخ، الوثائق ٥٣، ٥٧، ٦٦، ٧١، ٧٤، ٧٥، ١٠٤؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ٥٩- ٦٥

(٩٢) حول الكولونيل سيف راجع ج. دوان، Une mission militaire française auprè de Mohamed Ali، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٢٣، ص ١٠-١٦. القاهرة. البوير خصص له مجلد كامل، حيث يتضمن مراسلته (نوفمبر ١٨٢٤- سبتمبر ١٨٢٦) مع الجنرال بيليارد. حول مؤلف البوير، راجع أيضا أ. دريو، L'expédition de Crète et de Morée (1823-1828)، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٣٠، الوثائق ٢٧، ٤٥، ٩٣، ١١٩، ١٢١، ١٣٠، ١٣٤، ١٤٠، ١٤٤.

(٩٣) أنظر قائمة ذلك فى دريو، L'expédition، إلخ، الوثيقة رقم ١٨

(٩٤) دريو، L'expédition، إلخ، الوثيقة ٦

(٩٥) حول هذه الاصلاحات راجع دريو، L'expédition ، إلخ، ص ٨-١٢ والوثائق ٧-٨، ١٠، ١٧، ١٨، ٢٨؛ صبرى، المرجع المذكور ص ٧٨- ٨٩

(٩٦) راجع دريو، L'expédition، إلخ، الوثائق ٥،١٠ وص ٨-١٤

(٩٧) راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ٩٣

(٩٨) وهكذا صبرى، المرجع المذكور، ص٩٠. رأى موثق بتصريحات محمد على لضابط فرنسى؛ نفس المرجع، نفس الصفحة، ص ٩٠-٩١. أنظر أيضا تقرير القنصل الإنجليزى "سولت" بتاريخ ٣١ أغسطس ١٨٢٦: نفس المرجع، نفس الصفحة، ص ١١٦.

(٩٩) راجع دريو، L'expédition، ٨-١٠، ١٤

(١٠٠) راجع نفس المرجع، نفس الصفحة، الوثائق ١٩، ٢٤-٢٥، ٣٥، ٣٨

(١٠١) راجع نفس المرجع، نفس الصفحة، الوثائق ٤٣،٤٧، ٥٤، ٦٢

(١٠٢) راجع نفس المرجع، نفس الصفحة، الوثائق ٣٩، ٤٢، ٤٦، ٥٤، ٦٧، ٦٩، ٧٢، ٧٦، ٧٩- ٨١، ٨٣- ٨٦، ٨٨، ٩١- ٩٢، ١٤١؛ صبرى، المرجع المذكور ص ٩٣-٩٧

(١٠٣) راجع دريو، L'expédition، إلخ، الوثائق ٥٢، ١٥٨، ١٠١، على الترتيب.

(١٠٤) راجع نفس المرجع، نفس الصفحة، الوثائق ٥٣، ٦٧

(١٠٥) راجع دريو، L'expédition، إلخ، الوثيقة ٦٧

(١٠٦) راجع تقارير القنصل الإنجليزى "سولت" بتاريخ ٣١ أغسطس، ٢٤، ٢٦ سبتمير ١٨٢٦ فى صبرى، المرجع المذكور، ص ص ١١٦- ١١٩ وفى ج. دوان، Navarin، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٢٧، ص ١٨-١٩.

(١٠٧) دوان، Navarin، ص ١٧، ١٩.

(١٠٨) حول هذه المهمة، راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ١١٩-١٢٩

(١٠٩) راجع دريو، L'expédition، الوثائق ١٤٧، ١٥١؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ١٣٠-١٣١

(١١٠) راجع دوان، Navarin، الوثيقة ١٤٩

(١١١) حول الأسطول، المحترم حقا، الذى أنشأه محمد على، راجع ج. دوان، Les premières frégates de Mohammed Ali (1824-1827)، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٢٦؛ دريو، L'expédition، إلخ.، الوثائق ١٢٣-١٢٦، ١٥٣، ١٥٥.

(١١٢) راجع دريو، نفس الموضع، الوثائق ١٥٩-١٦٠ ودوان، Navarin، ص ٦٣-٦٥

(١١٣) حول السياسية الإنجليزية- الفرنسية تجاه محمد على فى النصف الأول من ١٨٢٧، راجع

صبرى، المرجع المذكور، ص ١٣٦-١٤٠.

(١١٤) راجع دوان، Navarin، ص ١٥٠

(١١٥) حول موقف مترنيخ راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ١٣١-١٣٦.

(١١٦) حول مهمة كرادوك راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ١٤٣- ١٤٤. دوان، Navarin، ص ٦٥-٦٨، ١٥٥- ١٦١

(١١٧) دوان ، Navarin، ص ص ٢٠١-٢٠٥

(١١٨) حول هذه المعركة راجع دوان، Navarin؛ دريو، L'expédition، إلخ، الوثائق ١٦٦-١٦٨، ١٧٣؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ص ١٤٧- ١٥٣.

(١١٩) راجع دوان، Navarin، ص ص ٢٤٣-٢٤٩.

(١٢٠) راجع ج. دوان L'Égypte de 1828 a 1830، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٣٥، الوثائق ٤-١٣، ١٥-٢١

(١٢١) النص فى دوان، L'Égypte de 1828 a 1830، الوثيقة ٢٢

(١٢٢) راجع دوان، L'Égypte de 1828 a 1830، الوثائق ٣٥-٣٦، ٣٩-٤٠، ٤٣، ٤٦- ٥٠، ٥٦

(١٢٣) نفس المرجع، نفس الصفحة، الوثائق ٧٠-٧١، ٧٥-٧٧، ٧٩

(١٢٤) نفس المرجع، نفس الصفحة، الوثائق ٧٥-٧٦، ٨٤

(١٢٥) الاتفاقية منحت حق دخول المضايق للسفن التجارية، وليس للسفن الحربية، راجع جوريانيوف Le Bosphore et les Dardanelles، باريس، بلون، ١٩١٠، ص ٢٧-٢٨.

(١٢٦) راجع و. أليسون فيليبس، Mehmet Ali فى Cambridge Modern History، المجلد العاشر، ص ٥٤٥.

(١٢٧) راجع جوريانيوف، المرجع المذكور، ص ٤٩. هذا المؤلف ينتقد قرار نيقولا الأول، فى نفس الموضوع، ص ٤٨-٥٠

(١٢٨) نص مذكرة ١٦ سبتمبر ١٨٢٩ قدمة ر.ج. كيرنر، Russia's New Policy in the Near East after the Peace of Adrianople فى Cambridge Historical Journal، ١٩٧٣، ٤، العدد ٣، ص ص ٢٨٦-٢٨٩. تقرير عن نتائج اللجنة فى ت. شيمان، Geschichte

Russlands unter Kaiser Nikolaus I، مؤلف من ٣ مجلدات، برلين، ١٩٠٨، المجلد الثانى، ص ٣٦٧. مذكرات عضوية فى اللجنة نيسلرود وداشكوف) ونتائج اللجنة موجودة فى ف. مارتنز، Recueil de traités et conventions conclus par la Russie avec les puissances étrangères، بطرسبرج، ديفريو، ١٨٧٨، ١٥ مجلدا، الكتاب الرابع، الجزء الأول، ص ٤٣٧- ٤٤١. وهناك خطاب ل "نيسلرود" إلى السفير الروسى فى لندن، ليفنى، بتاريخ ٢٧ سبتمبر ١٨٢٩ فى مارتنز، المجلد الحادى عشر، ص ٤١٢-٤١٣. أنظر أيضا س. جوريباينوف، Le Bosphore et les Dardanelles، باريس، بلون، ١٩١٠، ص ٢٥-٢٧. وهناك إشارات فى تيمبرلى، Crimea، ص ٥٧-٥٨، ٤١١؛ فيليبس، Mehemet Ali، ص ٥٤٦ وه. تيمبرلى- ل بنسون، Foundations of British Foreign Policy، كامبردج، مطبعة الجامعة، ١٩٣٨، ص ١١٨

(١٢٩) جوريباينوف، المرجع المذكور، ص ٢٩-٣٠

(١٣٠) حول موقف حكومات ويلينجتون- أبردين وجرى- بالمرستون فى قضايا الحرب الروسية- التركية، والاستقلال اليونانى والاحتلال الفرنسى للجزائر راجع تيمبرلى، Crimea، ص ٥٢-٥٦، ٥٨-٦٢، ٤١٢؛ صبرى L'Empire égyptien sous Mohamed Ali، ص ١٦٩-١٨١، ١٩٠. حول مشروع الاتفاق بين فرنسا ومحمد على لاحتلال شمال أفريقيا راجع ج. دوان Mohamed Ali et l'expédition d'Aleger (1829-1830)، القاهرة ، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٣٠؛ نفس المرجع، L'Égypte de 1828 à 1930، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٣٥، الوثائق ٧١-٧٣، ٧٦-٨٠. القاهرة؛ دوان، La première guerre de Syrie، الوثائق ٢-٣

(١٣١) بالنسبة لهذه الوثائق الثلاث راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ١٨٢-١٨٣، ١٨٦.

(١٣٢) راجع أ. سان ماركو، Il regno di Mohammed Ali، القاهرة ، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر ١٩٣١، المجلد الثامن، الوثيقة ٤٨؛ ج. دوان، La première guerre de Syrie، فى مجلدين، القاهرة ، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٣١، المجلد الأول، الوثيقة ١٠؛ أليزون فيليبس، Mehmet Ali، كامبردج، مطبعة الجامعة، ١٩٠٧، ص ٥٤٥، فى Cambridge Modern History، المجلد العاشر؛ كان محمد على قد طلب من الباب العالى فى فبراير ١٨٣١ حكم سوريا كمكافأة على المساعدة التى سيقدمها له فى قمع ثورة زعيم محلى. راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثيقة ٢. وقد سنحت فرصة أخرى لمحمد على للحصول على سوريا أو الاستيلاء عليها أثناء الأيام الأولى من عام ١٩٣١ نفسه، عندما دعاه باشا سكوتارى فى ألبانيا، مصطفى، فى تمرده

على الدعوة وفضل الوقوف محايدا: دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٣-٤، ٨، ١٢

(١٣٣) سان ماركو، نفس الموضع، المجلد الثامن، الوثيقة ٥٠

(١٣٤) راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ١٦، ١٩ وص ٧-٩

(١٣٥) راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٢٤، ٢٥، ٢٩، ٣٣- ٣٤، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٤٦، ٥٢.

(١٣٦) راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٤٦، ٥٢، ٥٣، ٥٣، ٦١.

(١٣٧) حول الوزن الحقيقى لمطلب محمد على، راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ٢٠٠ ودوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ص ١٨-١٩.

(١٣٨) راجع سان ماركو، المرجع المذكور، المجلد التاسع، الوثيقة ١٠٧؛ المجلد العاشر، الوثائق ٥، ١٥؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ٢٠٤-٢٠٦ فى مواضع متفرقة. حول موقف فرنسا، راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٤٢-٤٣، ٥٠، ٥٦، ٦٥، ٦٨، ٧٤، ٧٦، ٨٣، ٨٥، ٩٦، ١٠٨،١٠٢. الوثائق الإنجليزية لم تنشر بعد.

(١٣٩) راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثيقة ١٠٤

(١٤٠) دوان، نفس الموضع، المجلد الأول، الوثائق ١٠٣، ١١٤، ١١٦، ١١٧، ١٣٢، ١٣٥. وقد تأخر الرد لكسب الوقت.

(١٤١) حول نشاط القنصل الفرنسى ميمو لدى محمد على والمكلف بالأعمال فارين لدى الباب العالى، راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ١١٩، ١٢٠، ١٢٣، ١٢٨، ١٣١، ١٣٤، ١٣٩، ١٤١، ١٤٣. فى التعليمات الموجهة للسفير روسين (١٣ ديسمبر ١٨٣٢) كتب وزير الخارجية الفرنسى دو برولى يقول: "نحن لا يمكن ألا نرى باهتمام ميلاد ونمو دولة تقدم منفذا هاما لتجارتنا، لامتلاكها ثلاثة ملايين من السكان وأجمل موقع جغرافى فى العالم... دولة يمكن أن تصبح بحريتها فى يوم من الأيام حليفة لبحريتنا فى البحر المتوسط"، (الوثيقة ١٤١)

(١٤٢) Il regno di Mohammed Ali حول حملة محمد على فى سوريا راجع أ. سان ماركو، المجلدات الثامن- العاشر؛ كادالفين وبارو، Histoire de la guerre de Méhémet contre la Port Ottomane en Syrie et en Asie Mineure (1831-1833)، باريس، ١٨٣٧؛ بول موربيه، Histoire de Méhémet Ali، مؤلف من ٥ مجلدات، باريس،

١٨٠٧؛ ف. منجين، Histoire sommaire de l'Égypte sous le gouvernment de Mohammed Ali (1823-1838)، باريس، ١٨٣٩؛ دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول؛ صبرى، المرجع المذكور، الفصل الرابع. بالنسبة للإشارة للمصادر الأصلية المخطوطة المصرية راجع ج. دينى، Sommaire des archives turques du Caire، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا فة مصر، ١٩٣٠، ص ٣٠١-٣٠٥.

(١٤٣) راجع أليزون فيليبس، المرجع المذكور، ص ٥٥١، "موات" المرجع المذكور، ص ١٦٤، الملحوظ، ومذكرة كانينج إلى بالمرستون بتاريخ ١٩ ديسمبر ١٨٣٢ فى .C.H.B.P، المجلد الثانى، ص ٦٣٨.

(١٤٤) حول الطلب التركى والرد الإنجليزى، راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ١١٧، ١٢٠ والمجلد الثانى، ص ص ١٠، ١٢-١٣، ١٦-١٩، الوثائق ١٠، ٢٦؛ تيمبرلى، Crimea، ص ٦٣؛ فيليبس، Méhmét Ali، ص ٥٤٨.

(١٤٥) حول مهمة مورافييف راجع دوان La première guerre de Syrie، المجلد الأول، الوثائق ١٥١-١٥٢؛ المجلد الثانى، ص ٧-٩، ٣٥ والوثائق ١-٢، ١٥، ٣١؛ صبرى، المرجع المذكور، ص

(١٤٦) راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الثانى، الوثيقة ٥. حول مهمته فى الإسكندرية، الوثائق ١٥، ٢٠، ٢٤-٢٥، ٣٨، ٤٨، ٦٣

(١٤٧) نص الخطابات فى دوان، المرجع المذكور، المجلد الثانى، الوثيقة ٧

(١٤٨) راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ١٢-١٩

(١٤٩) راجع خطاب إبراهيم لمحمد على فى ٣ فبراير فى صبرى ، المرجع المذكور، ص ٢٢٧-٢٢٨.

(١٥٠) راجع الحديث بين القيصر نيقولا الأول والسفير النمساوى فى بطرسبرج فيكلمونت، بتاريخ ١٨ فبراير ١٨٣٣. نص رسالة السفير إلى حكومته نقله تيمبرلى، Crimea، ص ٦٧-٦٨. أنظر أيضا ف. دو مارتنز Recueil de Traités et conventions conclus par la Russie avec les Puissances étrangères، المجلد الرابع، الجزء الأول، ص ص ٤٤٢-٤٤٣.

(١٥١) راجع دوان، المرجع المذكور، المجلد الثانى، الوثائق ١٥، ٢٤، ٢٩

(١٥٢) حول التدخل الروسى ومهمة أورلون راجع جوريابنوف، المرجع المذكور، ص ٣١-٣٧.

حول المباحثات من فبراير ١٨٣٢ حتى سلام كيوتاهيا راجع ج. دوان، La première guerre de Syrie، المجلد الثانى، ص ٣٦-٩٧ والوثائق ٣٦-١٢٣؛ ج. دوان، La mission du baron de Boislecomte. L'Égypte et la Syrie en 1833، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٢٧؛ المقدمة والوثائق ١-٢٠؛ صبرى، المرجع المذكور الفصول ٤ و٥. لم أستطع العثور فى إيطاليا على الكتب الإنجليزية الزرقاء، المنشورة كأبحاث ٢١٣، ٢٢٩ فى المجلد L من .B.P.P، ١٨٣٩، والتى تتضمن الوثائق الدبلوماسية الإنجليزية. ولكن ملخصات ومقتطفات هذه الوثائق موجودة فى المقدمة فى المجلد الثانى من دوان، La première guerre de Syrie أنظر أيضا مترنيخ، Mémoires, documents et écrits divers، فى ٨ مجلدات، إعداد ريكاردو دو مترنيخ و م. أ. دو كللينكوستروم باريس، بلون، ١٨٨٠-١٨٨٤، الكتاب الخامس، الوثائق ١١٢٨-١١٣٢؛ م جويزو Mémoires pour servir à l'istoire de mon temps، فى ١٢ مجلدا. باريس، ليفى، ١٨٥٨-١٨٦٨، الكتاب الرابع، ص ٣٨-٤٧. أنظر قائمة مراجع Cambridge Modern History، المجلد العاشر، ص ٨٥٢- ٨٥٥

(١٥٣) راجع تيمبرلى، Crimea، ص ٦٤

(١٥٤) تيمبرلى Crimea ، ص ٦٦. راجع خطاب بالمرستون إلى سير و. تيمبل فى ١٩ لأبريل ١٨٣٣ والذى نقله جزئيا ر.ب. "موات" The Egyptian crisis and its sequences 1833-1841، ص ١٦٢، Cambridge History of British Foreign Policy، المجلد الثانى، كامبردج، مطبعة الجامعة، ١٩٢٣. (المجلد الثانى، "موات" يذكر آشلى لمصدر، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٣٨٥. ولكن الاستشهاد غير متطابق).

(١٥٥) بالنسبة للمفاوضات راجع جوريابنوف، المرجع المذكور، ص ص ٣٧- ٤٢: دوان، La première guerre de Syrie، ص ٩٧-١٠٤ والوثائق ١٤٠-١٧٨، فى مواضع متفرقة. من أجل الحصول على تعليق عام على المعاهدة راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ص ٢٥١-٢٦٩. النص فى مارتنز- مورهارد، Nouveau Recueil de Traités، المجلد الحادى عشر، ص ص ٦٥٥-٦٥٩

(١٥٦) راجع شيمان، المرجع المذكور، المجلد الثالث، ص ص ٢١٩-٢٢٢؛ جوريابنوف، Le Bosphore et les Dardanelles، ص ص ٤٣-٤٦، ٨٩؛ تيمبرلى، Crimea، ص ص ٦٩-٧٢، ٤١٢-٤١٤؛ ب. أ. موزلى، Russian Diplomacy and the opening of the Eastern Question in 1838-1839، كامبردج، مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٣٤، ص ص ٩-٣٠، س.و. كرولى، Anglo-Russian Relations 1815-1840 فى Cambridge

Historical Journal، ١٩٢٩؛ ج.أ.ر. ماريوت The Eastern Question، الطبعة الأولى، أكسفورد، مطبعة كلاريندون، ١٩١٧، ص ص ٢٠٩-٢١٠ (الطبعة الثالثة بتاريخ ١٩٢٤، ولكننى لم أستطع الرجوع إليها)؛ "موات"، المرجع المذكور، ص ص ١٦٥-١٦٨؛ أليزون فيليبس، المرجع المذكور، ص ص ٥٥٥- ٥٥٦.

(١٥٧) راجع "موات"، المرجع المذكور، ص ١٦٦، ١٦٨ و C.H.B.F.P.، المجلد الثانى، ص ٦٣٩

(١٥٨) راجع تيمبرلى، Crimea، ص ص ٧٢-٧٣. حول سياسة مترنيخ فى ١٨٣٣-١٨٣٤ تجاه القضية الشرقية، راجع تيمبرلى، Crimea، ص ص ٧٩-٨١

(١٥٩) راجع تيمبرلى، Crimea، ص ص ٧٤، ٧٧-٧٨؛ أليزون فيليبس، المرجع المذكور، ص ٥٥٦. حول "الأمر التقديرى" فى ١٨٣٤ الذى ألغاه ويلينجتون فى ١٨٣٥ وجدده بالمرستون فى ١٨٣٦، راجع فى نفس الموضع ص ٧٦-٧٧ وتيمبرلى- بنسون، Foundation، ص ١١٨-١٢١

(١٦٠) راجع "موات"، المرجع المذكور، ص ١٦٨. ومن نوفمبر ١٨٣٤ حتى أبريل ١٨٣٥ كانت هناك حكومة "بيل". وقد ترك بالمرستون ل ويلينجتون نفسه مقاليد وزارة الخارجية، التى لم تغير مع ذلك توجيهاتها، فى القضية الشرقية.

(١٦١) راجع النص فى ف. مارتنز Recueil de traités et conventions conclus par la Russie، الكتاب الرابع، الجزء الأول، ص ص ٤٤٥-٤٤٩ والملحوظة التمهيدية، ص ص ٤٣٥-٤٤٥. للحصول على تعليق، راجع أ. مولدن، Die Orientpolitik Meternichs (1829-1837) ڤيينا، ١٩١٣؛ شيمان، المرجع المذكور، ص ٥١-٥٢؛ "موات"، المرجع المذكور، ص ١٦٧.

(١٦٢) راجع بولوير، Life of Palmerston، المجلد الثانى، ص ١٦٩- ١٧٠. حول سياسات مترنيخ فى ١٨٣٣-١٨٣٤ تجاه القضية الشرقية راجع تيمبرلى، Crimea، ص ٧٩-٨١

(١٦٣) راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ٢٧٤-٢٨٦؛ تيمبرلى، Crimea، ص ٨٠-٨١

(١٦٤) راجع رسالة كامبل إلى بالمرستون فى بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٤١٩.

(١٦٥) النص فى تيمبرلى- بنسون، Foundations، الوثيقة ١٢٤ المنقولة جزئيا فى تيمبرلى، Crimea، ص ٨٢

(١٦٦) حول هذا راجع موزلى، المرجع المذكور، ص ص ٩٦-٩٨

(١٦٧) النص فى مارتنز- مورهارد، .N.R.T، المجلد ١٥، ص ٦٩٥-٦٩٩. المقالات الإضافية لـــ ١٨ التالى. نفس المرجع، نفس الموضوع، ص ٦٩٩-٧٠٢. حول المفاوضات راجع هـ. ليتون بولوير، The Life of John Temple, Viscount Palmerton، المجلد الثانى، ص ٢٥٧- ٢٦٥، ٢٧٣-٢٨٠، ٢٨٤- ٢٨٥، ٢٨٨ (المؤلف فى مجلدين، لندن، ينتلى، ١٨٧٠، أكمله آشلى بمجلدين آخرين). حول العداء وتفسير روسيا وفرنسا راجع موزلى، المرجع المذكور، ص ٩٧-١٠٢. حول تطبيقه راجع Paper 341 فى .B.P.P، ١٨٤١، المجلد الثامن (السابع الخاص بـــ .A و .P)

(١٦٨) راجع موزلى، المرجع المذكور، ص ٥٢-٥٣. حول تطور السياسة الفرنسية نحو محمد على على بعد ١٨٣٣ راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ٣١٠-٣٢٨، ٤٠٥-٤١٦ و٤٢٠-٤٢٦.

(١٦٩) راجع موزلى، المرجع المذكور، ص ٤٩-٥٠

(١٧٠) موزلى، المرجع المذكور، ص ٦٥-٦٦. بالمرستون كان يخشى كثيرا قيام تحالف بين فرنسا وروسيا: راجع خطابه إلى كرانفيل فى ٨ يونيو ١٨٣٨ فى بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٢٦٨.

(١٧١) النص موزلى، المرجع المذكور، ص ٥٦- ٥٧

(١٧٢) نص الخطاب فى بولوير، Life of Palmerston، المجلد الثانى، ص ٢٧٠-٢٧٢

(١٧٣) حول المفاوضات من أجل عقد مؤتمر للقضية المصرية والعلاقات الإنجليزية- الروسية فى النصف الثانى من ١٨٣٨ راجع موزلى، المرجع المذكور، الفصل الخامس وص ١١٧-١٢١؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ٤١٦-٤١٩، ٤٢٦-٤٣٧، جورياينوف، المرجع المذكور، ص ٥٢- ٥٧

(١٧٤) حول الحرب الصليبية وأصوات الهجوم، راجع موزلى، المرجع المذكور، ص ١٠٣، ١٠٨-١١٢.

(١٧٥) راجع موزلى، المرجع المذكور، ص ١٠٥-١٠٨

(١٧٦) راجع خطابات بالمرستون إلى بونسبنبى فى ١٣ سبتمبر ١٨٣٨ فى بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٢٨١-٢ ومن نفس الشخص لنفس الشخص الآخر فى ١٥ مارس ١٨٣٩ فى Paper n. 304, Correspondance relative to the Affairs of the

levant، الوثيقة ٧، .B. P. P، ١٨٤١، المجلد التاسع والعشرون (الـ١٧ الخاص بـ .A و .P) المنقول فى تيمبرلى- بنسون، Foundation، ص ١٢٧ خطابات بونسنبى إلى بالمرستون فى ٦ و٢٢ أبريل ١٨٣٩ فى Paper n. 304، الوثائق ٢٣، ٢٦، المنقولة فى تيمبرلى، Crimea، ص ٩٩. انظر أيضا الوثائق ٤٣-٤٤. نص الصورة الأولى من المعاهدة فى Paper n. 304، الوثيقة ٢٦، المرفق ٤. أنظر أيضا الوثائق ١٩-٢٠

(١٧٧) حول المفاوضات الإنجليزية- التركية والتدخل الروسى، راجع تيمبرلى، Crimea، ص ٩٨-١٠٠؛ موزلى، المرجع المذكور، ص ٤٣٨-٤٣٩. ولا يوجد عام مؤلف جوريانيوف.

(١٧٨) راجع تيمبرلى Crimea، ص ٩١-٩٢

(١٧٩) النص فى تيمبرلى، Crimea،ص ٨٨-٩٠

(١٨٠) تيمبرلى، Crimea، ص ٩٠

(١٨١) رسالة بالمرستون لإلى جرانفيل (٨ يوليو ١٨٣٩)، التى نقلها تيمبرلى، Crimea، ص ٩٣.

(١٨٢) رسالة بالمرستون للمثل البريطانى فى القاهرة، كامبل، بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٨٣٨. النص تيمبرلى- بنسون، المرجع المذكور، ص ص ١٢٦-١٢٧ وبالمثل اعترضي انجلترا على احتلال الباشا لمنطقة "دير" على الفرات: راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ٣٠٢

(١٨٣) النص فى صبرى، المرجع المذكور، ص ٢٩١-٢٩٦

(١٨٤) حول أسباب عداء بالمرستون تجاه محمد على، راجع تيمبرلى، Crimea ص ٩٢؛٩٦؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ٢٨٨-٣٠٦؛ ه.ل. هو سكينز؛ British Routes to India، الفصول ١، ١٣، ١٩٢٨؛ هـ. دودويل، :The foundation of modern Egypt study of Mohammed Ali، كامبردج، مطبعة الجامعة، ١٩٣١، ص ١٤٩-١٥١.

(١٨٥) نفس الممثل البريطانى فى القاهرة، كامبل، كان يعترف فى رسالة إلى بونسنبى (١٧ يوليو ١٨٣٩) "بعدم صحة كثير من الشكاوى المقدمة من الباب العالى ضد محمد على" : النص فى Paper n. 304، ص ١٩٤، مرفق ٤. وقد وبخ بالمرستون كامبل على هذه الرسالة لأنها "ضد مشاعر الحكومة الريطانية" وأقاله فى سبتمبر: راجع تيمبرلى، Crimea، ص ١٠٧

(١٨٦) حول مسئولية السلطان كمعتد-راجع جويزو، Mémoires، المجلد الرابع، ص ٣٣١-

٣٣٤ وص ٤٧٩-٤٨٤؛ أ. دريو، L'Égypte et l'Europe: la crise de 1839-1841، فى مجلدات، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٣٠-١٩٣٤، المجلد الأول، الوثائق ١-٦، ١١. ولكن روسيا أبلغت محمد على أنها تعتبره "معتديا": راجع دريو، نفس الموضع، الوثيقة ٧.

(١٨٧) راجع دريو، L'Égypte et l'Europe، المجلد الأول، الوثيقة ٨ (ص ٢٤)، المجلد الثانى (ص ٣٦)، تقارير الممثل الفرنسى فى القاهرة، كوشليه، الوزير الخارجية، سولت، بتاريخ ١٥ مايو والسفير البابوى النمساوى بتاريخ ٢٨ مايو ١٨٣٩.

(١٨٨) النص فى دريو، L'Égypte et l'Europe، المجلد الأول، الوثيقة ١٣ (ص ٥١).

(١٨٩) حول هذه الأحداث راجع أ.ج. بوليتيس، Le conflit Turco-Égyptien de 1838-41، القاهرة، الجمعية الملكية للجغرافيا فى مصر، ١٩٣١، الوثائق ٤٨_٦٣، دريو، الوثائق ٦-٣٦ فى مواضع متفرقة، ص ٥٣-٦٢؛ تيمبرلى، Crimea، ص ١٠٤-١٠٥؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ٤٤٣-٤٤٦؛ مولتكه، Gesammelte Schriften، المجلد الثانى، برلين، ميتلر، ١٨٩٢، ص ص ٢٩٨-٣١٤؛ مولتكه، Lettres du maréchal de Moltke sur l'orient، باريس، ساندوز وفيشباخر، ١٨٧٢، الخطاب ٦٣ (La bataille de Nisib). وكان مولتكه مع قوات حافظ.

(١٩٠) حول قضية نقل الأسطول راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٣٨، ٤٠،٤٦-٤٧، ٥١؛ المجلد الثانى، الوثيقة ٢٨

(١٩١) راجع Memoires،المجلد الرابع، ص ٣٤٢

(١٩٢) دريو، L'Égypte et l'Europe، المجلد الأول، الوثائق ٤١-٤٣. أنظر أيضا ٢٠-٣٠؛ بوليتيس؛ المرجع المذكور، الوثيقة ٦٤، صبرى، المرجع المذكور، ص ٤٥٤

(١٩٣) لطرد كوزريف، طلب مساندة المفتى الأكبر فى القسطنطينية وباشوات الباب العالى الستة عشر، راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، ص ٤٧، ٥٠، ٦٦.

(١٩٤) راجع خطاب بالمرستون إلى جرانفيل بتارخ ١٩ يوليو ١٨٣٩ فى بولوير، Life of Palmerston، المجلد الثانى، ص ٢٩٥

(١٩٥) حول السياسة المصرية عند "سولت"، من أبريل إلى يوليو ١٨٣٩، والمنتقدة عامة، راجع دريو، L'Égypte et l'Europe، المجلد الأول، ص ٥٢-٦٨ والوثائق ١١، ٢٥، ٣٤، ٥٢، ٥٣؛ جويزو، Mémoites، المجلد الرابع، ص ٣٣٥-٣٤١، ٣٥٧-٣٦١؛

"موات"، المرجع المذكور، ص ١٧١-١٧٢. نص رسالة ١٧ يوليو فى دريو، L'Égypte et l'Europe، المجلد الأول، الوثيقة ٤٤ وفى جويزو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ٥١٢-٥١٣.

(١٩٦) راجع جويزو، المرجع المنكور، المجلد الرابع، ص ٣٤٨؛ دريو، المرجع المذكور، ص ٤٥٦-٤٥٧. ولا توجد إشارة فى Mémoites مترنيخ.

(١٩٧) النص فى Paper n. 304، الوثيقة ٢٢٦، المرفق ٤؛ د مارتنز- مورهارد، Nouvéau Suppléments، المجلد الثالث، ص ٨٧٥-٨٧٦. بالنسبة للمراسلات التى جرت بين مختلف الحكومات الأوربية والطرفين المتحاربين راجع Paper n. 304، الوثائق ٤٥-٢٢٦ فى مواضع متفرقة؛ صبرى، المرجع المذكور، ٤٥٧-٤٦١. جويزو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ٣٤٣-٣٤٨؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٤٨٤-٥٤٦. حولها راجع تيمبرلى، Crimea، ص ١٠٨؛ تيمبرلى- بنسون، Foundations، ص ١٢٢؛ ماريوت، المرجع المذكور، ص ٢١٢-١٣.

(١٩٨) دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثيقة ٥٧

(١٩٩) حول موقف بوتينف، راجع موزلى، المرجع المذكور، ص ١٠٤

(٢٠٠) دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٥٩، ٦٣-٦٤؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٨٥، ٨٩؛ المجلد الثانى، الوثيقة ٦.

(٢٠١) دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٥٩-٦٠. الاتفاق المباشر لقى تشجيع روسيا؛ الوثائق ٧٩، ٨١. راجع أيضا بوليتيس، المرجع المذكور، الوثائق ٦٦-٦٧، ٦٩، ٧٢.

(٢٠٢) راجع Paper n. 304، الوثائق ٢٨٦، ٢٨٨؛ دريو، المرحع المذكور، المجلد الأول، الوثيقة ٦٦، جويزو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ٣٤٣: تيمبرلى، Crimea، ص ١٠٨-١٠٩.

(٢٠٣) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثيقة ٨٥ (ص ٣٢٩- ٣٣٩) و٨٩.

(٢٠٤) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٨٣-٩١؛ بوليتيس، المرجع المذكور، الوثيقة ٧٣.

(٢٠٥) حول أهداف توسع محمد على راجع تيمبرلى، Crimea، ص ١٠٠-١٠٣ وسان ماركو، Il Regano di Mohammed Ali، المجلد الثامن، وثائق مختلفة.

(٢٠٦) راجع جويزو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ٣٤٩- ٣٥٥؛ المجلد الخامس، ص ٢٧-٢٩؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الأول، الوثائق ٩٥-٩٦؛ بولير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٢٩٦-٢٩٨.

(٢٠٧) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الثانى، الوثيقة ١، ص ١-٢١

(٢٠٨) دريو، المرجع المذكور، المجلد الثانى، الوثيقة ٢٩

(٢٠٩) دريو، المرجع المذكور، المجلد الثانى، الوثيقة ٣٥، بوليتيس، المرجع المذكور، الوثائق ٧٦-٧٧.

(٢١٠) دريو، المرجع المذكور، المجلد الثانى، الوثائق ٣٨،٤٣ وص ٥٨-٦٣.

(٢١١) دريو، المرجع المذكور، المرجع الثانى، الوثيقة ٢٩ (ص ٨١).

(٢١٢) راجع نفس الموضع، ص ٧٨-٨٠

(٢١٣) دريو، المرجع المذكور، المجلد الثانى، الوثائق ٣٤، ٤٧.

(٢١٤) دريو، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٥٥-٥٨.

(٢١٥) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ١٧-١٨.

(٢١٦) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الثانى،الوثيقة ١ (رسائل من زميرنه، ٢٩ أكتوبر والقسطنطينية، ٤ نوفمبر)، ٢ (رسالة لكوشليه فى ٥ نوفمبر)، ٩ (رسالة من القسطنطينية فى ١٩ نوفمبر)، ١٠ و ١١ (رسائل كوشليه فى ٢٠ و٢٦ نوفمبر)، ١٤ (رسالة سولت إلى كوشليه فى ٧ ديسمبر)، ١٥ (رسالة من القسطنطينية فى ٩ ديسمبر)، ١٦ (خطاب محمد على إلى كوشليه فى ١٦ ديسمبر)، ١٧ (رسالة كوشليه فى ١٦ ديسمبر)، ٢٩، ص ٧٩ (رسالة كوشليه فى ٥ يناير ١٨٤٠)، ٧٧ (رسالة كوشليه فى ٢٦ مارس).

(٢١٧) راجع دريو، المجلد الثاني، الوثائق ٢١-٢٢-٢٨

(٢١٨) حول مايسمى ب "عرض سيباستيانى"، راجع Paper n. 304 الوثائق ٢٨١،٣٠٦، ٣١٣، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٩، ٣٣٣، ٣٥١، ٣٥٥، ٣٥٨، ٣٧٩، ٣٨٥، ٣٩٩، ٤٠٣، جويزو، Mémoires، المجلد الرابع، ص ٣٥٨- ٣٦٣؛ ٣٧٠، ٥٤٦- ٥٧٤، تيمبرلى، Crimea، ص ١١٣، صبرى، ص ٤٧٥-٤٧٧، "موات"، المرجع المذكور، ص ١٧٣-١٧٥ فى مواضع متفرقة

(٢١٩) راجع خطاب بالمرستون إلى بونسنبى، فى ٢ ديسمبر ١٨٣٩ فى تيمبرلى- بنسون،

Foundations، ص ١٢٧-١٢٨؛ مقتطف فى Paper 304، الوثيقة ٣٩٨.

(٢٢٠) راجع رسائل ٢٢، ٢٧، ٣١ أغسطس الخاصة بالسفير الإنجليزى فى بطرسبرج كلانريكارد فى Paper n. 304، الوثائق ٢٩٠-٢٩٣. راجع بولير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٢٩٩؛ "موات"، المرجع المذكور، ص ١٣٧

(٢٢١) راجع أليزون فيليبس، Méhémet Ali، ص ٥٥٧.

(٢٢٢) حول مهمتى برونو والاتفاق الإنجليزى- الروسى راجع ----، الوثائق ٤١٩، ٤٢٧، ٤٣٠، ٤٤٥-٤٤٦، ٤٥٦- ٤٥٧، ٥٠٦؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الثانى، جويزو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ٥٥٩-٥٧٤؛ جوريا ينوف، المرجع المذكور، ص ص ٦٢-٧٦؛ بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٢٩٩-٣٠٣، ٣٠٥-٣٠٧؛ " موات"، المرجع المذكور، ص ١٧٣؛ تيمبرلى Crimea، Paper 304، ص ١١١-١١٢، ٤٢٦. وقد أعيدت صيلغة الاتفاق مرة أخرى؛ راجع جوريابنوف ص ٧٦-٨١

(٢٢٣) حول مهمة كامل، راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الثانى، الوثائق ٢٣، ٣٩؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ص ٤٠-٤٠٣.

(٢٢٤) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الثانى،الوثيقة ٩٣ أنظر أيضا الوثيقة ٩٥

(٢٢٥) دريو، المرجع المذكور، المجلد الثانى، الوثائق ٩٨-١٠٠، ١١٨، ١٢٦.

(٢٢٦) راجع جويزو، المرجع المذكور، الكتاب الخامس، الفصل الثامن والعشرون؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الثانى، فى مواضع متفرقة.

(٢٢٧) راجع النص فى Paper 304، الوثيقة ٥٤١؛ جويزو، المرجع المذكور، المجلد الخامس. ص ص ٤٢٠-٤٢٣؛ دريو، المرجع المذكور، الوثيقة ٩٠

(٢٢٨) دريو، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ١٠؛ جويزو، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ٤٢٥: "موات"، المرجع المذكور، ص ١٧٦. أنظر أيضا ص ص ٧٥-٨٥. حول السياسة المصرية، هناك بعض الإشارات ولكنها غير كافية، سيرة هــ. مالو، Thiers (1796-1877)، باريس، بايوت، ١٩٣٢، ص ٢٩٦-٢٩٧، ٣٠٤-٣٠٧.

(٢٢٩) راجع Paper 304، الوثيقة ٥٤٣

(٢٣٠) راجع تقارير المفاوضات فى رسالة بالمرستون إلى السفير بولوير بتاريخ ٢١ يوليو ١٨٤٠ فى Paper 323: Correspondence relative to the Affairs of Levant، الجزء الثانى، الوثيقة ١٠ فى B.P.P.، المجلد التاسع والعشرون المذكور؛ جويزو، المرجع

المذكور، الكتاب الخامس، ص ٨٥-٨٧؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ٤٩١-٤٩٣.

(٢٣١) راجع رسالة كوشليه إلى وزير خارجية فى ٦ مايو ١٨٤٠ فى دريو، المرجع المذكور، المجلد الثانى، الوثيقة ١٠٣. انظر أيضا الوثيقة ١٢١

(٢٣٢) راجع "موات"، المرجع المذكور، ص ١٧٦-١٧٧ وص ٦٣٩-٦٤٠

(٢٣٣) حول مهمة سامى راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ص ٨٤-٨٥، الوثائق ٣، ١٢، ١٢٨، ١٢٩ والمجلد الثالث، ص ص ٦-٩، الوثيقة ١، ٨، ١٠، ١٢، ١٥، ١٧، ١٩، ٢٠، ٢٣، ٢٦، ٢٨، ٣٠؛ Papers 323، الوثيقة ٦٥؛ جويزو، Mémoires، المجلد الخامس،ص ٢٠٨-٢١٠؛ تيمبرلى، Crimea، ص ص ١١٧-١١٨ فى مواضع متفرقة؛ بوليتيس، المرجع المذكور، الوثائق ٨٧-٩٧؛ أليزون فيليبس، المرجع المذكور، ص ٥٦٧.

(٢٣٤) راجع النص فى تيمبرلى، Crimea، ص ٤٨٧-٤٨٨.

(٢٣٥) بالنسبة للمفاوضات راجع مترنيخ، Mémoires، الكتاب السادس، الوثائق ١٣٥٩-١٣٦٧، ١٣٧٤، ١٣٧٦، ١٣٧٨، ١٣٨٠-١٣٨١، ١٣٨٦-١٣٨٧، ١٣٩٨-١٣٩٠، ١٣٩٧- ١٤٠١ صبرى، المرجع المذكور، ص ص ٤٩٥-٤٩٩، جوريابنوف، المرجع المذكور، ص ٨١-٨٢؛ ماريوت، المرجع المذكور، ص ٢١٥-٢١٦.

(٢٣٦) النصوص فى دريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث، الوثائق ٩١-٩٤؛ Paper 305، الوثائق ٦١٥-٦١٨؛ مارتنز، Nouveau Recueil Général de Traités، المجلد الأول، ص ١٥٦. الملخص فى تيمبرلى، Crimea، و ص ١١٥-١١٦؛ تيمبرلى- بنسون، المرجع المذكور، ص ١٢٢

(٢٣٧) حول هذه الأوامر، راجع Paper 323، الوثائق ١٤-١٦، ١٨، ٢٠، ٢٧؛ دريو، المجلد الثالث، الوثائق ٤٢ و ٤٣؛ تيمبرلى، Crimea، ص ١١٨- ١١٩

(٢٣٨) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث، الوثائق٣٢، ٣٧

(٢٣٩) راجع Paper 323، الوثائق ١١٧، مرفق ٢؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث، الوثائق ٤٧، ٤٨، ٥٢، ٥٣، ٥٨، ٦٦.

(٢٤٠) راجع Paper 323، الوثيقة ١٣٠؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث، الوثائق ٥٤، ٥٨، ٥٩، ٧٠، ٧٧- ٧٨، ٩٥.

(٢٤١) راجع دريو، المرجع المذكور، الوثائق ٧١، ٧٥، ٧٩- ٨١

(٢٤٢) راجع Paper 323، الوثيقة ١٧٨؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث، الوثائق ٨٥، ٨٩، ١٠١.

(٢٤٣) للحصول على تقرير عن العمليات والمصادر المرجعية راجع تيمبرلى، Crimea، ص ١٢٠-١٣٠؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ٥١٣-٥٢٦؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث فى مواضع متفرقة.

(٢٤٤) راجع Paper 323، الوثيقة ١٧٨؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث، الوثيقة ١٨.

(٢٤٥) راجع مالو، Thiers، ص ٣٠٨-٣١٤؛ دو لازاد. Monsieur Thiers، باريس، بلون، ١٨٨٤، ص ١٥٠-١٥٥؛ "موات"، المرجع المذكور، ص ١٧٧-١٧٨؛ أليزون فيلبيس، التاريخ المذكور، ص ٥٦٨-٥٧٠.

(٢٤٦) راجع نص المذكرة فى Paper 323، الوثيقة ١٧. حول القطيعة الإنجليزية- الفرنسية ودفاع بالمرستون عن عمله، راجع خطاب بالمرستون إلى بولوير فى ٣١ أغسطس ١٨٤٠ فى Paper 323، الوثيقة ٩١ ودريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث، الوثيقة ٧٩ والخطاب الآخر من بالمرستون إلى ملبورن بتاريخ ٥ يوليو ١٨٤٠ فى بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، من الجانب الفرنسى راجع جويزو، المرجع المذكور، المجلد الخامس، الفصل الحادى والثلاثون وص ٤٤٥-٤٤٦.

(٢٤٧) حول مهمة واليسكى، راجع صبرى، المرجع المذكور، ص ٥٠٢- ٥٠٨ دريو، المرجع المذكور، المرجع الثالث، الوثائق ٤٨، ٥٠، ٥٩، ٦٢، ٧٠، ٧٥، ٨٨، ١٠٣، ١٢٧، ١٣٩، ١٤٢، ١٥٤، ١٥٦، ١٦٢.

(٢٤٨) تيمبرلى- بنسون، Foundations، ص ١٢٢-١٢٣؛ فيليبس، Méhémet Ali. المالو، المرجع المذكور، ص ٣١٦ ينقل الجملة التالية عن بالمرستون :"إذا ألقن فرنسا بقفازها فلا بد من التقاطه. وستفقد فرنسا الأسطول والمستعمرات والتجارة والجزائر، وسيلقى الباشا فى النيل. وقد فعلت هذا دائما فى كل مرة يبدأ فيهل السفيران جوزو و بوركينى فى القام ببعض الأعمال الاستفزازية وقد لاحظت أن هذا يعمل دائما كمهدى". وكان بالمرستون واثقا من أن تيرز لن يذهب أبعد من التهديدات الشفوية: راجع خطابه إلى بولوير بتاريخ ٢١ يوليو ١٨٤٠ فى بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٣١٥-٣١٨

(٢٤٩) مالو، Thiers، ص ٣٠٧-٣٠٨

(٢٥٠) راجع Paper 323، الوثيقة ٥٦، ٦١، ٦٧، ٧٨؛ جويزو، المرجع المذكور، المجلد

الخامس، الفصل ٣٢ فى مواضع متفرقة؛ بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٣١٩-٣٣٣

(٢٥١) نص البروتوكول فى Paper 323، الوثيقة ١٣٩ و دريو، المرجع المذكور، المجلد الثالث، الوثيقة ٩٧

(٢٥٢) Paper 323، الوثائق ١٣٥،١٤٩، ١٥٦، ١٦٨، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٣، ٢٠٧، ٢٠٩-٢١١، ٢١٤، ٢١٧، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٦؛ Paper 337, Correspondence relative to the Affairs of the Levant، الجزء الثالث؛ الوثائق ١-٦، ٢٥-٢٩، ٣٨، ٥٧، ٣٦، ٦٥، فى .B.P.P، ١٨٤١، المجلد الثامن (السابع لـــ .A و .P)؛ صبرى، المرجع المذكور، ص ٥٢٦-٥٣١؛ مالو، المرجع المذكور، ص ٣١٧-٣١٨؛ "موات"، ص ١٧٨.

(٢٥٣) راجع النصوص فى Paper 323، الوثيقة ١٨٣، ٢١٣؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الخامس، ص ٣٣٧ وص ٥٠٦-٥٠٩. أنظر أيضا بوليتيس، المرجع المذكور، الوثيقة ١٠٣، بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٣٧٦-٣٨٣ فى مواضع متفرقة مالو، المرجع المذكور، ص ٣١٩. دافع تيرز عن سياسته فى مجلس النواب فى جلسة ٢٥ نوفمبر.

(٢٥٤) Paper 323، الوثائق ٢٥٨-٢٦٢

(٢٥٥) راجع جويزو، Mémoires، المجلد السادس، ص ٤٠-٤١، دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثائق ٨-٩، ٣٤.

(٢٥٦) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثائق ٦-٧، ١٥.

(٢٥٧) راجع النص فى دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ١٠. للحصول على تعليق بالمرستون على المديح الفرنسى تجاه محمد على، راجع بولوير، المرجع المذكور، المجلد الثانى، ص ٣٦٣-٣٦٤.

(٢٥٨) حول رسالة ٢ نوفمبر، راجع جويزو، Mémoires، المجلد السادس، ص ٤٢-٤٦؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ٢

(٢٥٩) حول تعليمات بالمرستون فى ١٥ أكتوبر و ١٤ نوفمبر راجع Paper 323، الوثيقة ٢٣٠، Paper 337، الوثائق ٢٢-٢٤؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثائق ١٩، ٢٤؛ تيمبرلى، Crimea، ص ١٣١-١٣٢.

(٢٦٠) النص فى Paper 337، الوثيقة ٨٧. حول الاتفاقية Paper 337، الوثائق ٨٣-٨٧ راجع تيمبرلى، Crimea، ص ١٣٣؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ١٠٨

(٢٦١) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ٤١

(٢٦٢) راجع Paper 337، الوثيقة ٩٢؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ٤٨؛ جويزو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ص ٥٧-٥٩.

(٢٦٣) راجع Paper 337، الوثائق ١١٥، ١٢٤، ١٣٣، ١٤٣؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثائق ٤٢-٤٥، ٥٠، ٥٤، ٥٥، ٦١: تيمبرلى، Crimea، ص ١٣٥

(٢٦٤) راجع Paper 337، الوثيقة ١٣٢، المرفق؛ جويزو، المرجع المذكور، المجلد السادس، ص ٦١-٦٤؛ تيمبرلى، Crimea، ص ١٣٨

(٢٦٥) راجع Paper 337، الوثائق ١٠٣-١٠٤

(٢٦٦) راجع Paper 337، الوثيقة ٩٣؛ جويزو، المرجع المذكور، المجلد السادس، ص ٦٦؛ تيمبرلى، Crimea، ص ١٣٦-١٣٨

(٢٦٧) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، ٦٤

(٢٦٨) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثائق ٦٧-٦٨؛ بوليتيس، المرجع المذكور، الوثيقة ١١٣

(٢٦٩) نص المذكرة فى دريو، المجلد الرابع، الوثيقة ٨٠. أنظر أيضا جويزو، المرجع المذكور، المجلد السادس، ص ٧١

(٢٧٠) النص فى دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ٩٦

(٢٧١) النص في دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ٩٧

(٢٧٢) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثائق ١٠٨-١٠٩ ١١٣-١١٥.

(٢٧٣) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ١٢٣.

(٢٧٤) راجع نص الروتوكول دريو، المجلد الرابع، الوثيقة ١٢٠. أنظر أيضا الوثيقة ١٢٩.

(٢٧٥) راجع دريو، المرجع المذكور، المجلد الرابع، الوثيقة ١٣١

(٢٧٦) جويزو، المرجع المذكور، المجلد السادس، ص ٧١-١٠٣؛ دريو، المرجع المذكور، المجلد الخامس، الوثيقة ٦

(٢٧٧) راجع دريو، المرجع المذكور، الوثائق ١٢، ٢٠، ٢٣

(٢٧٨) راجع نص المذكرة فى دريو، المرجع المذكور، المجلد الخامس، الوثيقة ٢٩.

(٢٧٩) راجع النص فى دريو، المرجع المذكور، المجلد الخامس، الوثيقة ٣٧. حول النشاط الدبلوماسى للحكومات الأوروبية فى شهر أبريل- مايو راجع جويزو، Mémoires، المجلد السادس، ص ١٠٥-١٢٢.

(٢٨٠) راجع النص فى دريو، المرجع المذكور، المجلد الخامس، الوثائق ٤٠ و٤٠ مكرر. (فى التاريخ باللغة التركية لـــ "لطفى"، المجلد – ص ١٤٣ وكما فى الـــ Recueil des firmans impériaux ottomans adrésses aux valis et aux Khédives d'Égypte، القاهرة، ١٩٣٤، ص ٢٣٣، وهذه الوثيقة بتاريخ ٢ ربيع الثانى ١٢٥٧، المقابل لـــ ٢٤ مايو ١٨٤١. ملحوظة لمكتب التحرير.)

(٢٨١) راجع دريو، المجلد الخامس، الوثيقة ٥٣

(٢٨٢) راجع دريو، المجلد الخامس، الوثائق ٨١، ٨٩

(٢٨٣) النص فى مارتنز-مورهارد، Nouveau Recueil général de traités، المجلد الثانى، جوتينجا، دييتريتس، ١٨٤٤، ص ١٢٠-٢٧

(٢٨٤) النص فى مارتنز- مورهارد، المجلد الثانى، ص ١٢٨-١٣٠.

للحصول على تعليق راجع جورياينوف، المرجع المذكور، ص ٨٢-٨٣



المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومي للترجمة

	العنوان	المؤلف	المترجم
١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقي جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضري
٥-	ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكي
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودي	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
١١-	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسي للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسي سميث	أشرف رفيق عفيفي
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عثمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوي
١٨-	الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولي و بدوي عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجي	ماجدة العناني
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد علي الناصري
٢٣-	تجلي الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوي (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشري الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة في التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه – كلود كاين	عبد الستار الحلوجي وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣-	التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول ب. ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩- الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدى أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩- الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس. روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥- ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	چوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢- لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢- السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣- نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤- صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى

-٧٥	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
-٧٦	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
-٧٧	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
-٧٨	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
-٧٩	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
-٨٠	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
-٨١	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
-٨٢	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
-٨٣	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
-٨٤	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
-٨٥	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
-٨٦	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
-٨٧	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
-٨٨	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
-٨٩	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
-٩٠	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
-٩١	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
-٩٢	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
-٩٣	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
-٩٤	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
-٩٥	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
-٩٦	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
-٩٧	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
-٩٨	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
-٩٩	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديڤيد روبنسون	إبراهيم قنديل
-١٠٠	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
-١٠١	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
-١٠٢	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
-١٠٣	قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
-١٠٤	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
-١٠٥	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
-١٠٦	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
-١٠٧	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
-١٠٨	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
-١٠٩	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
-١١٠	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
-١١١	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
-١١٢	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

العنوان	المؤلف	المترجم
١١٣- راية التمرد	سادى بلانت	أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنينل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	جوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد فاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧- مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابي
١٥٣-	غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥-	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جي أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	مى التلمسانى
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامي الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٩-	الأيديولوجية	ديڤيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠-	آلة الطبيعة	پول إيرليش	حسين بيومى
١٦١-	مسرحيتان من المسرح الإسباني	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦-	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧-	في عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨-	دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠-	الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابي
١٧٣-	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤-	القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	ألڤين كرنان	بدر الديب

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
١٨٩	العمى والبصيرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣	عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥	شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦	المهلة الأخيرة (رواية)	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨	الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠	ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	چيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦	الهيولية تصنع علمًا جديدًا	چيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧	ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠	مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢	قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧	مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثان	على إبراهيم منوفى
٢١٩	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠	الهيولية فى الكون	بارى پاركر	على يوسف على
٢٢١	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢	فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣	العلم فى مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥	حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦	أرض المساء وقصائد أخرى	ديڤيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى

٢٢٧-	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١-	الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣-	فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل شوبكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩-	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١-	فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤-	الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومى
٢٥٤-	أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١-	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	جون جريبن	على يوسف على
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥- روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦- مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧- فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨- ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠- وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١- الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢- الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣- الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	چوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤- السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥- ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦- فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧- الچينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨- البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠- الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١- الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣- السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الروف البمبى
٢٨٤- هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
٢٨٥- رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧- الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨- الفن الروائى	ديڤيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩- ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠- علم اللغة والترجمة	چورچ مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١- تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢- تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣- مقدمة للأدب العربى	روچر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤- فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥- سلطان الأسطورة	چوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦- مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨- مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩- ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	چين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١- أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢- أقدم لك: فنجنشتين	چون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- أقدم لك: بوذا	چين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- أقدم لك: الشعور	ديڤيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكى
٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف چونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٣١٠- أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم	چانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد	س. شير لايموڤا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايترى سبيڤاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليڤى برو ڤنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢- وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو بوجين كليناوار	خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٣٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت	مارڤن شبرد	سامى صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٣٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمى
٣٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤- الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٣٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	يونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٣٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	چان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٣٥١- مبادئ المنطق	چوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٣٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧- متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٣٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه چاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد چيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧- القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات	چيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	چان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٣٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩-	ملك فى الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠-	حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١-	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢-	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد اسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣-	هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤-	القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥-	مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦-	دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧-	أغنيات وسوناتات (شعر)	جون دن	بهاء جاهين
٣٨٨-	مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩-	تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠-	الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١-	الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢-	مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣-	فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤-	القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥-	آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦-	السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٣٩٧-	أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨-	أقدم لك: سارتر	فيليب تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩-	أقدم لك: كامى	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠-	مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١-	أقدم لك: علم الرياضيات	زيادون ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢-	أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣-	ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤-	تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥-	إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦-	المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧-	الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨*-	معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩-	انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠-	خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١-	همس من الماضى	چينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣-	أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤-	الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥-	صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦-	مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨- سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	چين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩- العصر الذهبى للإسكندرية	چون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠- مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	ڤولتير	الطيب بن رجب
٤٢١- الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣- إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥- من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦- الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧- بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨- الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩- أقدم لك: هيجل	ليود سپنسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠- أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١- أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢- أقدم لك: ماكياڤللى	پاتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣- أقدم لك: جويس	ديڤيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤- أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥- توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧- رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨- بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩- موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠- قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١- رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أروونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢- حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣- اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤- أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥- حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦- التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧- ملحمة السِّيد	تراث شعبى إسبانى	الطاهر أحمد مكى
٤٤٨- الفلاحون (ميراث الترجمة)	الأب عيروط	محى الدين اللبان ووليم داوود مرقس
٤٤٩- أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠- أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١- أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢- أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣- القاهرة: إقامة مدينة حديثة	چان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤- خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥- تاريخ الفلسفة الحديثة (مجـ٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦- لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧- النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨- الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩- نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠- أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١- أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢- طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣- الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤- ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥- قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦- حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧- التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨- روح الفلسفة الحديثة	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩- جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠- الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد الننة
٤٧١- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢- دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣- دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤- الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥- صوت مصر: أم كلثوم	فرچينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦- أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧- تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨- الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩- المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠- تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١- بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢- موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير چاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣- النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤- جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥- التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦- الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧- الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨- الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩- هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسِّرل	محمود رجب
٤٩٠- أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١- نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢- محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارچيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوانو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديساً (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقَّع (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جوناثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	أرنولد واشنطون وبونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفل إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١- ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢- المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣- تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٣٤- الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥- مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦- الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧- للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨- النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩- خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠- توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١- هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣- أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤- أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥- يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦- ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧- أقدم لك: بارت	فيليب تودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨- أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩- أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠- أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١- الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢- قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف اليمبى
٥٥٣- مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤- مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥- الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦- أقدم لك: چان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧- أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨- أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩- الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠- صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١- جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢- بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣- ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤- عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥- الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦- تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧- الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨- الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٥٦٩-	موقع الثقافة	هومى بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١-	تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤-	مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥-	الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكى	چون ماهر وچودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (مج١)	چون فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١-	الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى آرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨-	أمنحوتب الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩-	تمبكت العجيبة	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	پول ڤاليرى	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكواتو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوى
٦٠٠-	الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان ڤوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢-	ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣-	النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج١)	پاتريك ل. آبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦-	قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١-	رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعى
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	آى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣-	نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلوانى
٦٢٥-	الجرح السرى	چان چينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥-	التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	ألكسياد	الأميرة أنّاكومنينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	چوناثان ميلر وبورين ڤان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سيهر نبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	چون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	چى دى موباسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روچر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجنور	داسو سالدييار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راى هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول داڤيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	ولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجبار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولمة	فريدريك چيمسون وماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	چيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانڤيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج٢)	إدوارد جرانڤيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٣)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	المدينة الفاضلة (ميراث الترجمة)	كارل ل. بيكر	محمد شفيق غربال
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل (رواية)	تى. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الأعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩-	الملف (مسرحية)	تادووش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢-	أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
٦٩٣-	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حاثيم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤-	أقدم لك: دريدا	جيف كولينز وبيل مايبلين	حمدى الجابرى
٦٩٥-	أقدم لك: رسل	ديف روبنسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	أقدم لك: روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أقدم لك: أرسطو	روبرت ردفين وجودى جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	أقدم لك: عصر التنوير	لويد سبنسر وأندرزيجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	أقدم لك: التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زارايت	جمال الجزيرى
٧٠٠-	الكاتب وواقعه	ماريو بارجاس يوسا	بسمة عبدالرحمن
٧٠١-	الذاكرة والحداثة	وليم رود فيفيان	منى البرنس
٧٠٢-	مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى (ميراث الترجمة)	جوستينيان	عبد العزيز فهمى
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانفيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥-	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
٧٠٦-	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	جونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	أقدم لك: فالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	إيان هاتشباى وجوموران - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢-	الإلياذة (جـ١) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣-	الإلياذة (جـ٢) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤-	حديث القلوب (ميراث الترجمة)	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥-	سر تقدم الإنكليز السكسونيين (ميراث الترجمة)	إدمون ديمولان	أحمد فتحى زغلول
٧١٦-	جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة	م. جولدبرج	جميلة كامل
٧٢٠-	مداخل إلى البحث فى تعلم اللغة الثانية	دونام جونسون	على شعبان وأحمد الخطيب

٧٢١- فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢- الصفيحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣- تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤- اليسار الفرويدى	پول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥- الاضطراب النفسى	چون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦- الموريسكيون فى المغرب	غييرمو غوثاليبس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧- حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨- العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس آليه	أميرة جمعة
٧٢٩- الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠- حكايات من السهول الأفريقية	آن جاتى	عزت عامر
٧٣١- النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢- قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣- مأساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤- بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥- فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧- الكوارث الطبيعية (مج٢)	پاتريك ل. آبوت	توفيق على منصور
٧٣٨- دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية	چيرار دى چورچ	محمد عواد
٧٣٩- دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر	چيرار دى چورچ	محمد عواد
٧٤٠- خطابات السلطة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١- الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢- أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق بهنسى
٧٤٣- الثقافة: منظور دارويني	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤- ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥- المآثر السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦- تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١)	چوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧- الاستعارة فى لغة السينما	تريڤور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨- تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩- إيكولوچيا لغات العالم	ل.ج. كالڤيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠- الإلياذة	هوميروس	بإشراف: أحمد عتمان
٧٥١- الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢- ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عاروری
٧٥٣- التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤- الشرق والغرب	أنّا مارى شيمل	عبدالسلام حيدر
٧٥٥- تاريخ الشعر الإسبانى خلال القرن العشرين	أندرو ب. دبيكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦- ذات العيون الساحرة	إنريكى خارديل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧- تجارة مكة	پاتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨- الإحساس بالعولمة	بروس روبنز	عاطف عبدالحميد

٧٥٩-	النثر الأردى	مولوى سيد محمد	جلال الحفناوى
٧٦٠-	الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود
٧٦١-	جيوب مثقلة بالحجارة (رواية)	فيرچينيا وولف	فاطمة ناعوت
٧٦٢-	المسلم عدواً و صديقاً	ماريا سوليداد	عبدالعال صالح
٧٦٣-	الحياة فى مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
٧٦٤-	ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	غالب الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٥-	ديوان خواجه الدهلوى (شعر تصوف)	خواجه مير درد الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٦-	الشرق المتخيل	تيرى هنتش	غازى برو وخليل أحمد خليل
٧٦٧-	الغرب المتخيل	نسيب سمير الحسينى	غازى برو
٧٦٨-	حوار الثقافات	محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى
٧٦٩-	أدباء أحياء	فريدريك هتمان	رندا النشار وضياء زاهر
٧٧٠-	السيدة بيرفيكتا	بينيتو بيريث جالدوس	صبرى التهامى
٧٧١-	السيد سيجوندو سومبرا	ريكاردو جويرالديس	صبرى التهامى
٧٧٢-	بريخت ما بعد الحداثة	إليزابيث رايت	محسن مصيلحى
٧٧٣-	دائرة المعارف الدولية (جـ٢)	چون فيزر وپول ستيرجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٧٧٤-	الديموقراطية الأمريكية: التاريخ والمرتكزات	مجموعة من المؤلفين	حسن عبد ربه المصرى
٧٧٥-	مرآة العروس	نذير أحمد الدهلوى	جلال الحفناوى
٧٧٦-	منظومة مصيبت نامه (مج١)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٧٧٧-	الانفجار الأعظم	چيمس إ. ليدسى	عزت عامر
٧٧٨-	صفوة المديح	مولانا محمد أحمد ورضا القادرى	حازم محفوظ
٧٧٩-	خيوط العنكبوت وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشى
٧٨٠-	من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الحميد إبراهيم
٧٨١-	الطريق إلى بكين	هدى بدران	نبيلة بدران
٧٨٢-	المسرح المسكون	مارڤن كارلسون	جمال عبد المقصود
٧٨٣-	العولمة والرعاية الإنسانية	ڤيك چورچ وپول ويلدنج	طلعت السروجى
٧٨٤-	الإساءة للطفل	ديڤيد أ. وولف	جمعة سيد يوسف
٧٨٥-	تأملات عن تطور ذكاء الإنسان	كارل ساجان	سمير حنا صادق
٧٨٦-	المذنبة (رواية)	مارجريت أتوود	سحر توفيق
٧٨٧-	العودة من فلسطين	جوزيه بوفيه	إيناس صادق
٧٨٨-	سر الأهرامات	ميروسلاف فرنر	خالد أبو اليزيد البلتاجى
٧٨٩-	الانتظار (رواية)	هاچين	منى الدروبى
٧٩٠-	الفرانكفونية العربية	مونيك بونتو	جيهان العيسوى
٧٩١-	العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة	محمد الشيمى	ماهر جويجاتى
٧٩٢-	دراسات حول القصص القصيرة لإدريس ومحفوظ	منى ميخائيل	منى إبراهيم
٧٩٣-	ثلاث رؤى للمستقبل	چون جريڤيس	رءوف وصفى
٧٩٤-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ٢)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٩٥-	مختارات من الشعر الإسبانى (جـ١)	نخبة	على عبد الرءوف البمبى
٧٩٦-	آفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن	نعوم تشومسكى	حمزة المزينى

٧٩٧- الرؤية فى ليلة معتمة (شعر)	نخبة	طلعت شاهين
٧٩٨- الإرشاد النفسى للأطفال	كاترين جيلدرد ودافيد جيلدرد	سميرة أبو الحسن
٧٩٩- سلم السنوات	آن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
٨٠٠- قضايا فى علم اللغة التطبيقى	ميشيل ماكارثى	عبد الجواد توفيق
٨٠١- نحو مستقبل أفضل	تقرير دولى	بإشراف: محسن يوسف
٨٠٢- مسلمو غرناطة فى الآداب الأوروبية	ماريا سوليداد	شرين محمود الرفاعى
٨٠٣- التغيير والتنمية فى القرن العشرين	توماس پاترسون	عزة الخميسى
٨٠٤- سوسيولوجيا الدين	دانييل هيرڤيه-ليجيه وچان بول ويلام	درويش الحلوجى
٨٠٥- من لا عزاء لهم (رواية)	كازو إيشيجورو	طاهر البربرى
٨٠٦- الطبقة العليا المصرية	ماجدة بركة	محمود ماجد
٨٠٧- يحى حقى: تشريح مفكر مصرى	ميريام كوك	خيرى دومة
٨٠٨- الشرق الأوسط والولايات المتحدة	ديڤيد دابليو ليش	أحمد محمود
٨٠٩- تاريخ الفلسفة السياسية (جـ١)	ليو شتراوس وجوزيف كروپسى	محمود سيد أحمد
٨١٠- تاريخ الفلسفة السياسية (جـ٢)	ليو شتراوس وجوزيف كروپسى	محمود سيد أحمد
٨١١- تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨١٢- تأمل العالم: الصورة والأسلوب فى الحياة الاجتماعية	ميشيل مافيزولى	فريد الزاهى
٨١٣- لم أخرج من ليلى (رواية)	آنى إرنو	نورا أمين
٨١٤- الحياة اليومية فى مصر الرومانية	نافتال لويس	آمال الروبى
٨١٥- فلسفة المتكلمين (مج٢)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبدالغنى
٨١٦- العدو الأمريكى	فيليپ روچيه	بدر الدين عرودكى
٨١٧- مائدة أفلاطون: كلام فى الحب	أفلاطون	محمد لطفى جمعة
٨١٨- الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ١)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨١٩- الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ٢)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨٢٠- هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة)	وليم شكسبير	طانيوس أفندى
٨٢١- هفت بيكر (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٨٢٢- فن الرباعى (شعر)	نخبة	محمد نور الدين عبد المنعم
٨٢٣- وجه أمريكا الأسود (شعر)	نخبة	أحمد شافعى
٨٢٤- لغة الدراما	داڤيد برتش	ربيع مفتاح
٨٢٥- عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٦- عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٧- أمل مطروح: البدو والمستوطنون والذين يقضون العطلات	دونالد پ.كول وثريا تركى	محمد على فرج
٨٢٨- النظرية النسبية (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين	رمسيس شحاتة
٨٢٩- مناظرة حول الإسلام والعلم	إرنست رينان وجمال الدين الأفغانى	مجدى عبد الحافظ
٨٣٠- رق العشق	حسن كريم بور	محمد علاء الدين منصور
٨٣١- تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين وليوپولد إنفلد	محمد النادى وعطية عاشور
٨٣٢- تاريخ التحليل الاقتصادى (جـ٣)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨٣٣- الفلسفة الألمانية	ڤرنر شميدرس	محسن الدمرداش
٨٣٤- كنز الشعر	نبيح الله صفا	محمد علاء الدين منصور

٨٣٥- تشيخوف: حياة فى صور	بيتر أوربان	علاء عزمى
٨٣٦- بين الإسلام والغرب	مرثيدس غارثيا	ممدوح البستاوى
٨٣٧- عناكب فى المصيدة	ناتاليا ڤيكو	على فهمى عبدالسلام
٨٣٨- فى تفسير مذهب بوش ومقالات أخرى	نعوم تشومسكى	لبنى صبرى
٨٣٩- أقدم لك: النظرية النقدية	ستيوارت سين وبورين ڤان لون	جمال الجزيرى
٨٤٠- الخواتم الثلاثة	جوتهولد ليسينج	فوزية حسن
٨٤١- هملت: أمير الدانمارك	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٨٤٢- منظومة مصيبت نامه (مج٢)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٨٤٣- من روائع القصيد الفارسى	نخبة	محمد علاء الدين منصور
٨٤٤- دراسات فى الفقر والعولمة	كريمة كريم	سمير كريم
٨٤٥- غياب السلام	نيكولاس جويات	طلعت الشايب
٨٤٦- الطبيعة البشرية	ألفريد آدلر	عادل نجيب بشرى
٨٤٧- الحياة بعد الرأسمالية	مايكل ألبرت	أحمد محمود
٨٤٨- تاريخ الدولة العربية (ميراث الترجمة)	يوليوس فلهاوزن	عبد الهادى أبو ريدة
٨٤٩- سونيتات شكسبير	وليم شكسبير	بدر توفيق
٨٥٠- الخيال، الأسلوب، الحداثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٨٥١- الطب التجريبى (ميراث الترجمة)	كلود برنار	يوسف مراد
٨٥٢- العلم والحقيقة	ريتشارد دوكنز	مصطفى إبراهيم فهمى
٨٥٣- العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج١)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٤- العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج٢)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٥- فهم الاستعارة فى الأدب	چيرارد ستيم	محمد أحمد حمد
٨٥٦- القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى	فرانثيسكو ماركيث يانو بيانويا	عائشة سويلم
٨٥٧- نادجا (رواية)	أندريه بريتون	كامل عويد العامرى
٨٥٨- جوهر الترجمة: عبور الحدود الثقافية	ثيو هرمانز	بيومى قنديل
٨٥٩- السياسة فى الشرق القديم	إيڤ شيمل	مصطفى ماهر
٨٦٠- مصر وأوروبا	ڤان بملن	عادل صبحى تكلا
٨٦١- الإسلام والمسلمون فى أمريكا	چين سميث	محمد الخولى
٨٦٢- ببغاء الكاكاتو	أرتور شنيتسلر	محسن الدمرداش
٨٦٣- لقاء بالشعراء	على أكبر دلفى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٤- أوراق فلسطينية	نورين إنجرامز	عبد الرحيم الرفاعى
٨٦٥- فكرة الثقافة	تيرى إيجلتون	شوقى جلال
٨٦٦- رسائل خمس فى الآفاق والأنفس	مجموعة من المؤلفين	محمد علاء الدين منصور
٨٦٧- المهمة الاستوائية (رواية)	ديڤيد مايلو	صبرى محمد حسن
٨٦٨- الشعر الفارسى المعاصر	ساعد باقرى ومحمد رضا محمدى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٩- تطور الثقافة	روبن دونبار وآخرون	شوقى جلال
٨٧٠- عشر مسرحيات (جـ١)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧١- عشر مسرحيات (جـ٢)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧٢- كتاب الطاو	لاوتسو	محسن فرجانى

٨٧٣-	معلمون لمدارس المستقبل	تقرير صادر عن اليونسكو	بهاء شاهين
٨٧٤-	النهر الخالد (مج١)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٥-	النهر الخالد (مج٢)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٦-	دراسات فى الموسيقى الشرقية (جـ١)	هنرى جورج فارمر	أمانى المنياوى
٨٧٧-	أدب الجدل والدفاع فى العربية	موريتس شتينشنيدر	صلاح محجوب
٨٧٨-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ١)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٧٩-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٨٠-	الواحات المفقودة	أحمد حسنين بك	عبد الرحمن حجازى وأمير نبيه
٨٨١-	المستنيرون : خدمة وخيانة	جلال آل أحمد	سلوى عباس
٨٨٢-	أغانى شيراز (جـ١) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٣-	أغانى شيراز (جـ٢) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٤-	تعلم الأطفال الصغار	باربرا تيزار ومارتن هيوز	محمد رشدى سالم
٨٨٥-	روح الإرهاب	جان بودريار	بدر عرودكى
٨٨٦-	الترجمة والإمبراطورية	دوجلاس روبنسون	ثائر ديب
٨٨٧-	غزليات سعدى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٨٨٨-	أزهار مسلك الليل (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت
٨٨٩-	سارتورس (ميراث الترجمة)	وليم فوكنر	ميخائيل رومان
٨٩٠-	منتخبات أشعار فراغى	مخدومقلى فراغى	الصفصافى أحمد القطورى
٨٩١-	مفاوضات مع الموتى	مارجريت آتوود	عزة مازن
٨٩٢-	تاريخ المسيحية الشرقية	عزيز سوريال عطية	إسحاق عبيد
٨٩٣-	عبادة الإنسان الحر	برتراند راسل	محمد قدرى عمارة
٨٩٤-	الطريق إلى مكة	محمد أسد	رفعت السيد على
٨٩٥-	وادى الفوضى (رواية)	فريدريش دورينمات	يسرى خميس
٨٩٦-	شعر الضفاف الأخرى	نخبة	زين العابدين فؤاد
٨٩٧-	اختراق الجزيرة العربية	ديفيد جورج هوجارث	صبرى محمد حسن
٨٩٨-	الإسلام والعلم	برويز أمير على	محمود خيال
٨٩٩-	الدبلوماسية الفاعلة	بيتر مارشال	أحمد مختار الجمال
٩٠٠-	تيارات نقدية محدثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٩٠١-	مختارات من شعر لى جاو شينج	لى جاو شينج	عبد العزيز حمدى
٩٠٢-	آلهة مصر القديمة وأساطيرها	روبرت أرنولد	مروة الفقى
٩٠٣-	أفلام ومناهج (مج١)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٤-	أفلام ومناهج (مج٢)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٥-	تراث الهند	ج. ت. جارات	جلال السعيد الحفناوى
٩٠٦-	أسس الحوار فى القرآن	هيربرت بوسه	أحمد هويدى
٩٠٧-	أرثر.. متعة الحياة (رواية)	فرانسواز جيرو	فاطمة خليل
٩٠٨-	الحلقة النقدية	ديفيد كوزنز هوى	خالدة حامد
٩٠٩-	الفنون والآداب تحت ضغط العولمة	جووست سمايرز	طلعت الشايب
٩١٠-	بروميثيوس بلا قيود	دافيد س. لينديس	مى رفعت سلطان

٩١١-	غبار النجوم	جون جريبين	عزت عامر
٩١٢-	ترجمات يحيى حقى (جـ١) (ميراث الترجمة)	روايات مختارة	يحيى حقى
٩١٣-	ترجمات يحيى حقى (جـ٢) (ميراث الترجمة)	مسرحيات مختارة	يحيى حقى
٩١٤-	ترجمات يحيى حقى (جـ٣) (ميراث الترجمة)	ديزموند ستيوارت	يحيى حقى
٩١٥-	المرأة فى أثينا: الواقع والقانون	روجر چست	منيرة كروان
٩١٦-	الجدلية الاجتماعية	أنور عبد الملك	سامية الجندى وعبدالعظيم حماد
٩١٧-	موسوعة كمبريدج (جـ١)	نخبة	إشراف: أحمد عتمان
٩١٨-	موسوعة كمبريدج (جـ٤)	نخبة	إشراف: فاطمة موسى
٩١٩-	موسوعة كمبريدج (جـ٩)	نخبة	إشراف: رضوى عاشور
٩٢٠-	خليل جبران: حياته وعالمه	چين جبران و خليل جبران	فاطمة قنديل
٩٢١-	لله الأمر (رواية)	أحمدو كوروما	ثريا إقبال
٩٢٢-	الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى	ميكيل دى إيبالثا	جمال عبد الرحمن
٩٢٣-	ملحمة حرب الاستقلال (شعر)	ناظم حكمت	محمد حرب
٩٢٤-	حتشبسوت: عظمة وسحر وغموض	كريستيان دى روش نوبلكور	فاطمة عبد الله
٩٢٥-	رمسيس الثانى: فرعون المعجزات	كريستيان دى روش نوبلكور	فاطمة عبد الله
٩٢٦-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ١)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٩٢٧-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٩٢٨-	سجون الضوء	كيتى فرجسون	عزت عامر
٩٢٩-	نشأة الإنسان (مجـ١)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٣٠-	نشأة الإنسان (مجـ٢)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٣١-	نشأة الإنسان (مجـ٣)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٣٢-	حلائق السحر فى دقائق الشعر (ميراث الترجمة)	رشيدالدين العمرى	إبراهيم الشواربى
٩٣٣-	اللاعقلانية الشعرية	كارلوس بوسونيو	على منوفى
٩٣٤-	محنة الكاتب الأفريقى	تشارلز لارسون	طلعت الشايب
٩٣٥-	تاريخ الفن الألمانى	فولكر جيبهارت	علا عادل
٩٣٦-	بيولوجيا الجحيم	إد ريچيس	أحمد فوزى عبد الحميد
٩٣٧-	هيا نحكى (قصص أطفال)	أحمد ندالو	عبدالحى سالم
٩٣٨-	الأنطولوچيا السياسية عند مارتن هيدجر	بيير بورديو	سعيد العليمى
٩٣٩-	سجن العقل	ستيفن چونسون	أحمد مستجير
٩٤٠-	اليابان الحديثة: قضايا وآراء	مجموعة مقالات	علاء على زين العابدين
٩٤١-	الجماليات لم يولدن بعد	آى كوينى أرماه	صبرى محمد حسن
٩٤٢-	القرن الجديد	إريك هوبسبوم	وجيه سمعان عبد المسيح
٩٤٣-	لقاء فى الظلام	مختارات من القصص الأفريقية	محمد عبد الواحد
٩٤٤-	الكونترباص	باتريك زوسكيند	سمير جريس
٩٤٥-	أحلام يقظة جوال منفرد (ميراث الترجمة)	چان چاك روسو	ثريا توفيق
٩٤٦-	الزار ومظاهره المسرحية فى إثيوبيا	ميشيل ليريس	محمد مهدى قناوى
٩٤٧-	ماوراء المعنى والحقيقة	برتراند راسل	محمد قدرى عمارة
٩٤٨-	أفريقيا منذ عام ١٨٠٠	روناك أوليفر وأنتونى أتمور	فريد چورچ بورى
٩٤٩-	مقبرة الصدأ	أندريه فيش	نافع معلا

٩٥٠- في علم الكتابة	جاك دريدا	منى طلبة وأنور مغيث
٩٥١- الاتهام (رواية)	فريدريش دورينمات	عماد حسن بكر
٩٥٢- العبد ومسرحيات أخرى	أميرى بركة	تعيمة عبد الجواد
٩٥٣- مختارات من الشعر الإسبانى (جـ٢)	نخبة من الشعراء	على عبد الرءوف البمبى
٩٥٤- الأصول الاجتماعية للسياسة التوسعية فى عهد محمد على	فرد لوسون	عنان الشهاوى
٩٥٥- الطب والأطباء	سيلفيا شيفولو	ماجدة أباظة
٩٥٦- نعم، ليست لدينا نيوترونات	أ. ك. ديونى	سمير حنا صادق
٩٥٧- الحركات الاجتماعية: (١٧٦٨-٢٠٠٤)	تشارلز تلى	ربيع وهبة
٩٥٨- أصوات على هامش الحرب	مريام كوك	صلاح حزين
٩٥٩- الموريسكيون فى الفكر التاريخى	ميغيل أنخيل بونيس	وسام محمد جزر
٩٦٠- محمد على الكبير	الأمير عثمان إبراهيم وكارولين وعلى كورخان	هدى كشرود
٩٦١- شعر الرعاة (ميراث الترجمة)	مختارات من الأدب اليونانى	محمد صقر خفاجة
٩٦٢- مدخل إلى الفلسفة	وليام جيمس إيرل	عادل مصطفى
٩٦٣- منتخبات شعرية	حسن رضا خان الهندى	فاطمة سيد عبد المجيد
٩٦٤- أصول التطرف	كيمبرلى بليكر	هبة رءوف وتامر عبد الوهاب
٩٦٥- روح مصر القديمة	آنا رويز	إكرام يوسف
٩٦٦- ما وراء الطبيعة فى إيران (ميراث الترجمة)	محمد إقبال	حسين مجيب المصرى
٩٦٧- فن الحرب (مجـ ١)	سون تزى	هشام المالكى
٩٦٨- عالم الخوارق	ج. كوبر	كمال الدين حسين
٩٦٩- التليفزيون خطر على الديمقراطية	كارل بوبر وجون كوندرى	مجدى عبد الحافظ
٩٧٠- ربما فى حلب ذات يوم وقصص أخرى	نخبة	أحمد الشيمى
٩٧١- الأدب الفارسى القديم (ميراث الترجمة)	پاول هورن	حسين مجيب المصرى
٩٧٢- الإسهامات الإيطالية فى عهد محمد على باشا	مقالات مختارة	عماد البغدادى



طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٠١٤٩/ ٢٠٠٥



لا شك فى أن الدور الذى لعبه الإيطاليون فى تحديد العمل الإصلاحى للباشا المصرى- منذ اللحظات الأولى لتعزيز سلطة محمد على- يعتبر دورا بارزا. وإذا أردنا الحديث عن دور الرحالة الإيطاليين وعلماء الآثار أو الباحثين عن الآثار والباحثين بصفة عامة فى مصر منذ الأيام الأولى للقرن التاسع عشر قد لا يكفينا كتاب بأكمله.

وهذا الكتاب عبارة عن عدد من المقالات التى تتناول بعض الإسهامات الإيطالية فى مصر فى عهد محمد على.

